د. محمود الطناحي

مُستقبل الثقافة العربية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مستقبل الثقافة العربية

بقلم

د . محمود محمد الطناحى

●

دار الهلال

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الغلاف للفنان

حلمى التونى

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تقديم
بقلم : د. محمود على مكى

لم نكد نجفف دموعنا ونفيق من وقع فجيعتنا فى وفاة العلامة الكبير محمود محمد شاكر (٧ أغسطس ١٩٩٧) حتى رزئنا برحيل تلميذه محمود الطناحى، ونحن أوسع ما نكون أملاً فى أن يكون خليفته ومواصل مسيرته العلمية ، ولا سيما فى مجال تحقيق التراث وخدمته. وكأن شاعرنا القديم كان يصور مصابنا فى العالمين الجليلين حينما قال:

مُصابٌ ولم أَمْسَحْ يدى من قسيمه

وجُلّى وما نَفَضْتُ من أُخْتِها رُدْنِي

على أن الملابسات التى أحاطت بما تم من قدر الله فيهما قد اختلفت بين الفقيدين. فقد كانت وفاة محمود شاكر وهو على مشارف التسعين من عمره بعد صراع مع المرض امتد طوال أكثر من عام ، وكنا نتابع إلحاح العلة عليه يوماً بعد يوم، ونفوسنا تتقطع عليه حسرات ونحن نراه يذبل عضواً فعضواً، إلى أن نفذت فيه إرادة الله. وأما محمود الطناحى فقد اختطفته يد الموت فجأة وهو لم يجاوز الستين إلا بسنوات قليلة، وكان فى كامل عافيته ، فقد كنا نلتقى به قبل وفاته بأيام وهو كالعهد به نشاطا جمًا وحيوية دافقة، وكأنه نبت حصده منجل

الموت وهو فى تمام روائه ونضرته. وهكذا لم يمض عام ونصف عام حتى لحق التلميذ بشيخه، فربطت إرادة الله بينهما فى الحياة، ثم سوى بينهما الموت :

والموتُ أَجْوَرُ حاكمٍ وكأنه فى الناس قَسْمًا بالسَّوِيَّةِ عادِلُ

★★★

ولد محمود الطناحى عام ١٩٣٥ فى محافظة المنوفية، وانتقل إلى القاهرة وهو فى الثامنة من عمره، وحفظ القرآن الكريم وهو فى الثالثة عشرة، فالتحق بمعهد القاهرة الدينى التابع للأزهر الشريف، فحصل منه على الشهادة الابتدائية ثم الثانوية سنة ١٩٥٨، والتحق بكلية دار العلوم وحصل على شهادة الليسانس فى علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية سنة ١٩٦٢. وواصل دراساته العليا فنال شهادة الماجستير فى قسم النحو والصرف والعروض عام ١٩٧٢، ثم الدكتوراه عام ١٩٧٨.

هذه فى سطور رحلة محمود الطناحى فى طريق التعلم والدراسة، وهى رحلة استغرقت أكثر من أربعين عاماً، وأما حياته الوظيفية فقد بدأت منذ تخرجه في دار العلوم، إذ عُيِّن فى سنة ١٩٦٣ معيداً بمعهد الدراسات العربية فى الجامعة الأمريكية، ولكنه انتقل بعد سنتين إلى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، فعمل خبيراً به طيلة سنوات دراسته العليا أى حتى حصوله على الدكتوراه سنة ١٩٧٨. وأكسبه هذا العمل – الذي كان يتعاون فيه مع عالمى المخطوطات الكبيرين رشاد

عبدالمطلب وفؤاد سيد - خبرة واسعة بكنوز التراث العربى فى سائر أنحاء العالم. فكان المعهد يعهد إليه بالاشتراك فى البعثات التى كان يوجهها إلى البلاد التى احتوت خزائن كتبها على نوادر المخطوطات: تركيا عام ١٩٧٠ والمملكة المغربية عامى ١٩٧٢ و١٩٧٥، والمملكة العربية السعودية عام ١٩٧٣ وجمهورية اليمن الشمالية عام ١٩٧٤. وكان الهدف من هذه البعثات دراسة ما فى خزائن تلك البلاد من مخطوطات وانتقاء النادر منها لتصويره وحفظه فى معهد المخطوطات حتى تكون تحت تصرف المحققين والباحثين.

وبعد أن نال درجة الدكتوراه انتدب أستاذاً مشاركاً بقسم الدراسات العليا بكلية الشريعة وكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى فى المملكة العربية السعودية، وظل يباشر عمله فى التدريس بتلك الجامعة حتى عودته النهائية لمصر فى سنة ١٩٨٩. وفى سنة ١٩٩١ عين أستاذاً مساعداً بكلية الدراسات العربية والإسلامية بجامعة القاهرة فرع الفيوم، ثم رقى أستاذاً فى سنة ١٩٩٥، وانتقل للعمل فى كلية الآداب بجامعة حلوان فى قسم اللغة العربية . وخلال هذه السنوات اختاره مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية خبيراً به، كما انتخب عضواً بالهيئة المشتركة لخدمة التراث العربى فى معهد إحياء المخطوطات العربية فى منظمة اليونسكو العربية. وكانت شهرته فى مجال معرفة التراث وتحقيقه مؤدية إلى أن يختاره مجمع اللغة العربية بالقاهرة خبيراً فى لجنة المعجم الكبير، وكان عمله خلال السنوات الأخيرة فى هذه اللجنة مثرياً لها بما كان يقدمه من تحقيقات ومراجعات تشهد

بعلمه الواسع بالتراث ومعرفته العميقة بمظانِّه والتمرس بتحقيق مخطوطاته. وبلغ من تقدير المجمع لجهوده أن كثيراً من أعضائه رأوه جديراً بأن يرشح لعضوية المجمع، لولا أن وفاته المفاجئة حالت بيننا وبين إسعاد الحظ لنا بذلك.

وأما جهود محمود الطناحى العلمية فى التحقيق والتأليف فقد بدأت منذ تخرجه، إذ أخرج فى سنة ١٩٦٣ بالاشتراك ثلاثة أجزاء من كتاب «النهاية فى غريب الحديث والأثر» لمجد الدين ابن الأثير، ثم انفرد بتحقيق الجزءين الأخيرين من هذا الكتاب. وفى السنة التالية نشر - مشتركا مع زميله الفقيد عبدالفتاح الحلو - كتاب «طبقات الشافعية الكبرى» فى عشرة أجزاء ، ثم أعاد نشر هذا الكتاب الموسوعى سنة ١٩٩٢، بمزيد من التنقيح والاضافة فى هذه الطبعة الثانية.

وتوالت بعد ذلك أعماله فى تحقيق نصوص تراثية بالغة القيمة منها «العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين» (مكة المكرمة) لتقى الدين الفاسى (١٩٦٩)، وكتاب «الغريبين» - غريبى القرآن والحديث - (١٩٧٠)، وجزءين من معجم «تاج العروس» للمرتضى الزَّبيدى - السادس عشر والثامن والعشرين - (١٩٧٦ - ١٩٩٣)، و«منال الطالب فى شرح طوال الغرائب» لمجد الدين ابن الأثير (١٩٨٣)، وقد حصل بتحقيقه لهذا الكتاب على الجائزة الأولى فى تحقيق التراث بمجمع اللغة العربية، وكتاب «الشعر» لأبى على الفارسى (١٩٨٨)، و«أمالى ابن الشجرى» (فى ثلاثة أجزاء - ١٩٩٢).

وجهود محمود الطناحى فى هذه المصادر التى قام بتحقيقها تضعه فى مصاف كبار العلماء الذين نهضوا بهذه الرسالة الجليلة، من أمثال عبدالعزيز الميمنى وعبد السلام هارون ومحمود شاكر رحمهم الله وأثابهم على ما قدموه لأمتهم من غيرتهم على تراثها الفكرى وخدمة له، والمقدمات التى كان يكتبها الطناحى لما نشر من هذه الكتب تعد فى ذاتها كتباً أصيلة تحدد أصول المنهج الذى ينبغى أن يلتزم به من يضطلع بالتحقيق، وما أكثر ما يتسوَّر على هذا الميدان من ليس له بأهل، فإذا بهم يهدمون من حيث ظنوا أنهم يبنون، «وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون». ويكفى أن أحيل القارىء على تقديم الطناحى لكتاب «الشعر» لأبى على الفارسى، فقد أوضح فيه - ببيانه الجلىِّ البديع - كيف يسىء للتراث من يظنون أنهم يحسنون العمل فى نشره ونبه على أوجه الخلل فى الطرق التى يتبعها هؤلاء ، ثم رسم خطوط المنهج القويم لتحقيق كتب التراث، وهو المنهج الذى كان هو أول الملتزمين به.

ولمحمود الطناحى بعد ذلك مؤلفات أصيلة دار كثير منها حول هذا الموضوع الذى قضى معظم سنى حياته فى خدمته ، وهو النشر العلمى لتراثنا الفكرى، أذكر منها «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى»، و«الموجز فى مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم»، و«نبذة فى تاريخ الطب العربى» وغير ذلك من التحقيقات والمراجعات والفهارس التى تعد نماذج لما يجب أن تكون عليه الفهرسة للكتب التراثية ، وهو عمل يخطىء من يظنه جهداً آلياً تكميليا لتلك الكتب،

وإنما هو لون من ألوان التأليف يفرض على من يمارسه من دقة النظر وحصافة الرأى ما يلتزم به المؤلف الأصيل.

وما أكثر ما نجد فى تعليقات محمود الطناحى ومقدمات الكتب التى نشرها من آراء يصحح بها كثيراً من أحكام تتردد فى الكتب المدرسية وغير المدرسية وكأنها مسلمات ثابتة، ومنها ما ورد فى تقديمه لأمالى ابن الشجرى من «أن كثيراً من الدارسين يخطئون حين يسرفون فى تقسيم عصور الفكر العربى إلى عصور علو وعصور انحطاط. وإن المتتبع لحركة الفكر العربى فى عصوره المختلفة يروعه هذا الحشد الهائل من العلماء وطلاب المعرفة... وقد شمل هذا النشاط العالم الإسلامى كله، مشرقه ومغربه، ولم يفضل عصر عصراً أو مصر سواهما إلا ما يكون من بعض الفروق الهينة التى تفرضها طبائع الزمان والمكان. أما حركة العقل العربى من حيث هى فلم تخمد جذوتها، ولم تسكن حدتها، بتغير الحكام وتبدل الأيام، وإن أردت أن تعرف صدق ما أقول فانظر إلى ما اشتمل عليه القرنان السادس والسابع من كبار المفكرين والعلماء، وأنت تعلم أن هذين القرنين قد شهدا أعنف هجوم تعرضت له الأمة الإسلامية : الحروب الصليبية، والغزوة التترية، وقد كان هذا الهجوم الكاسح كفيلاً بالقضاء على هذه الأمة الإسلامية لولا دفع الله وصيانته».

★★★

لقد شغلنا تتبع جهود محمود الطناحى العلمية عن جانب آخر من جوانب شخصيته، وهو خلقه وسلوكه فى حياته وعلاقاته بمن حوله.

والحقيقة أن الجانبين مرتبطان أشد الارتباط، فالعالم الذى يعرف حق العلم عليه لا يمكن إلا أن يكون فاضلاً يعرف حق أسرته ومجتمعه عليه. وهكذا كان محمود : لقد اتصلت الأسباب بينى وبينه على مدى سنوات طوال، فلم أعرف فيه إلا دماثة الخلق، وطيب العشرة، وحب الخير للجميع . يجمع ذلك إلى التواضع وعدم الإدلال بعلمه، والوفاء لأساتذته وزملائه ، وعفة اللسان . لقد حورب حتى فى رزقه ، ولكنى لم أسمعه يذكر أحداً بسوء ، حتى أولئك الذين آذوه لم يجر على لسانه إلا طلب المغفرة لهم. وفى ذلك من نبل النفس والترفع عن الصغائر ما لا نجده فى نماذج نادرة من الرجال.

★★★

وبعد، فقد كان محمود الطناحى مواظبا على إتحاف مجلة «الهلال» الغراء بمقالات تتناول العديد من قضايا اللغة العربية وغير ذلك مما يتصل بتراثنا الفكرى ومستقبل ثقافتنا العربية، وقد بلغت عدة هذه المقالات نحو أربعين . وقد أحسنت دار الهلال فى حرصها على انتفاع القراء بهذا الذخر الثقافى وعلى تكريم محمود الطناحى، بإعادة نشر تلك المقالات مجموعة بين دفتى مجلد واحد. وكان أن طلبت إلىَّ أن أقوم بتقديم هذه المجموعة ، فما كان منى إلا الاستجابة بكتابة هذه الصفحات التى كنت أتمنى ألا تكون فى الوقت نفسه تأبيناً للأخ الراحل، ولكن ما قدره الله فهو كائن ، سبحانه لا مردَّ لأمره، ولا دافع لقضائه .

رحم الله محمود الطناحى وألهمنا الصبر فى فقده ، وتغمده برحمته الواسعة .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الأول

رموز عربية
فى المرآة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

محمود محمد شاكر ومنهجه فى تحقيق التراث

تحقيق النصوص علم له قوانينه وأعرافه ومصطلحاته وأدواته ، وله جانبان : جانب الصنعة وجانب العلم . فأما جانب الصنعة فهو ما يتصل بجمع النسخ المخطوطة للكتاب المراد تحقيقه ، والموازنة بينها ، واختيار النسخة الأم ، ثم ما يكون بعد ذلك من توثيق عنوان المخطوط واسم المؤلف ونسبة المخطوط إليه ، ونسخه والتعليق عليه ، وتخريج شواهده وتوثيق نقوله ، وصنع الفهارس الفنية اللازمة ، فهذا كله جانب الصنعة الذى يستوى فيه الناس جميعا ، ولا يكاد يفضل أحد أحداً فيه إلا بما يكون من الوفاء بهذه النقاط أو التقصير فيها .

وأما جانب العلم فى تحقيق النصوص فهو الغاية التى ليس وراءها غاية ، وهو المطلب الكبير الذى ينبغى أن تصرف إليه الهمم ، وتبذل فيه الجهود ، ولاء لهذا التراث العريق ، وكشفا لمسيرتنا الفكرية خلال هذه الأزمان المتطاولة ، وعدة المحقق فى ذلك هى معرفة الكتب العربية فى كل فن ، وحسن التعامل معها والإفادة منها ، لأنه فى كل خطوة يخطوها مطالب بتوثيق كل نقل وتحرير كل قضية ، بل إن المحقق الجاد

قد يبذل جهدا مضنيا لا يظهر فى حاشية أو تعليق ، وذلك حين يريد الاطمئنان إلى سلامة النص واتساقه .

وقد مر تاريخ نشر التراث فى ديارنا المصرية بأربع مراحل : المرحلة الأولى : مطبعة بولاق والمطابع الأهلية ، ومرحلة الناشرين النابهين ، ومرحلة دار الكتب المصرية ، ومرحلة الأفذاذ من الرجال .

وفى المرحلة الأولى نشرت النصوص التراثية خالية من دراسة الكتاب وترجمة مؤلفه وذكر مخطوطاته وفهرسته ، وإن كان النشر فى هذه المرحلة قد اتسم بالدقة المتناهية والتحرير الكامل ، إذ كان يقوم على التصحيح فئة من أهل العلم ، منهم الشيخ نصر الهورينى ، والشيخ محمد قطة العدوى . والمرحلة الثانية عنيت إلى حد ما بجمع النسخ المخطوطة للكتاب ، وذكر ترجمة المؤلف وبعض الفهارس ، وتعرف هذه المرحلة بتلك الأسماء : أمين الخانجى ، ومحب الدين الخطيب ، ومحمد منير الدمشقى ، وحسام الدين القدسى ، وكلهم من أهل الشام . والمرحلة الثالثة ، هى مرحلة دار الكتب المصرية ، وفى هذه المرحلة أخذ نشر التراث يتجه إلى النضج والكمال من حيث جمع نسخ الكتاب المخطوطة من مكتبات العالم ، وإضاءة النصوص ببعض التعليقات والشروح ، وصنع الفهارس التحليلية ، وما يسبق ذلك كله من التقديم للكتاب وبيان مكانه فى المكتبة العربية ، وقد تأثر هذا المنهج إلى حد ما بمناهج المستشرقين الذين نشطوا فى نشر تراثنا وإذاعته منذ القرن الثامن عشر وقد وقف على رأس هذه المرحلة أحمد زكى باشا شيخ العروبة .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أعلام فى ميدان التحقيق

أما مرحلة الأفذاذ من الرجال فهى مرحلة : أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر وعبد السلام هارون ، والسيد أحمد صقر ، وقد دخل هؤلاء الأعلام ميدان التحقيق والنشر مزودين بزاد قوى من علم الأوائل وتجاربهم ، ومدفوعين بروح عربية إسلامية عارمة ، استهدفت إذاعة النصوص الدالة على عظمة التراث الكاشفة عن نواحى الجلال والكمال فيه . ومن أعظم آثار هذه المرحلة تحقيق هذه الأصول :

الرسالة للشافعى ، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ، والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ ، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة .

وإن اتفق أعلام هذه المرحلة فيما ذكرت ، فإن أبا فهر محمود محمد شاكر يقف وحده من بينهم ، وينفصل عنهم بأمرين ، الأول : أنه صاحب قضية ، صحبته وأرقته منذ النأنأة - أى منذ صباه ونشأته الأولى - وهى قضية أمته العربية ، وما يراد لها من كيد فى لغتها وشعرها وتراثها كله ، وقد أبان عن هذه القضية فى كل ما كتب ، وبخاصة فى كتابيه : أباطيل وأسمار ، ورسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، ثم نثرها فيما دق وجل من كتاباته ، وما برح يعتادها فى مجالسه ومحاوراته ، يهمس بها حينا ، ويصرخ بها أحياناً أخرى ، لا تفرحه موافقة الموافق ، ولا تحزنه مخالفة المخالف .

ولقد حكمت هذه القضية الضخمة أعمال أبى فهر كلها ، وهى التى وجهته إلى تحقيق التراث ، فكان عمله فى نشر النصوص جزءاً من

جهاده في حراسة العربية والذود عنها ، سواء فيما نشره هو أم فيما حث الناس على نشره وأعانهم عليه .

الأمر الثاني : أن أبا فهر دخل إلى ميدان تحقيق التراث بثقافة عالية وقراءة محيطة أعتقد جازماً أنها لم تتيسر لأحد من أبناء جيله ، سواء من اشتغلوا بتحقيق التراث أم من انصرفوا إلى التأليف والدرس. لقد ألقى هذا الرجل الدنيا كلها خلف ظهره ودبر أذنيه وأستوى عنده سوادها وبياضها ، وخلا إلى الكتاب العربي في فنونه المختلفة ، والمكتبة العربية عند أبي فهر كتاب واحد – فهو يقرأ صحيح البخارى كما يقرأ الأغاني ، ويقرأ كتاب سيبويه قراءته لمواقف عضد الدين الإيجي ، وقد قلت عنه مرة بالتعبير المصرى «إنه خد البيعة على بعضها» وقد كشف هو نفسه عن ثقافته وأدواته ، فقال بعد أن حكى محنته عقب ذلك الزلزال العنيف الذى رجه رجا حين خرج المستشرق الإنجليزى «مرجليوث» بمقالته عن نشأة الشعر العربي ، وما أثاره من شك حول صحة الشعر الجاهلي ، وما كان من متابعة الدكتور طه حسين لهذه المقالة ، في كتابه «في الشعر الجاهلي» . يقول في صدر رسالته في الطريق إلى ثقافتنا «قد أفضى بي .. إلى إعادة قراءة الشعر العربي كله أولا ، ثم قراءة ما يقع تحت يدى من هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع من تفسير وحديث وفقه ، وأصول فقه وأصول دين (هو علم الكلام) وملل ونحل ، إلى بحر زاخر من الأدب والنقد والبلاغة والنحو واللغة ، حتى قرأت الفلسفة القديمة والحساب القديم والجغرافيا القديمة ، وكتب النجوم وصور الكواكب ، والطب القديم ومفردات الأدوية ، وحتى قرأت

البيزرة والبيطرة والفراسة ، بل كل ما استطعت أن أقف عليه بحمد الله سبحانه ، قرأت ما تيسر لى منه ، لا للتمكن من هذه العلوم المختلفة ، بل لكى ألاحظ وأتبين وأزيح الثرى عن الخبىء والمدفون .

فهذه هى ثقافة أبى فهر التى دخل بها ميدان تحقيق التراث ، الذى اختار هو من عند نفسه نصوصه وأصوله ، لم يملها أحد عليه ، ولم يطلبها أحد منه ، وكان من أبرز هذه النصوص : طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، وتفسير الطبرى (١٦ جزءا) وتهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأخبار ، للطبرى (ستة أجزاء)، وجمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار (جزء منه) . ودلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، كلاهما للشيخ عبد القاهر الجرجانى . إلى نصوص أخرى نشرها قديما : فضل العطاء على العسر لأبى هلال العسكرى ، والمكافأة وحسن العقبى ، لأحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية ، وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع للمقريزى (جزء منه) .

ومما يستطرف ذكره هنا أن أول كتاب تراثى يضع فيه أبو فهر قلمه بالتحقيق هو كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة ، الذى أخرجه الشيخ محب الدين الخطيب عام ١٣٤٦هـ- ١٩٢٧ ، أى منذ (٧٠) عاما ، وكان عمره إذ ذاك (١٨) عاماً ، وقد شاركه تصحيح صفحات من الكتاب أستاذنا عبد السلام هارون ، برد الله مضجعه .

وفى هذه الأصول التراثية التى أخرجها أبو فهر ، يظهر علمه الغزير الواسع الذى لا يدانيه فيه أحد من أهل زماننا ، لأنه علم موصول بكلام

الأوائل ، منتزع منه ودال عليه ومكمل له ، والشيخ - حرس الله مهجته - يسير في طريق الفحول ، لا تخرم مشيته مشية واحد من الصدر الأول .

وقبل أن أستطرد إلى ذكر أمثلة من منهج أبى فهر فى تحقيق التراث ، أحب أن أضع أمامك أيها القارىء الكريم مثالاً واحداً على دوران قضايا التراث فى عقل هذا الرجل وأنها شغله الشاغل وهمه الناصب .

أصل فى علم البلاغة

أخرج أبو فهر كتاب الشيخ عبد القاهر الجرجانى «دلائل الإعجاز» عام ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، وكانت طبعته الأولى عام ١٣٢١ هـ - ١٩٠٣م ، وقد أخرجها الشيخ محمد رشيد رضا . وهذا الكتاب يعد أصلا فى علم البلاغة وإعجاز القرآن ، وكان مما عالجه الشيخ عبد القاهر فيه الرد على من يقولون «إن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلمات ، ولكن تظهر بالضم على طريقة مخصوصة ، وقد عرض الشيخ عبد القاهر بأصحاب هذه المقالة فى مواضع كثيرة من كتابه ، كان منها قوله «واعلم أن القول الفاسد والرأى المدخول إذا كان صدره «أى صدوره» عن قوم لهم نباهة وصيت وعلو منزلة فى أنواع من العلوم غير العلم الذى قالوا ذلك القول فيه ، ثم وقع فى الألسن ، فتداولته ونشرته، وفشا وظهر ، وكثر الناقلون له ، والمشيدون بذكره ، صار ترك النظر فيه سنة والتقليد دينا» دلائل الإعجاز ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، وانظر مقدمة التحقيق .

ويسأل الشيخ أبو فهر : من يكون هؤلاء القوم الذين لهم نباهة وصيت .. إلى سائر ما وصفهم به الشيخ عبد القاهر ؟ يقول أبو فهر : وفتشت ونقبت ، فلم أظفر بجواب أطمئن إليه ، وتناسيت الأمر كله إلا قليلا ، نحوا من ثلاثين سنة ، حتى كانت سنة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م وطبع كتاب «المغنى» للقاضى عبد الجبار الفقيه الشافعى المعتزلى ، فى تلك السنة صدر الجزء السادس عشر من كتاب «المغنى» فإذا هو يتضمن فصولا طويلة فى الكلام على «ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفى إعجاز القرآن وسائر المعجزات الظاهرة عليه صلى الله عليه وسلم . فلما قرأته ارتفع كل شك وسقط النقاب عن كل مستتر وإذا التعريض الذى ذكره عبدالقاهر حين قال وأعلم أن القول الفاسد والرأى المدخول .. لا يعنى بهذا التعريض وبهذه الصفة أحداً سوى قاضى القضاة المعتزلى عبد الجبارى . وبعد ذلك نقل أبو فهر عبارة القاضى عبد الجبار ، من كتابه «المغنى» وهى «أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة» .

أرأيت أيها القارىء الكريم ؟ هذه ثلاثون عاماً تصرمت من الزمان ، والقضية فى بال الرجل كأنها هم الليل والنهار ، قضية حية فى عقله ، جارية فى دمه ، لم تسقط بالتقادم ، ولم تنسحب عليها ذيول النسيان ! ومثل هذه القضية كثير في كل ما كتب أبو فهر فى اللغة والشعر ، وسائر علوم الأمة ، ولا نفيض فى هذا لأن القصد الآن الكشف عن منهج الشيخ فى تحقيق التراث ، وهو منهج صعب شاق ، لأنه مباين لكل ما ألفه الناس الذين اشتغلوا بنشر الكتب من عرب وعجم ، إذ

كان قائما على الجد والصرامة والاتقان ، مستنداً إلى قراءة واسعة محيطة ، مع الذكاء الشديد اللمح ، والحفظ الجامع الذى لا يتفلت ولا يخون .

الشيخ شاكر واللغة

وأول ما يلقانا من منهج أبى فهر : اللغة ، حروفا وأبنية وتراكيب ، فقد استولى من ذلك كله على الأمد ، واللغة هى الباب الأول فى ثقافات الأمم ، وإهمالها أو التفريط فيها ، أو السخرية منها ، هدم لتاريخ الأمم، ومحو لها من الوجود . وعناية أبى فهر باللغة قديمة ، ومن أقدم ما كتب فيها ما نشره بالمقتطف عام ١٩٤٠ ، بعنوان (علم معانى أسرار الحروف – سر من أسرار العربية) ، وفى الفترة القليلة التى شارك فيها فى إخراج مجلة «المختار» استطاع أن يقدم مستوى عاليا للترجمة الصحفية لم يعرف من قبل ، وأدخل جملة من المصطلحات الجديدة فى اللغة للتعبير عن وسائل واختراعات حديثة من نوع «الطائرات النفاثة» ، ومازال الجيل الذى عاصر «المختار» من الصحفيين المعاصرين يعتبرون عناوين «المختار» التى كان يصوغها نموذجاً يحتذى. وطالما ذكر صديق عمره يحيى حقى ، رحمه الله ، فضله عليه فى التنبه لأسرار اللغة وفنية استخدامها والتعامل معها .

وإجلال أبى فهر للغة والحذر فى استعمالها واضح لائح فى كل ما كتب وفى كل ما حقق ، يقول تعليقا على كلام لأبى جعفر الطبرى ، فى تفسير قوله تعالى «فأتوا حرثكم أنى شئتم» «حجة أبو جعفر فى هذا

الفصل ، من أحسن البيان عن معانى القرآن ، وعن معانى ألفاظه وحروفه ، وهى دليل على أن معرفة العربية وحذقها والتوغل فى شعرها وبيانها وأساليبها ، أصل من الأصول ، لا يحل لمن يتكلم فى القرآن أن يتكلم فيه حتى يحسنه ويحذقه» تفسير الطبرى ٤/٤١٦ .

ومعلوم أن من عدة المحقق معرفة غريب اللغة حتى يتمكن من تصحيح ما يصادفه من ذلك التصحيف والتحريف الذى منيت به بعض مخطوطاتنا ، نتيجة لجهل النساخ ، أو عوامل الزمن .، ولأبى فهر فى ذلك وقفات كثيرة وتصحيحات منها :

جاء فى تفسير الطبرى ٨/٥٢٨ ، من قول أبى جعفر الطبرى ، فى الآية ٦٥ من سورة النساء «وإذا قرىء كذلك فلا مرزئة على قارئه فى إعرابه» ويعلق أبو فهر «المرزئة - بفتح الميم وسكون الراء وكسر الزاى - مثل الرزء والرزيئة، وهو المصيبة والعناء والضرر والنقص .. وكان فى المطبوعة والمخطوطة «فلا مرد به على قارئه» وهو شىء لا يفهم ولا يقال..» .

وجاء فى طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ١٠٦ قول كعب بن زهير :

ألا أبلغا هذا المعرض آية

أيقظان قال القول إذ قال أو حلم

ويشير أبو فهر فى الحاشية إلى أن الرواية فى ديوان كعب ، والاستيعاب لابن عبد البر «أنه» مكان «آية» ثم يقول : وهى ضعيفة جدا ،

والصواب ما في مخطوطة ابن سلام ، وقد جاء أبو جعفر الطبرى بهذا البيت شاهدا على أن الآية : القصة ، وأن كعبا عنى بقوله «آية» رسالة منى وخبرا عنى . قال أبو فهر :

والآية بمعنى الرسالة لم تذكره كتب اللغة ، ولكن شواهده لا تعد كثرة ، ومن ذلك قول حجل بن نضلة :

أبلغ معاوية الممزق آية
عنى فلست كبعض ما يتقول

وقول أبى العيال الهذلى :

أبلغ معاوية بن صخر آية
يهوى إليك بها البريد الأعجل

وهذا تفسير واضح في الشعر ، وأوضح منه قول القائل :

أتتنى آية من أم عمرو
فكدت أغص بالماء القراح
فما أنسى رسالتها ولكن
ذليل من ينوء بلا جناح

لتصحيف ، يعد إضافة إلى مواد المعجم العربى .

ومن هذا الباب - باب التقاط اللغة من كتب العربية ، مما لم تقيده المعاجم المتداولة - ما جاء في تفسير الطبرى ٢٤٨/١٦ ، يقول أبو

جعفر «وقوله تعالى (يأت بصيرا) يقول : يعد بصيرا» ويعلق أبو فهر «هذا معنى يقيد فى معاجم اللغة ، فى باب «أتى» بمعنى «عاد» وهو معنى عزيز ، لم يشر إليه أحد من أصحاب المعاجم التى بين أيدينا» .

ومن تصحيحاته اللغوية العجيبة ما جاء فى تفسير الطبرى ١٨٢/٩ «فجاء اليهودى إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم يُهْنِف» ويعلق أبو فهر فيقول «فى المطبوعة والمخطوطة - من تفسير الطبرى - «يهتف» بالتاء ، كأنه أراد يصيح ويدعو رسول الله ويناشده ولكنى رجحت قراءتها بالنون ، من قولهم : أهنف الصبى إهنافاً : إذا تهيأ للبكاء وأجهش ، ويقال للرجال : أهنف الرجل : إذا بكى بكاء الأطفال من شدة التذلل . وهذا هو الموافق لسياق القصة فيما أرجح .

ومن ذلك أيضا ما علق به على قول ابن سلام فى الطبقات ص٥ «وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم» يقول أبو فهر «كتب فى المخطوطة «صناعة» بكسر الصاد ، ثم ضرب على الكسرة (أى شطب) ووضع على الصاد فتحة ، وكذلك فعل بعد فى لفظ «الصناعات» وقد خلت كتب اللغة من النص على «صناعة» بفتح الصاد ، إلا أنى وجدت فى كتاب «الكليات» لأبى البقاء ما نصه : «والصناعة بالفتح تستعمل فى المحسوسات ، وبالكسر فى المعانى» ولكن إجماع كتب اللغة على ذكر «الصناعة» بالكسر ، وأنها حرفة الصانع وعمله بيديه ، دال على أن «الصناعة» بالفتح فى المعانى دون المحسوسات ، وأنها الحذق والدربة على الشىء» .

وتأمل صنيع أبى فهر ، لقد أفاد من صاحب «الكليات» ضبط «الصناعة» بفتح الصاد ، لكنه خالفه فى توجيه معناه !.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكن الله الفردوس
www.moswarat.com

تصحيح الكلام

على أن من أعجب ما ألقاه الله على قلب هذا الرجل ، من تصحيح الكلام الذى شاع خطأه فى الكتب ، ولم ينتبه له أحد ، ما جاء فى قصيدة عبد الله بن الزبعرى يوم أحد يرثى قتل المشركين (طبقات فحول الشعراء ص ٢٣٨) :

حين ألقت بقناة بركها

واستحر القتل فى عبد الأشل

يقول أبو فهر : «فى جميع ما وقع فى يدى من الكتب «بقباء» - يعنى مكان «بقناة» - وقباء قرية على ميلين أو ثلاثة من المدينة على يسار القاصد إلى مكة ، فهى إلى جنوب المدينة ، وهذا أمر مشكل كل الإشكال ، فلم أر أحدا ذكر أن القتال يوم أحد نشب فى قباء ، وجبل أحد فى شمال المدينة بينها وبينه ميل أو نحوه ، ويقول البكرى فى معجم ما استعجم ك١١٧ «أحد : جبل تلقاء المدينة دون قناة إليها» وقناة هذه التى ذكرها البكرى أحد أودية المدينة ، واد يأتى من الطائف حتى يمر فى أصل قبور الشهداء بأحد . فأكاد أرجح أن فى رواية هذا الشعر خطأ قديما جدا ، وأن صواب الرواية ما أثبته فى الشعر» .. وأنظر بقية كلامه فإنه نفيس جدا .

وبعد ذلك البيت يقول ابن الزبعرى :

فقبلنا النصف من سادتهم

وعدلنا ميل بدر فاعتدل

ويقول أبو فهر : وهذا أيضا بيت تكثر روايته فى سائر الكتب «فقتلنا النصف» أو «فقتلنا الضعف» وهو خطأ كله ! فإن المشركين لم يقتلوا يوم أحد نصف المقاتلة ، فإن من شهد القتال من المسلمين فى يوم أحد سبعمائة ، قتل منهم أربعة وسبعون من الشهداء ، ولا قتلوا ضعف ما قتل المسلمون يوم بدر من المشركين ، فإن عدة قتلى بدر من المشركين سبعون أو أربعة وسبعون . وإنما أراد ابن الزبعرى أنهم قتلوا من المؤمنين فى أحد مثل الذى قتله المسلمون منهم يوم بدر ، فانتصفوا منهم ، أى أخذوا حقهم كاملا حتى صاروا على النصف سواء .. يقول : قبلنا يومئذ العد واكتفينا به ، فقتلنا من سادتهم فى أحد مثل عدة من قتلوا من سادتنا فى بدر .

ويدل على ذلك قوله «فعدلنا ميل بدر فاعتدل» أى صار سواء لم ترجح كفة على كفة» .

ويتصل باللغة النحو ، ولأبى فهر فيه وقفات جياد ، تدل على حسن نظر وتمام فقه ، ويلقاك هذا فى كثير من تعليقاته وحواشيه ، وحسبك أن تقرأ فى مقدمة كتابه «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» شرحه لعبارة سيبويه التى جاءت فى أول كتابه «وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء ، وبنيت لما مضى ، ولما يكون ولم يقع ، وما هو كائن لم ينقطع» فقد أدار على هذه العبارة كلاما عاليا لم يذكره أحد من شراح سيبويه ، ولا من غيرهم من النحاة .

ويرى النحاة أن جذيمة الأبرش الشاعر الجاهلى القديم قد ارتكب ضرورة نحوية فى قوله :

ربمـــا أوفـــيـــت فـــى عـــلـــم

تـــرفـــعـــن ثـــوبـــى شـــمـــالات

حيث أكد الفعل «ترفع» بالنون الخفيفة ، وليس هذا من مواضع التوكيد ، لأن الكلام موجب ، فأنت لا تقول : «أنا أقومن إليك» ويعلق أبو فهر : «ويقول النحاة : زاد النون فى «ترفعن» ضرورة ، وأقول إنها لغة قديمة لم يجلبها اضطرار» طبقات فحول الشعراء ص ٣٨ ، وزاد ذلك بيانا فى كتابه الفذ : أباطيل وأسمار ، فقال فى ص ٣٨٧ «وقال «ترفعن ثوبى» ولم يقل «ترفع أثوابى» وارتكب تأكيد الفعل بالنون فى غير موضع تأكيده ، لأنه جعله فى حيز كلام مؤكد حذفه ، ليدل على معنى ما حذف، كأنه قال : «ترفع ثوبى شمالات ، ولترفعنه هذه الرياح الهوج ، مهما جهدت أضم على ثوبى وأجمعه .، فلما حذف «ولترفعنه» ارتكب تأكيد الفعل الأول فى غير موضع تأكيد» .

قلت : وقد دلنا شيخنا أبو فهر مشافهة – على موضع أخر لهذه الظاهرة النحوية ، فى شعر لحسان السعدى ، وهو من أقدم ما قيل فى الجاهلية ، وهو قوله :

أرى المـوت ممـن شـارك المـاء غـايـة

لـه أثـر يـجـرى إلـيـه ومـنـتـهـى

فـلا ذا نـعـيـم يـتـركـن لـنـعـيـمـه

وان قـال فـرطـنـى وخـذ رشـوة أبـى

ولا ذا بــؤوس يــتــركــن لــبــؤوســه

فـتـنـفـعـه الـشـكوى إذا مـا هـو اشـتـكـى

النوادر في اللغة لأبى زيد الأنصارى ص ٣٥٨

أما البصر بمعانى الشعر ، والوقوف عند وقائعه ، وترجيح رواياته ، فقد أوفى فيه أبو فهر على الغاية ، والشعر كان ولا يزال هو مدخله إلى ثقافة هذه الأمة وحضارتها ، وكانت قضية انتحاله والشك فيه هى المفجر الأول لطاقاته وإبداعه ، ثم كانت هى الدافع له إلي أن يظهر على فروع الثقافة العربية كلها ، ولا سبيل إلى ذكر كل تجليات أبى فهر فى فهم الشعر وتذوقه ، وتخطئة الأقدمين والمحدثين فى فهمه ، فذلك مما يحتاج إلى سفر خاص ، ولنكتف بذكر مثال واحد :

أنشد أبو جعفر الطبرى فى تفسيره ٤٧٣/٩ هذا الرجز المشهور لرشيد بن رميض العنزى – وهو الذى أنشده الحجاج بن يوسف الثقفى فيما بعد :

قــد لـفـهـا الـلـيـل بـسـوّاق حُطـم

لــيــس بــراعــى إبــل ولا غــنــم

بــات يــقــاســيــهــا غــلام كــالـزُّلـم

خـدلَّج كـالـسـاقـين ممـسـوح الـقـدم

ورواية الشطر الأخير مما استفاضت به كتب العربية ، لكن أبا فهر يقول :

«خدلج الساقين : ممتلىء الساقين ، وهذا غير حسن فى الرجال : وإنما صواب روايته ما رواه ابن الأعرابى «مهفهف الكشحين خفاق القدم» أى ضامر الخصر» .

تصحيح رواية الشعر

وتصحيح اللغة وتصحيح رواية الشعر مما يفيض ويتسع فى كتابات وتحقيقات أبى فهر كلها ، وهو موصول بما كتبه الأوائل فى ذلك ، مثل التنبيهات على أغاليط الرواة ، لعلى بن حمزة البصرى (٣٧٥ هـ) والتنبيه على حدوث التصحيف ، لحمزة بن الحسن الأصفهانى (٣٦٠ هـ) ، وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، لأبى أحمد العسكرى (٣٨٢ هـ) ، وتصحيح التصحيف وتحرير التحريف ، لصلاح الدين الصفدى (٧٦٤ هـ) ألم أقل لك إن الرجل ماض فى طريق الأوائل ؟

والذين لا يقرءون محمود محمد شاكر قراءة جيدة ، ولا يفهمون فكره حق الفهم ، يقولون : إنه غارق فى التراث إلى أذنيه لا يكاد يدير وجهه عنه ، وأنه شديد العصبية لآثاره ولرجاله ، لا يقبل فيه ولا فيهم نقدا أو معابة ، وهذا صحيح من وجه ، لكنه باطل من وجه ، فوجه صحته أنه شديد التمسك بذلك الإرث العظيم ، لأنه قرأه وعرف مواضع العزة فيه ، ثم إنه رأى الذين يعيبونه وينتقصونه لا يصدرون عن علم ولا هدى ، وإنما هو الهوى الجامح والمتابعة العمياء ، والنظر لثقافات الأمم الأخرى بعين الذليل .

ووجه بطلانه أنه لا يسلم بالتراث كله ، ولا يذعن لرجاله كلهم ، فهو يعرف وينكر ، وينفى ويثبت ، وآية ذلك ما تراه من نقده لبعض كتب

الأوائل ، ثم من نقده لبعض رجال ذلك التراث على جلالة قدرهم وعظم شأنهم ، وهذه بعض أمثلة :

١ - وازن أبو فهر بين شرحين لأبى جعفر الطبرى والجاحظ ، لبيت من شعر الكميت ، ولم يرض تفسير الجاحظ له ، وقدم عليه تفسير الطبرى ، ثم نقد الجاحظ نقدا مرا ، فقال : «من شاء أن يعرف فضل ما بين عقلين من عقول أهل الذكاء والفطنة ، فلينظر إلي ما بين قول أبى جعفر فى حسن تأتيه ، وبين قول الجاحظ فى استطالته بذكائه .. والجاحظ تأخذ قلمه أحيانا مثل الحكة ، لا تهدأ من ثورانها عليه حتى يشتفى منها ببعض القول ، وببعض الاستطالة وبفرط العقل ، ومع ذلك فإن النقاد يتبعون الجاحظ ، ثقة بفضله وعقله ، فربما هجروا من القول ما هو أولى ، فتنة بما يقول» تفسير الطبرى ٢/٤٨٦ ، ٤٨٧ .

٢ - أبو الحسن المرزوقي شيخ من شيوخ العربية ، وهو شارح حماسة أبى تمام ، وصاحب كتاب الأزمنة والأمكنة ، وصاحب الأمالى، وقد خطّأه أبو فهر فى مواضع من شرحه لأبيات قصيدة تأبط شرا «إن بالشعب الذى دون سلع» ، ومن تلك المواضع قول أبى فهر «وأما ثانى اللفظين الطليقين ، وهو «مُدِلّ» فقد أساء الناس فهمه ، وتبعوا فى ذلك المرزوقى ، حين فسره بأنه «هو الواثق بنفسه وآلاته وعدته وسلاحه» فهذا تفسير يذبح الشعر بغير سكين» ، وقوله : «وأما «يجدى» فقد ذهب المرزوقى وسائر الشراح إلى أنه من «الجدوى» وهى العطية . وهذا لغو وفساد» وقوله : «وهذا فساد كبير فى تناول معانى الشعر ، ولا يعد بيانا

عنه ، بل هو طرح غشاوة صفيقة من «الإبهام» ينبغى أن تزال ، وإلا فقد الشعر بهاءه بانتقاص دلالات ألفاظه وإهمالها» . ويصف بعض شروح المرزوقى بأنه كلام لا تحقيق له «وإنما هو كذب محض ، وبذلك أباد المرزوقى معنى القصيدة إبادة من لا يرحم» .

ويقول : «والمرزوقى إمام جليل من العلماء بالعربية ، ولكنه ليس من العلماء بالشعر فى شىء ، وقد جزر البيت جزرا بسكين علم اللغة ، واستصفى دمه بتفسيره الذى أساء فيه من جهتين» ، ويصف بعض كلام المرزوقى ، فيقول : «وهذا كلام بارد غث سقيم ، فاختلسه التبريزى فى شرحه ، فلم يحس بشىء من برده ، لأنه نشأ بتبريز من إقليم أذربيجان ؛ وهو إقليم بارد جدا» وراجع لهذا النصوص فى كتاب أبى فهر «نمط صعب ونمط مخيف» صفحات ١٨٢ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢٣٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، وهذا الكتاب من أوثق الدلائل على بصر أبى فهر بالشعر واللغة والنحو .

٣ – ابن فارس من أئمة العربية ، وله فى التأليف المعجمى كتابان جليلا القدر : المقاييس والمجمل ، وقد نقل أبو فهر بعض شروحه اللغوية التى لم يطمئن إليها ، فقال : «ولا أدرى هل يصح نقل ابن فارس أو لا يصح .. وأنا لا أطمئن إلى أقوال ابن فارس إلا بحجة مؤيدة» طبقات فحول الشعراء ص ٢٣٨ .

٤ – مما نشره أبو فهر قديما جزء من كتاب «إمتاع الأسماع» للمقريزى ، نشره عام ١٩٤٠ م ، يقول المقريزى فى مقدمة كتابه «والله

أسأل التوفيق لديمة العمل بالسنة» ويعلق أبو فهر فيقول : «يريد لدوام العمل ، فأخطأ ، وشبه عليه حديث عائشة وذكرت عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : «كان عمله ديمة» شبهته بالديمة من المطر فى الدوام والاقتصاد» .

★★★

وبعد : فهذا منهج محمود محمد شاكر ، في نشر التراث ، سقته على سبيل الوجازة والاختصار ، وقد أدرته على علمه باللغة والنحو والشعر ، وبقى بابان من أبواب العلم ، ظهر عليهما أبو فهر ظهورا بينا ، وامتلك أسباب القول فيهما والحكم عليهما امتلاكا واضحا : أعنى علم التاريخ ، وعلم الجرح والتعديل (قبول روايات الحديث النبوى وردها) ، ولكن المقام لا يتسع الآن للإفاضة فى الكلام على معرفته بهذين العلمين الكبيرين ، هذا الرجل الذى يعد رمزا ضخما من رموز حضارتنا العربية ، ولكن أسبابا كثيرة حجزته عن الناس ، وحجزت الناس عنه ، وكان هو نفسه أحد الأسباب المعينة على ذلك ، بهذه العزلة التى ضربها على نفسه ، ثم بتلك الصرامة التى يعامل بها الأشياء والناس ، والبشر منذ أن برأهم خالقهم يحبون الملاينة والملاطفة ، ثم المصانعة التى أشار إليها زهير بن أبى سلمى فى معلقته الشريفة ، ولكن أبا فهر اختار الطريق الأعظم ، وترك الطرق التى تتشعب منه ، وهي التى تسمى «بنيات الطريق» فكاشف وصارح فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين الناس ، ومنذ أن ظهرت أمامه غواشي الفتن التى أحدقت بأمته العربية، فتح عينيه ، وأرهف سمعه ، ثم شد مئزره وأيقظ حواسه كلها ، يرصد

ويحلل ويستنتج ، ثم قال : «فصار حقا عليّ واجبا ألا أتلجلج ، أو أحجم، أو أجمجم ، أو أدارى» أباطيل وأسمار ص ١٠ .

وكان أن دخل بيته بعد أن أستتب الأمر له : علما وفكرا ، مئات من طوائف الناس ، من شرق وغرب جالسوه واستمعوا له ، فمنهم من آمن بمنهجه ، ومنهم من صد عنه . وكان على الذين آمنوا بمنهجه أن يصبروا على لأواء الطريق ، ويحتملوا أعباء المتابعة ، على ما قال على ابن أبي طالب رضي الله عنه «من أحبنا أهل البيت فَلْيُعِدِ للفقر جلبابا» ولكن لأنه منهج صعب مكلف ، وطريق عسر شائك ، فما أمن معه إلا قليل !

هذا ، وما أحب أن أختم كلمتى هذه قبل أن أؤكد ما بدأت به حديثى : أن أبا فهر إنما دخل ميدان تحقيق التراث خدمة وعونا على قضيته الكبرى : قضية تاريخ أمته العربية ، ثم إزالة الغبار الذى طمس معالمها ، وعلى هذا فلا ينصفه من يذكره فى عداد المحققين والناشرين . إن تحقيق التراث بالنسبة له عمل هامشى ، ولذلك تراه يكتب على أغلفة كثير من تحقيقاته هذه العبارات : قرأه وشرحه أو قرأه وعلق عليه ، أو قرأه وخرّج أحاديثه .

سيدى أبا فهر : لئن عرف علمك العارفون ، وغفل عن ذكرك الغافلون :

فلقد عرفت وما عرفت حقيقة

ولقد جهلت وما جهلت خمولا

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشيخ الشعراوى واللغة

الشيخ محمد متولى الشعراوى ظاهرة غريبة عجيبة فى زماننا ، وإن كان له أشباه ونظائر فيما سلف لنا من أيام ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وقد عرف جمهور الناس هذا الشيخ الجليل فى أوائل السبعينات الميلادية ، وكان صاحب الفضل فى التعريف به وتقديمه للناس الأستاذ الفاضل النابه أحمد فراج ، وذلك من خلال برنامجه التليفزيونى المعروف يومئذ «نور على نور» وللتاريخ نقول : إن الذى قدم الشيخ الشعراوى للأستاذ أحمد فراج هم طائفة من أدباء السعودية ووجهائها، عرفوا للشيخ قدره وأنزلوه منزلا كريما أيام تدريسه بكلية الشريعة بمكة المكرمة، وللشيخ هناك أصداء عالية الرنين .

وقد بهر الشيخ الشعراوى آنذاك أسماع الناس وأبصارهم بثلاث حلقات تليفزيونية حول : الإسراء والمعراج ، والقضاء والقدر ، وحديث هند بن أبى هالة فى صفة خَلْق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويومها أدرك الناس ـ كل الناس ـ أنهم أمام صوت جديد يدعو الى الله على بصيرة ، بأسلوب مباين لكل ما ألفه الناس من أساليب الدعوة والتوجيه ، وأنماط الوعظ والإرشاد ، وإنما كان ذلك لأن الشيخ سلك فى وعظه ضربا غير مطروق وورد ماء مهجورا وانتجع كلأ غير مرعى .

تكررت لقاءات الشيخ بالناس فى البرنامج التليفزيونى المذكور ، على فترات متباعدة حول بعض القضايا التى يسأل عنها الشيخ فيجيب، الى أن استقر أمره على هذا اللقاء الأسبوعى «تفسير القرآن العظيم» .

وفى هذا اللقاء ، ويوما إثر يوم اتضح منهج الشيخ ، وتحددت ملامحه ، ويهمنى فى هذا المقام الكشف عن هذا المنهج ، وإقامة حدوده ومعالمه ، وتلمس أسبابه وبواعثه ، فإن الشيخ يمثل عندى أنموذجا ينبغى أن نجلوه للناس ، بعد أن ندل على جذوره وأصوله ، وإن فى ذلك كله بعثا لتاريخ عزيز غاب عنا ، أو أريد له أن يغيب .

وإذا كان لكل عالم أو مفكر مفتاح ، فإن مفتاح شخصية هذا الشيخ هو «اللغة» واللغة هى الباب الأول فى ثقافات الأمم ، وإهمالها، أو التفريط فيها أو السخرية منها هدم لتاريخ الأمم ، ومحو لها من الوجود.

العناية باللغة

وعناية الشيخ باللغة تتجلى فى مستوياتها الأربعة : أصواتا وصرفا ونحوا ودلالة ، وفى طريق هذه المستويات الأربعة صال الشيخ وجال ، ومما يحسب فى موازينه ، ويسجل له : هذه الجسارة والجرأة فى معالجة تلك القضايا وجمهوره الأعظم من عامة الناس ، ولكن الشيخ يرى أن هذا ضرورى لتفسير كلام الله ،والكشف عن مراده وقد استطاع الشيخ على هذا المدى الطويل أن يأخذ العامة وأوساط الناس الى قضايا التذوق والبلاغة واللغة والأدب ، وخاض بهم لجج هذه العلوم،

واستكثر من شواهد الشعر والأمثال وكلام الفصحاء ، وأحب أن أسجل هاهنا أن عوام الناس يستجيبون لذلك ويستمتعون به وإن كانوا لا يستطيعون التعبير عنه ، فيجب أن نحسن الظن بهم ، فإن لبعضهم نوقا قد يجفو عنه بعض الخاصة ، ومن غريب ما كنت ألاحظ فى أحيائنا الشعبية أن خطيب الجمعة كان إذا اندفع فى الكلام الخفيف العامى علي المنبر ضاق به الناس وخرجوا ساخطين يقولون : «إيه الهيافة دى ؟ ياعم سيبك منه دا بيتلكم زينا» .

إن الشيخ الشعراوى قد نجح فيما عجز عنه غيره ، فإننا على كثرة ما كتبنا عن الإعجاز القرآنى وعبقرية اللغة العربية لم نستطع أن ننزل بهذه القضايا الى عامة الناس ، وظلت هذه القضايا دائرة بيننا ، يدخل اللاحق علي السابق ، وكأننا نحدث بعضنا بعضا .

وبدءة ذى بدء فإن الشيخ يصرح بضرورة استقبال القرآن بملكة اللغة ، ليخرج المستشرقين وأمثالهم من أعاجم العرب الذين كتبوا فى الدراسات القرآنية وهم بمعزل عن فقه اللغة ، ثم يقول : إن هؤلاء أخذوا اللغة صناعة ، ولم يأخذوها ملكة .

وما من آية من كلام ربنا عز وجل يعرض لها الشيخ بتفسير وبيان إلا وأفاض فى قضايا اللغة ، بادئا بتأصيل الكلمة صرفا واشتقاقا ، على المنهج الذى أصله ابن فارس فى «مقاييس اللغة» وابن جنى فى «الخصائص» بالقدر الذى تطيقه العامة وتدركه الخاصة ، وقد نجح فى ذلك نجاحا ظاهرا ، وعلى سبيل المثال فحين عرض لتفسير قول الله تعالى : «ولا تقف ماليس لك به علم»

ذكر أن القفوا اتباع شيء لشيء وقال :

إن من ذلك «القفا» هذا المعروف ، لأنه يقفو الوجه ، أى يتبعه ، وقافية البيت فى الشعر ، لأنها تقفو سائر الكلام أى تتبعه .

ويقف الشيخ كثيرا عند معانى الحروف وأثرها فى الدلالة ، ووضع بعضها مكان بعض ، كقوله تعالى : «أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة» «التوبة ٣٨» فان معنى «من» ها هنا معنى «بدل» وقوله تعالى : «بأن ربك أوحى لها» «الزلزلة ٥» فتعدى الفعل هنا باللام ، مع أنه جاء معدى بإلى فى آيات كثيرة كقوله تعالى : «وأوحى ربك الى النحل» «سورة النحل ٦٨» وقوله: «وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه» «القصص ٧» وقوله تعالى : «وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم» «سورة الرعد ٦» ولم يقل «مع ظلمهم» . و«علم معانى الحروف» علم ضخم من علوم اللغة، والمؤلفات فيه كثيرة ، والعناية به واجبة ، والشيخ دائم الحديث فيه.

وللشيخ احتفال زائد بالفروق اللغوية ، فى الأبنية كعالم وعليم ، وشاكر وشكور ، وهو الفرق بين اسم الفاعل وأمثلة المبالغة المأخوذة منه، وكعدل وعادل وهدى وهاد ، وهو الفرق بين الوصف بالمصدر والوصف باسم الفاعل ، ثم الفروق فيما يبدو مترادفا من اللغة ، كالفرق بين الشك والريب والحزن والبث ، والرجاء والتمنى ، والحسد والغبطة ، وهو باب معروف من أبواب اللغة ، وممن ألف فيه أبو هلال العسكرى ، ويفرق الشيخ كذلك فى جموع التكسير بين العباد والعبيد .

وإذا كنت لا أستطيع أن ألم هاهنا بكل ما قيدته من قضايا اللغة التى يعنى بها الشيخ ويدير الكلام حولها فإنى لا أستطيع أن أغفل جانبا مهما جدا من جوانب اللغة ، يتعهده الشيخ دائما ويحرص عليه ، وهو «غريب اللغة» وهو مصطلح يراد به الكلمات الغامضة القليلة الاستهلاك فى كلام الناس ، وتأتى غالبا فى الكلام العالى الفصيح وليست الغرابة فى اللغة كالغرابة فى البلاغة ، لأن هذه يراد بها الكلام الحوشى المستكره ، أصواتا ودلالة ، أما الغرابة فى اللغة فتقال فى مقابل الوضوح ، وشاهد هذا ما ذكره الخليل بن أحمد فى مقدمة كتابه العين قال : «بدأنا فى مؤلفنا هذا بالعين ، وهو أقصى الحروف ، ونضم اليه ما بعده حتى نستوعب كلام العرب الواضح والغريب» كتاب العين ١/٦٠ «طبعة العراق» .

وقد دارت على هذا العلم مؤلفات كثيرة ، وبخاصة . ما يسمى غريب القرآن وغريب الحديث ، وهذا العلم ـ علم الغريب ـ مما أهمله الناس فى زماننا هذا إهمالا يوشك أن يكون تاما ، فقد هجره الناس هجرا طويلا ، بل إن بعضهم اذا صادف شيئا منه فى نص قديم ، غيره الى مرادف له مما يسهل علي الناس ، كالذى رأيته يوما عند أحدهم من تغيير «وكان عمر بن الخطاب رجلا طوالا» «بضم الطاء» أي بالغ الطول، غيّره الى «رجلا طويلا جدا» وأشد من هذا أن بعضهم أنكر استعمال كلمة «لُغُوب» لعدم جريانها على ألسنة الناس هذه الأيام ، مع مجيئها فى القرآن العزيز .

قال تعالى : «وما مسنا من لُغُوب» «سورة ق ٣٨» .

وهكذا ينكر كثير من الكتاب الآن ألفاظا وتراكيب كثيرة ضاربة فى الفصاحة بعروقها ، ولست تجد هذه الألفاظ والتراكيب في النصوص الأدبية فقط ، من شعر ونثر ، بل إنك واجدها فى علم الأنساب والتاريخ والجغرافيا ، وكتب الفلك والطب والفلاحة والزراعة ، وسائر ما كتب الأوائل .

وينادى بعضهم الآن بهجر هذه اللغة القديمة وتبنى لغة واقعية كالتى تقرأ فى الصحافة ووسائل الإعلام ، حتي لا يشعر التلميذ بفجوة بين الذى يقرأه فى النصوص القديمة، وبين ما يسمعه فى واقع الحياة من تلك اللغة التي تلبى احتياجاته وحجة هؤلاء أن لكل عصر لغته وأعرافه ، وهى حجة داحضة (تنبيه : حجة داحضة هذه من التعبيرات القرآنية ، فلا بأس علىّ فى استعمالها إن شاء الله) ومردود عليها من أكثر من وجه ، لكنى أسأل : إذا نحن ربينا أبناءنا على هذا المنهج المقترح ، وسلخ التلميذ من عمره ما سلخ فى المراحل : الابتدائية والإعدادية والثانوية ، ثم دخل كلية جامعية تعنى باللغة والأدب . مثل دار العلوم أو الآداب . فماذا هو صانع مع مناهج هذه الكليات التى تدور حول قضايا اللغة قديما وحديثا ؟ نعم ماذا يصنع ذلك التلميذ مع مناهج هذه الكليات ، وقد دخلها مفرغا خالى الوفاض ؟ إلا إذا غيرنا مناهج اللغة أيضا فى هذه الكليات حتى نضيق الثغرة بين اللغة العربية كما تقدمها

النصوص وبين اللغة العربية فى واقع الحياة - كما جاء فى أخبار الأدب - العدد التاسع ١٢ سبتمبر ١٩٩٣ م ص ٢٦.

إن للغة جانبا تاريخيا يجب الحرص عليه ومعرفته، ثم إن اللغة ممتدة مع أصحابها لا تموت ولا تفنى ، وليست اللغة للتفاهم وقضاء المصالح فقط . وإلا لكان القدر اللازم لنا منها محدودا جدا ، ولكان الذى يعرف خمسمائة كلمة انجليزية تلبى احتياجاته في متاجر لندن وشوارعها عالما باللغة الانجليزية .

ولقد كان غريب اللغة الذى هو الفصيح الرفيع مألوفا للناس إلي عهد قريب ، في خطبة الجمعة ، وفى الكتاب المدرسى والكتاب الجامعى، ثم على ألسنة المحاضرين وأقلام الكاتبين، ثم هجره الناس هجرا غير جميل ثم جاء الشيخ الشعراوى فردنا إليه رداً جميلا . وكان أول عهد الناس معه حين عرض لحديث هند بن أبى هالة فى وصف خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى هذا الحديث غريب كثير كشفه الشيخ غاية الكشف ، وأبان عنه غاية الإبانة. ، وبعض ما يعرفه الشيخ من غريب الكلام مما يدق ويغمض على كثير من الناس ، بل أن بعض المثقفين يُصحِّفة لخفاء معناه عنده: سمعت الشيخ ذات يوم فى حلقة من الحلقات يوم الجمعة ينشد قول الشاعر الأموى عُروة بن أُذينة :

لقد علمت وما الإشراف من خلقي

أن الذى هو رزقى سوف يأتينى

أسـعـى لـه فـيـعـنـيـنـى تـطـلـبـه

ولـو قـعـدت أتـانـى لا يـعـنـيـنـى

هكذا أنشد الشيخ « وما الإشراف » بالشين المعجمة ، وهو صواب إنشاده ، ومعناه: إني لا أستشرف ولا أتطلع إلى ما فاتنى من أمور الدنيا ومكاسبها ولا تتبعها نفسى . وبعضهم لا يعرف هذا المعنى الغريب فينشده « وما الإسراف » بالسين المهملة مصحفا ومزالا عن جهته وكأن الذى زين له ذلك وجود الكلمة فى سياق الرزق.

وقد امتدت عناية الشيخ أيضا إلى النحو ، وهو علم التراكيب ، وشأنه خطير ، يقول أبو العباس ثعلب « لا يصح الشعر ولا الغريب إلا بالنحو ، النحو ميزان هذا كله» والشيخ لا يكاد يخلى حلقة من حلقاته من شيء من دقائق هذا العلم الجليل . ففى قوله تعالى : « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا» « سورة التوبة٤٠»

حيث جاءت « كلمة » الأولى بالنصب، و« كلمة» الثانية بالرفع ، يقول : لماذا لم تعطف الثانية على الأولي فتكون منصوبة مثلها ؟ ثم يجيب : لأن كلمة الله أصلا عالية ثبوتا ولزوما ، فهى لا تُجعل . وهكذا يربط الشيخ بين الإعراب والمعني فى هذه الآية الكريمة ، وفي غيرها من الآيات .

ومن وراء اللغة وقضاياها يتقدم الشيخ إلى الناس بثقافة العالم الأزهرى المتمكن من علوم العربية كلها ، لأن العربية عند أهل العلم كتاب واحد ، فيلم الشيخ كثيرا بقضايا البلاغة من معان وبيان وبديع ،

فحين فسر قوله تعالي : « ومكروا ومكر الله» « سورة آل عمران ٥٤ »، ذكر أن هذا من باب المشاكلة، واستشهد له بقوله عز وجل:

« وجزاء سيئة سيئة مثلها » « سورة الشورى ٤٠ » ، وبقول أبى الرقعمق:

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه

قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

ومن جرأة الشيخ ، بل قل : إنه من وفائه لعلومنا وتاريخنا ، وأيضا من بره بالعامة والارتقاء بأذواقهم وتوسيع مداركهم : ذكره لبعض مصطلحات العلوم الدقيقة ، كأصول الدين أو علم الكلام ، كالفرق بين صفات الذات وصفات الأفعال ، وصفات الربوبية وصفات الألوهية،وكأصول الفقه، من مثل قولهم : لمح الأصل - لا يعتد بالعارض - دلالة الاقتضاء واللزوم ...وهكذا كان حال علمائنا وواعظينا فى الأزمان ، كانوا يرون أن للعامة حقا ونصيبا مفروضاً فى هذه المعارف ، إن لم يكن من طريق العلم والإحاطة ، فمن باب الأنس بها والارتياح إليها ، وتذكر كتب التراجم والرجال أن حلقات الدرس والإملاء كانت تجمع أشتاتاً من الناس ، من العلماء وممن دونهم ، بل إن الاباء كان يحضرون أطفالهم مجالس الإملاء، ويثبتون أسماءهم في طبقات السماع ، بل كانت حلقات الدرس بالجامع الأزهر إلى عهد ليس ببعيد تجمع عوام الناس يجلسون إلي كبار العلماء ، كتفا إلى كتف مع طلبة العلم من أهل الاختصاص.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشيخ وعلوم القرآن

علوم القرآن : مصطلح يراد به الأبحاث المتعلقة بالكتاب العزيز ، من حيث معرفة أسباب النزول ، وعلم القراءات والرسم ، والمكى والمدنى، الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه ، والغريب والإعراب إلى غير ذلك . وهذه القضايا مبثوثة في كتب التفسير ، علي منازلها ، ومناسبتها فى سورالقرآن الكريم ، لكن العلماء أفردوها بتآليف خاصة ، من أشهرها البرهان فى علوم القرآن للزركشى ، والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ويطوف الشيخ كثيرا بهذه العلوم . أما أبرز علم من علوم القرآن يقف عنده الشيخ ويطيل الوقوف ، ولا يزال يعتاده يوماً بعد يوم فهو « علم الأشباه والنظائر » ، أو « علم الوجوه والنظائر» وهو علم يتناول دوران الكلمة أو التركيب فى القرآن على أوجه مختلفة ، من حيث اختلاف المعنى الدلالى للكلمة ، أو اختلاف التركيب بالتقديم والتأخير ، وقد أفرد هذا العلم بالتأليف كثير من العلماء ، منهم مقاتل بن سليمان ، والدامغانى ، وابن الجوزى ، ومن أمثلته ما يذكره الشيخ حول قوله تعالى «ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم» «سورة الأنعام ١٥١ » وقوله : «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم» «سورة الإسراء ٣١ » وقوله تعالى : «وما أهل به لغير الله» «سورة البقرة ١٧٢ » وقوله «وما أهل لغير الله به» «سورة المائدة ٣ ».

ومن القضايا القرآنية التى يحتشد لها الشيخ احتشادا : قضية دفع التعارض والتناقض بين آى الذكر الحكيم ، كقوله تعالى : «ولا تزر

وازرة وزر أخرى» «الأنعام ١٦٤» مع قوله «ليحملوا أوزارهم كاملة الي يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم» «سورة النحل ١٥» وكقوله تعالي : «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك» «سورة النساء ٧٩» بإزاء قوله «قل كل من عند الله» «سورة النساء ٧٨» .

أما أسرار النظم القرآنى وإيثار أسلوب على أسلوب ، فهو مما يفيض فيه الشيخ كثيرا ، وهو يرجع فيه الى محصول وافر ومحفوظ واسع من ثقافته الأزهرية الغنية ، لا الى ما يقوله بعض مستعمى الشيخ ومريديه من أنه يلهم به إلهاما ، ويحدث به تحديثا ، وكأنه غير مسبوق أو مشارك ، ونحن لا ننكر أن الله يفتح على بعض عباده فتحا ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، لكننا نقرر أن كثيرا مما يذكره الشيخ معروف ومذكور ومسطور فى الكتب ، وفضل الشيخ أنه يذكره إذ نسيه الناس ، ويرعاه إذ أهمله الناس ، فهو يحيى ما درس ، وينفخ فيما خمد .

ولعل القارىء الكريم يسمح لى بالتذكير بصورة مما سبق به علماؤنا مما يذكره الشيخ ، وذلك ما ذكره الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازي المتوفى سنة ٦٦٠ هـ ـ وهو صاحب مختار الصحاح ـ قال فى كتابه أنموذج جليل فى بيان أسئلة وأجوبة من غرائب آى التنزيل ، فى توجيه الآية ٣٢ من سورة الإسراء : «فإن قيل : كيف قال تعالى : «ولا تقربوا الزنا» ولم يقل «ولا تزنوا ؟ قلنا : لو قال : «ولا تزنوا ، كان

نهيا عن الزنا لا عن مقدماته ، كاللمس والمعانقة والقبلة ونحو ذلك ولما قال «ولا تقربوا» كان نهيا عنه وعن مقدماته : لأن فعل المقدمات قربان للزنا» .

الشيخ وإنشاد الشعر

الشيخ الشعراوى شاعر طويل النفس ، شجى النغم ، وإن كان هو لا يذكر هذا ، لكن زملاءه وعارفيه يذكرونه ، ويروون أنه أنشد قصيدة طويلة أمام الدكتور طه حسين رحمه الله يوم أن قدم الى جدة فى الخمسينات الميلادية فى اجتماع الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، ويذكرون أن الدكتور طه حسين طرب كثيرا لهذه القصيدة .

والشيخ كما هو معروف ـ متخرج فى كلية اللغة العربية من كليات الأزهر الشريف ، وكانت مناهج الدراسة فيها فى ذلك الزمان مما يغذى الملكات وينمى المواهب ، مع تلك الصفوة من العلماء المدرسين المشايخ ابراهيم حمروش ومحمد على النجار ومحمد الطنطاوى ومن اليهم .

والشعر يخف على لسان الشاعر اللغوى فيحفظه ويرويه . ومحفوظ الشيخ من الشعر عال وغزير جدا ، ويأتى فى مقدمة محفوظه ، ذلك الشعر المعروف بشعر الشواهد ، كشواهد اللغة والنحو والبلاغة ، والعروض ، وشعر الشواهد هذا ينثال على لسان الشيخ انثيالا ، فما ذكر معنى لغويا ، أو توجيها نحويا ، أو تفسيرا بلاغيا الا واستشهد له بالبيت والبيتين ، والى جانب شعر الشواهد هذا يتدفق الشيخ بعيون الشعر العربى من كل العصور ، من الجاهلى الى أحمد شوقى ومحمد

إقبال ، وله بشعر شوقى عناية خاصة ، وكأنه يستظهره استظهارا ، ولا يقف إنشاد الشيخ عند الشعراء المكثرين المشاهير فقط ، بل يشمل أيضا الشعراء المقلين المغمورين وقد سبق استشهاده بشعر عروة بن أذينة ، أما ذلك الشعر الذى يعرف بشعر المذاكرة والمجالسة ، وهو ما يتمثل به فى المواقف وأحوال الناس وتقلبات الزمان ، فعند الشيخ منه الكثير من مختلف العصور ، وأذكر أن الشيخ فى بعض دروسه ولقاءاته وقف عندما يلقاه الناس من العداوات وبغى بعضهم على بعض ، وعلى عادة الشيخ فى استخراج الحسن من السيىء ، واستنباط الخير من الشر ، قال : إن عداوة الناس قد تأتى بالخير ، واندفع فى كلام طويل ، وهنا قفز الى ذهنى بيتان فى صميم ذلك الكلام لأبى حيان النحوى ، وإذا بالشيخ ينشدهما وذلك قول أبى حيان :

عداتى لهم فضل علىّ ومنة
فلا أذهب الرحمن عنى الأعاديا
هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها
وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا

فقلت : سبحان الله أى قراءة قرأ هذا الشيخ ؟.

وحفظ الشعر واستدعاؤه ضرورى فى تفسير كلام الله عز وجل يقول الإمام مجد الدين بن أبى الفرج الروذراورى المتوفى سنة ٦٦٧ هـ «ومن ظن أن القرآن يفهم كما ينبغى من غير تحقيق كلام العرب وتتبع أشعارهم وتدبرها كما يجب فهو مخطىء ، كان ابن عباس ـ رضى الله

عنه ـ حبر هذه الأمة ، ومفتيها ومفسر القرآن ، وقد قال تلميذه عكرمة : إنه كان اذا سئل عن مشكل فى القرآن يفسره ويستدل عليه ببيت من شعر العرب ، ثم يقول : «الشعر ديوان العرب» وأنظر العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ١/ ٣٠.

وبعد : فهذا شيخ جليل جاء علي حين فترة من العلماء الحفاظ الضابطين ، وهو يمثل صورة زاهية للعالم الأزهرى المؤسس على علوم العربية وقوانينها ، من حفظ المتون، وإتقان التعريفات و الصبر على المطولات ، والنظر فى الحواشى والتعليقات والتقريرات ، فإذا ثبت هذا – وهو ثابت إن شاء الله – فلم ينصف الشيخ من يقول عنه: إنه ملهم لا غير ، وإن ما يقوله إنما هو من باب العلم اللدنى ، فهذه « دروشة» فى تقييم الرجال والحكم عليهم ، وإنما الصواب أن يقال : إنه رجل مثقف مؤسس واسع الاطلاع ، غزير الرواية ، سريع اللمح ، ذكى اللسان .

كذلك لم ينصف الشيخ من يقول عنه:

إنه وهب حسن العرض ، والقدرة على توصيل المعلومات ، مع خفة ظل واضحة . فهذا من الدس الخفي ، فإذا كانت البضاعة مزجاة فماذا يجدي حسن عرضها ؟ كما قيل في أمثالنا العامية:

«إيش تعمل الماشطة فى الوش العكر؟» وللناس فى اصطناع وسائل الذم والتنقص دبيب وخداع ، وهو ما قاله سادتنا البلاغيون . تأكيد الذم بما يشبه المدح .

وإن تعجب فعجب أن بعض مثقفينا وأدبائنا يعرض عن الاستماع إلى الشيخ، لاجتماع العامة عليه، وانبهارهم به ، وهذا خلف من الرأى ،

وفساد فى الحكم ، فما ينبغى أن يكون إقبال العامة على الشيخ وإعجابهم به صارفا للخاصة عن الأخذ عنه والإفادة منه ، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنّى وجدها ، وقد كانت العامة تصرخ ويغشى عليها فى مجلس وعظ الإمام أبى الفرح بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ولم يصرف هذا الخاصة عن الإفادة منه والأخذ عنه ، بل إن كتبه وتصانيفه تعد من الأصول فى الفكر العربى الإسلامى مثل زاد المسير ، وتلقيح فهوم أهل الأثر ، وتلبيس ابليس ، والمنتظم وغيرها .

يقول الرحالة ابن جبير ، واصفا مجلسا من مجالس ابن الجوزى ، وقد حضره : «ثم إنه بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ ، وآيات بينات من الذكر ، طارت لها القلوب اشتياقا ، وذابت بها الأنفس احتراقا ، الى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح كل يلقى ناصيته بيده فيجزها ، ويمسح على رأسه داعيا له ، ومنهم من يغشى عليه فيرفع فى الأذرع اليه ، فشاهدنا هولا يملأ النفوس انابة وندامة ، ويذكرها هول يوم القيامة ..» رحلة ابن جبير ص ١٩٧ ، ١٩٨ ، أرأيت أيها القارىء الكريم ؟ هذا شبيه ونظير للشيخ الشعراوى منذ ما يزيد على ثمانمائة عام ، فلا تعجبن اذا رأيت مستمعى الشيخ على شاشة التليفزيون وهم بين فاغر فمه دهشة ، وبين ماد بصره عجبا ، مخلوطا ذلك كله بصيحات التكبير والتهليل وما أكثر الاشباه والنظائر.

ولم يبق إلا أن أدعو للشيخ بطول العمر وتمام السلامة والعافية ، ثم أهمس فى أذنه - ولم يقدر لى أن أراه أو أجالسه - ببعض الملاحظات:

أولا : أرجو من الشيخ الجليل أن يترفق فى رد آراء العلماء السابقين حين يرى رأيا يخالف رأيهم ، ومن ذلك إنكاره عليهم أن فى القرآن حروفا زائدة ، مثل «ما» فى قوله تباركت اسماؤه «فبما رحمة من الله لنت لهم» «سورة آل عمران ١٥٩» فالزيادة هاهنا زيادة نحوية ، والحرف الزائد عند النحاة هو الذى يكون دخوله وخروجه سواء ، أو هو الذى لا يخل حذفه بالمعنى ، وقد جاء منه أمثلة من القرآن العزيز ، منها قوله تعالى : «فبما نقضهم ميثاقهم» «سورة النساء ١٥٥» وجاء كذلك فى كلام العرب ، ومنه قولهم : غضبت من غير ما جرم ، وقولهم : سمعت كلاما ما ، وجئت لأمر ما ، ومولانا الشيخ يعلم هذا جيدا ، فتسمية ذلك زيادة لا غبار عليه ، بل إن إمام المفسرين أبا جعفر الطبرى يسمى ذلك أحيانا «لغوا» فهل يعتقد مؤمن أن فى القرآن لغوا ، ولكنها الصناعة النحوية ، فيجب أن ينص الشيخ على أن هذا من اجتهاداته الخاصة ، حتى لايتجرأ الناس على أهل العلم .

ثانيا : نعترف أن للشيخ معرفة جيدة بالسيرة النبوية وأحوال الرجال وتراجمهم وضبط أسمائهم وكُناهم وألقابهم ، ولكنه يند عنه أحيانا أشياء لعدم المراجعة ، ومن ذلك أنه نطق مرة اسم «حبان بن العرفة» أحد المشركين الذين قاتلوا المسلمين فى غزواتهم ، نطقه «العرفة» بفتح الراء بعدها فاء ، والصواب «العرقة» بفتح العين وكسر الراء بعدها قاف .

وكذلك ذكر وصية بعضهم لابنه حين أراد الزواج «لا تتخذها حنانة ولا أنانة ولا منانة ولا عُشبة الدار ولا كيّة القفا» نطقها الشيخ «كُبة»

بضم الكاف بعدها باء موحدة ، والصواب : « كية» بفتح الكاف بعدها ياء منقوطة باثنتين من تحتها ، قال ابن سيدة : «وأما كية القفا فهى التى يأتى زوجها أو ابنها القوم ، فإذا ما انصرف من عندهم قال رجل من خبثاء القوم لأصحابه قد والله كان بينى وبين زوجة هذا المولى أو أمه أمر . فتلك كية القفا ، من أجل أنه يقال فى ظهر زوجها أو ابنها ، القبيح حين يولى » المخصص ٤/٢٢ ، ٢٤.

ثالثا : الشيخ حفظه الله مسموع متبوع ، فنرجوه أن يتحرى صفات الحروف ومخارجها وبخاصة الحروف الثلاثة : الثاء والذال والظاء فى القرآن الكريم .

وهذه الملاحظات وغيرها مما لايكاد يسلم منها بشر إنما هى فى حق الشيخ الجليل :

تعويذة من عين الكمال فإن الكمال لله وحده والمعصوم من عصمة الله .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

على الجارم لغويا نحويا

الشعر باب العربية ، والشعراء الكبار هم أقدر الناس على معرفة أسرار العربية ، والوقوف على دقائقها، ثم الحرص عليها والذود عنها ، وما كان ذلك إلا لأنهم قرأوا فأكثروا القراءة ، وحفظوا فجودوا الحفظ، ولن تجد شاعرا كبيرا إلا ووراءه رصيد ضخم من القراءة المحيطة الجامعة للغة فى مجالاتها المختلفة ، ويظهر هذا الرصيد فيما يسميه أهل زماننا «المعجم الشعرى» للشاعر : حروفا وأبنية وتراكيب ودلالة .

يقول ابن دحية فى ترجمة أبى بكر بن زهر الأندلسى «الحفيد» : «وكان شيخنا الوزير أبو بكر رحمه الله بمكان من اللغة مكين .. كان يحفظ شعر ذى الرمة، وهو ثلث لغة العرب(١) » ، وهذا أبو نواس شاعر العربية فى المائة الثانية ، لا يعرف كثير من الناس عنه الآن إلاّ هذا الجانب الهازل الماجن، ولايدرون أن وراء هذه الشاعرية الماجنة عالما كبيرا ، هو من معالم هذه الأمة ومن رموزها العظيمة ، ويأتيك فى ترجمته الموثقة أنه قرأ القرآن الكريم على يعقوب بن إسحاق الحضرمى،

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب ص ٢٠٦ ، ونفح الطيب ٢٤٧/٢ .

أحد القراء العشرة، ولما حذق القراءة عليه رمى إليه يعقوب بخاتمه ، وقال له : اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة ، وقد كتب أبو نواس الحديث عن أئمته ، وحفظ وحصّل كثيرا حتى روى عنه أنه قال : « ما ظنكم برجل لم يقل الشعر حتى روى دواوين ستين امرأة من العرب ، فما ظنكم بالرجال؟» وقال أيضا : «أحفظ سبعمائة أرجوزة ، وهى عزيزة فى أيدى الناس سوى المشهورة عندهم» . والجاحظ يصفه بالعالم الراوية (١) وحكى ابن المعتز قال : « كان أبو نواس عالما فقيها عارفا بالأحكام والفتيا، بصيرا بالاختلاف «أى اختلاف الفقهاء فى الأحكام» صاحب حفظ ونظر ، ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، وقد تأدب بالبصرة ، وهى يومئذ أكثر بلاد الله علما وفقها وأدبا ، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين ، وأوائل الاسلاميين والمحدثين (٢)» .

ويقول العالم العراقى المعاصر الشيخ بهجة الأثرى (٣) : «ولا ريب فى أن محصول أبى نواس من اللغة العربية هو عِدْل شاعريته وافتنانه فى مذاهب الشعر؛ جده وهزله» (٤) . وتذكرنا ثقافة أبى نواس هذه

---

(١) الحيوان ٢/٢٧ .
(٢) طبقات الشعراء ص ٢٠١ .
(٣) هو أحد المعمرين . يقال إنه بلغ المائة ، وقد توفى منذ نحو خمس سنوات .
(٤) مقدمة تحقيق تفسير أورجوزه أبى نواس ، لابن جنى ص ٥ .

بثقافة شاعر كبير آخر، هو أبو العلاء المعرّى، فشعره يحمل خلفية معرفية ضخمة فى لغة العرب وفى سائر فنونها ومعارفها، وإن ما خلَّفه من آثار نثرية ينطق بهذه الثقافة العميقة الواسعة، وحسبك بما تراه من لغة ونحو وتاريخ فى «رسالة الغفران» و «الصاهل والشاحج» بل إنه أفرد مصنفا خاصا خالصا لعلم الصرف، هو : رسالة الملائكة ، فضلا عن شعره الذى يحمل إشارات تنطق كذلك بهذه الثقافة العريضة .

والشعراء الكبار أيضا من أكثر الناس حرصا على قوانين العربية والإذعان لها ؛ رضا وبشاشة ، لا اكراها ولا غلبة ، ودعك مما يقال عن «سلطان النحاة على الشعراء» وتقييدهم للإبداع الشعرى ، فهذا كلام العجزة الخاملين ، وهم لا يفتأون يستشهدون على ذلك بتلك النماذج القليلة جدا من خروج الفرزدق على بعض قواعد النحو ، ويلوكون قوله لابن أبى اسحاق النحوى : «علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا» ، وقوله وقد سئل عن رفع ما لا يستحق : «علام رفعت ؟ فقال : على ما يسوؤك وينوؤك» . فالفرزدق شاعر فحل تياه ، وهذا الذى خرج به عن جادة النحو، لا يعد شيئا بجانب شعره الضخم الذى امتلأت به كتب النحو، شواهد على اللغة والنحو والصرف، وأنت لو أحصيت ما خرج به الشعراء جميعا عن النظام النحوى ، لوجدته قطرة من بحر شعرهم الجارى على سنن العرب وقوانين اللغويين والنحاة .

وهذه المدابرة بين النحاة والشعراء غير صحيحة ، فكثير من نحاة الصدر الأول لم يكونوا منظّرين من بُعد ، بل كانوا فى قلب الحركة

الشعرية وفى الصميم منها، فهذا أبو عمرو بن العلاء الإمام النحوى اللغوى وأحد القراء السبعة ، كان راوية لذى الرمة الذى قيل إن شعره يمثل ثلث لغة العرب، كما سبق القول . وكان يونس بن حبيب شيخ سيبويه شديد الاختصاص برؤبة بن العجاج ، وكان نِفطويه النحوى يحفظ نقائض جرير والفرزدق وشعر ذى الرمة . أما أبو العباس ثعلب ، وهو من رءوس المدرسة الكوفية فى النحو، فقد صنع وشرح دواوين الأعشى وزهير وابنه كعب رضى الله عنه ، وعروة بن حزام ، والنابغة الذبيانى، والجعدى رضى الله عنه ، والطرماح وطفيل الغنوى ، كما شرح لأمية العرب للشنفرى :

اقيموا بنى أمى صدور مطيكم   فإنى إلى قوم سواكم لأميل

وفى موروثنا الأدبى صلات حميمة بين النحاة والشعراء ، كالتى كانت بين المبرد والبحترى وابن الرومى، وابن خالويه وأبى فراس الحمدانى . ومن أشهر الصلات التى كانت بين نحوىٍّ وشاعر ، ما كان بين أبى الفتح بن جنى ، وأبى الطيب المتنبى ، فقد كانا يتبادلان الإعجاب ، ويتقارضان الثناء ، فكان المتنبى يقول عن ابن جنى : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس » (١) وكان إذا سئل عن شئ من دقائق النحو والتصريف فى شعره يقول : «سلوا صاحبنا أبا الفتح» أو يقول : « عليكم بالشيخ الأعور ابن جنى فسلوه ، فإنه يقول ما أردت وما لم أرد» (٢) . وكان ابن جنى يثنى على المتنبى ويستشهد بشعره ،

(١) مقدمة تحقيق الخصائص ص ٢١ .
(٢) المرجع السابق .

فتجاوز بذلك ما حدده متشددو النحاة من الوقوف بالاستشهاد عند نهاية القرن الثانى، ويقول عند الاستشهاد بشعر المتنبى : «ولا تستنكر ذكر هذا الرجل وإن كان مولدا ؛ فى أثناء ما نحن عليه من هذا الموضع وغموضه ولطف مُتَسَرَّبه؛ فإن المعانى يتناهبها المولدون كما يتناهبها المتقدمون » (١) ومن أقوال ابن جنى فيه أيضا : « وحدثنى المتنبى شاعرنا وما عرفته إلا صادقا » (٢) .

وفى نهضتنا الشعرية الحديثة التى حمل لواءها محمود سامى البارودى، ومن بعده أحمد شوقى ، تتجلى تلك الثقافة اللغوية الجامعة المحيطة ، وذلك المحفوظ الواسع الشامل الذى أتى على عصور الشعر العربى كله . وتأمل صنيع البارودى فى «مختاراته» التى جمعها من أشعار ثلاثين شاعرا ، وبلغت جملة أبياتها ٥٩٣ ، ٣٩ بيتا (٣) ألا يدل هذا الاختيار والجمع على قراءة محيطة جامعة ، وألا يكون لهذا الجمع والاختيار أثر فى شاعرية البارودى ، واستواء صنعة البيان عنده . ولا يخفى أن عمل البارودى هذا يذكرنا بصنيع الشعراء الكبار ، مثل أبى تمام ، في «حماسته» والبحترى كذلك فى حماسته» .

وأحمد شوقى هذا الشاعر الضخم، متنبّى العصر، كان واسع

---

(١) الخصائص ٢٤/١

(٢) الخصائص ٢٣٩/١

(٣) مقدمة مختارات البارودى للدكتور محمد مصطفى هدارة رحمه الله ص ٨ .

القراءة ، ومن أصحاب الحفظ والرواية ، وقد حدثنى شيخى محمود محمد شاكر برد الله مضجعه ورضى عنه أنه قرأ «لسان العرب» كله ، وهذا ما يفسّر لنا «معجم شوقى الشعرى» والنثرى أيضا فى «أسواق الذهب» هذا المعجم الذى يدهشنا بهذه الألفاظ والتراكيب الضاربة فى الفصاحة بعروقها .

فإذا جئنا إلى شعراء التجديد، كشعراء الديوان ، وشعراء أبولو، رأينا أيضا عند شعراء هاتين الجماعتين تلك الثقافة اللغوية الجامعة المحيطة ، وقد اسعدنى زمانى بالقرب من واحد من شعراء أبولو البارزين ، هو الشاعر حسن كامل الصيرفى (١).

---

(١) هذا رجل من فضلاء وظرفاء عصره ، وقد عبر دنياه كنسمة هادئة ، وقد عاش حياته كلها محبا ودودا بارا كريما ، لم يسع إلى جاه ، ولم يركض خلف شهرة ، ووقف هادئا يرقب الناس وهم يتواثبون ويقفزون ، مخلصا لفنه الشعرى ، باذلا أقصى جهده فى إخراج نصوص التراث الشعرى، ولهذا الرجل الكريم فضل علىّ سابغ ، فى بداياتى العلمية .

توفى فى شهر شعبان ١٤٠٤ هـ الموافق شهر يونية ١٩٨٤ م .

ومن أعماله العظيمة في مجال تحقيق النصوص : ديوان البحترى، وهو غاية فى الصبر على الجمع والتوثيق . وطيف الخيال ، للشريف المرتضى ، ولطائف المعارف ، للثعالبى ، ودواوين هؤلاء الشعراء الجاهليين : عمرو بن قميئة ، والمتلمس الضبعى، والمنقب العبدى ، وقد جرى فى إخراج هذه الدواوين على نهج معجب، فى التخريج والتحقيق . رحمه الله رحمة واسعة سابغة .

وقد جمع هذا الرجل مكتبة لغوية وأدبية ضخمة ، قل أن تجتمع عند شاعر ، وقد وظفها لما صبر نفسه عليه من تحقيق النصوص وإخراجها.

★★★

ونطوى الكلام طيا لنصل إلى شاعرنا المحتفى به على الجارم «رحمه الله» واحد من كبار الشعراء الحفظة العلماء الضابطين ، وكانت هذه سمة الجيل كله، شعراء وناثرين ، مع تفاوت يسير بينهم ، برزق الله المقسم على خلقه ، نعم كان هذا الجيل جيل الجد والتحصيل، جيل لم يرفع عينه عن القراءة ، ولم يشغله عنها حديث وثرثرة عن التجربة والإبداع والخلق والمعاناة، فإن من الملاحظ الآن أن الأدباء والشعراء يتكلمون أكثر مما يقرءون ، ويستمعون أكثر مما يتأملون ، وقد قال ابن قيم الجوزية :

«من لم تنفعه عينه لم تنفعه أذنه» .

وأنت إذا نظرت إلى ما كان بيد ذلك الجيل من الكتاب المطبوع ، وجدته شيئا نزرا قليلا ، ولكن هذا النزر القليل صنع رجالا ، وشاد ثقافة . واليوم كثرت المطبوعات ، وقلت القراءة .

وداعية أخرى إلى العجب : أن الكتاب المطبوع فى ذلك الزمان لم يكن معتنى به ، من حيث التحقيق والتوثيق وحسن الاخراج ، فلم تكن مناهج تحقيق النصوص قد استقرت ، ولم تكن وسائل الطباعة الحديثة قد عرفت ، ومع كل ذلك فقد أقام هذا الكتاب المطبوع المحدود ، الساذج فى إخراجه ، حضارة سامقة ، أضاءت ديار العرب والإسلام كلها، وما

أشبه أدباء ذلك الزمان إلا بتاجر صنع (١) بيده رأس مال محدود ، ولكنه استطاع بلباقته وحسن تأتيه أن يحرك هذا المال المحدود ، ويغدو به ويروح ، ليصنع منه ثروة ضخمة .

كان هذا هو طريق الجارم وأدباء زمانه ، اخلصوا أيامهم للقراءة والتحصيل ، ووعت ذاكرتهم هذه النغمات الجليلة التى حملها بديع الشعر وكريم النثر ، فى موروثنا الحافل . وحين تهيأت لهم أدوات القول والإبانة ، خالط الطارف التليد ، وذاب مال المورث الجامع فى مال الوارث الرشيد، أو كما قال صديقنا عبداللطيف عبدالحليم، عن شاعرنا الجارم «ويطل على هذا المحفوظ المذخور من عل ، فإذا بمحفوظه يتوارى ليبرز كلامه هو» (٢) .

وإذا كانت هذه الكلمة اليوم عن «على الجارم» اللغوى النحوى ؛ فإن ذلك يلتمس من جانبين : الجانب الأول : نشاطه التأليفى والبحثى ، من حيث هو معلم للغة العربية ، ثم كبير مفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف المصرية ؛ ثم من حيث هو عضو مؤسس من أعضاء مجمع اللغة العربية .

والجانب الثانى : إبداعه الشعرى، من حيث هو شاعر كبير ، فى شعراء عصره ، وشعراء ذلك الزمان كانوا – كما قلت – من اللغة والنحو بمكان مكين .

---

(١) يقال : رجل صنع ، بفتح الصاد والنون : أى حاذق رفيق ، والمرأة صناع .

(٢) كلمة ختام لديوان الجارم ص ٦٠٣ .

وقبل الحديث عن هذين الجانبين أود أن أشير إلى شئ من تلك المكانة اللغوية التى اقتعدها الجارم عند علماء عصره ، فهذا الشيخ أحمد محمد شاكر القاضى الشرعى، وهو محدث العصر، وواحد من مدرسة الأفذاذ فى تحقيق النصوص ونشرها يذكر أنه كان يلجأ إلى على بك الجارم، ويعرض عليه عمله فى تحقيق كتاب «الرسالة» للشافعى، وكان مما عرضه عليه كلمة «النذارة» وهى مضبوطة فى المخطوطة بكسر النون ، ولم يرد ذلك فى المعاجم المتداولة ، ولكن المخطوطة بقلم الربيع ابن سليمان تلميذ الشافعى ، وعليها خطه سنة (٢٦٥هـ) وهذا تاريخ مهم جدا فى علم المخطوطات ، يقول الشيخ أحمد شاكر : « ومن أقوى الأدلة على عنايته بالصحة والضبط ، أنه وضع كسرة تحت النون فى كلمة «النذارة» وهى كلمة نادرة ، لم أجدها فى المعاجم إلا فى القاموس، ونص على أنها عن الإمام الشافعى ، وهى تؤيد ما ذهبت إليه من الثقة بالنسخة، وتدل على أن الربيع كان يتحرى نطق الشافعى ويكتب عنه عن بينة ، ومن الطرائف المناسبة هنا أنى عرضت هذه الكلمة على أستاذنا الكبير العلامة أمير الشعراء على بك الجارم، فيما كنت أعرض عليه من عملى فى الكتاب ، فقال لى : كأنك بهذه الكلمة جئت بتوقيع الشافعى على النسخة . وقد صدق حفظه الله (١)» .

---

(١) مقدمة تحقيق الرسالة ص ٢٤ .

الجارم لغويا ونحويا

ثم نعود إلى هذين الجانبين اللذين يلتمس منهما عناية الجارم باللغة والنحو .

ففيما يتصل بالجانب الأول فقد كان لعلى الجارم أثر ظاهر فى تأليف الكتاب المدرسى ، الذى كان يقدم لطلبة المدارس، فى المرحلتين : الابتدائية والثانوية ، ومن خلاله يتعلمون النحو والبلاغة والأدب. فكانت هذه الكتب التى اشترك فى تأليفها مع نفر من كبار علماء عصره : المجمل فى الأدب العربى ، والمفصل فى الأدب العربى ، والبلاغة الواضحة ، ثم ذلك الكتاب الجهير الصوت ، الذائع الصيت «النحو الواضح» . ويقول النحوى الكبير الأستاذ إبراهيم مصطفى ، فى شأن سلسلة «النحو الواضح» : « وهى كتب بارعة فى الشرح والتوضيح ، وفى تقريب النحو وتيسيره ، وقد أراحت مئات من المعلمين، ويسرت على ألوف من المتعلمين، وازاحت عن هذا العلم سحبا من النفور والكراهية كانت تحيط به وتصد المتعلمين ، ثم شاعت فى البلاد العربية، وصارت كالمناهج لتعليم النحو، وأحدث أسلوبها فى الشرح والتأليف مدرسة ، أخذ المعلمون يتبعونها ويؤلفون على مثالها ، محاكين أو مقلدين » (١).

والكتاب المدرسى فى ذلك الزمان كان يقوم عليه كبار الأدباء والشعراء ، أمثال : حفنى بك ناصف ، والشيخ أحمد الاسكندرى،

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ٢٧/٨ .

والشيخ مصطفى طموم، وأحمد بك العوامرى ، فكان ذلك الكتاب مهابا جليل القدر، وكان ينظر إليه بتوقير شديد ، على غير ما نراه الآن من النظر إلى الكتاب المدرسى نظرة استخفاف وازدراء ، بل إن هذا الوصف «كتاب مدرسى» قد صار مجلبة للتنقص وطريقا إلى المعابة، وآية ذلك أنه لا يحسب فى موازين الأستاذ الجامعى، فلا يؤخذ فى ترقية، ولا يقدم إلى جائزة . ولا شك أن الذى كره إلى الناس ذلك «الكتاب المدرسى» أنه يتخذ الآن سبيلا للتربح وجمع المال .

وفى طريق الكتاب المدرسى قام الجارم بعمل جليل آخر، هو تقديم عيون التراث إلى النشئ الصغار من تلاميذ المدارس ، ومن ذلك تلك الطبعة من «البخلاء» للجاحظ ، التى أخرجها مشتركا مع أحمد العوامرى ، ثم كتاب «الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية» لابن الطقطقى ، مشتركا مع الجغرافى الكبير محمد عوض إبراهيم ، وكتاب «المكافأة وحسن العقبى» لأحمد بن يوسف الكاتب ، مشتركا مع أحمد أمين وكتاب «تهذيب الأخلاق» لمسكويه ، مشتركا مع نفر من كبار الأساتذة . فانظر ماذا كان يقدم لطلبة المدارس فى تلك الأيام؟ .

فهذا هو الشطر الأول من أثر على الجارم، فى التأليف اللغوى والنحوى ، سقته على سبيل الوجازة والاختصار .

أما الشطر الثانى منه فمجلاه نشاطه فى مجمع اللغة العربية ولجانه، وقد كان الجارم أحد الأعضاء المؤسسين للمجمع ، واشترك فى لجانه كلها ، فرسخ تقاليد مجمعية لازالت باقية إلى الآن ، وملأ اللجان

باقتراحاته ومناقشاته ، مما هو مذكور ومسطور فى مجلة المجمع ومحاضره ، ومن بحوثه واقتراحاته :

الترادف - طرق تكميل المواد اللغوية - المصادر التى لا أفعال لها - وضع قواعد جديدة يستعان بها فى اشتقاق الأفعال من الجامد - بحث فى فعيل بمعنى مفعول وبمعنى قابل للفعل - الجملة الفعلية أساس التعبير فى اللغة العربية - الوضع بطريق المجاز - مراتب وضع الألفاظ - مشروع تيسير الكتابة العربية - مصطلحات الشئون العامة (١) .

ومن مجموع هذه البحوث والمقترحات أحب أن أقف عند أمرين اثنين ، يظهر فيهما تضلع الجارم من اللغة ، وصبره على تحصيلها ، واحترامه لها :

الأمر الأول : ذلك البحث الذى وسمه «بالمصادر التى لا أفعال لها» وقد أقام الجارم هذا البحث على ما ذكره ابن سيده فى صفحة (٢٢٣) من الجزء الرابع عشر من المخصص (باب أسماء المصادر التى لا يشتق منها أفعال) وقد انتهى ابن سيده إلى أن هناك أربعة وخمسين مصدرا لا أفعال لها .

يقول الجارم : « وقد تناولت هذا البحث بإفاضة واستيعاب وتنقيب فى المعجمات ، فظهر أن لجميعها أفعالا ، عدا

---

(١) انظر هذه البحوث والمقترحات فى مجلة المجمع (الأعداد ١ - ٣ - ٤ - ٧) ومحاضر الجلسات للدورات (١-٢-٦-١٠-١٥-٢٩) .

سبعة منها » (١) ثم أخذ رحمه الله فى ذكر كلام ابن سيده ، ثم تعقبه بما فى المعاجم : الصحاح واللسان ، والقاموس ، والتاج ، والمصباح المنير .

والأمر الثانى : ما ذكره عن «غريب اللغة» قال : «وإذا كانت لدينا ذخيرة مغمورة فى اللغة فلم لا نستعملها ونحييها ، وننقلها من بداوتها إلى نور الحضارة ؟ والاستعمال كفيل بصقلها واستساغتها (٢) » .

ويعود مرة أخرى إلى «غريب اللغة» فيقول ، وهو يتحدث عن المعجم الكبير : «فإن هذا المعجم سيشتمل على كل شئ من حديث الكلام الصحيح وقديمه ، مشهوره وغريبه ، ذائعه ونادره (٣)» .

وقضية «غريب اللغة» من القضايا الشائكة العسرة فى زماننا هذا ، فكثير من الناس ينادون الآن بهجر الغريب من الكلام ، واستعمال السهل القريب ، وما أظنهم ينادون بذلك إلا لسببين : السبب الأول : عدم معرفتهم بكثير من هذا الكلام الغريب ، والإنسان يستوحش مما لا يعرفه وينكره ، على ما قال ربنا عز وجل : «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه» يونس ٣٩ .

والسبب الثانى : أنهم يخلطون بين «الغرابة فى اللغة» و«الغرابة فى

---

(١) مجلة المجمع ٢٢٥/٤ ، ٢٢٦ .
(٢) دورة (١) – جلسة (٣٥) محاضر الجلسات ص ٤٤٨ .
(٣) مراتب وضع الألفاظ – دورة (٢) جلسة (١٢) محاضر الجلسات ص ١٢١ .

البلاغة» فالغرابة فى البلاغة يراد بها : الكلام الحوشى المستكره ، أصواتا ودلالة ، على ما هو مذكور فى كتب البلاغيين .

أما غرابة اللغة فهى شئ آخر . فالغريب من الكلام - كما ذكره أبو سليمان الخطابى (٣٨٨هـ) - «هو الغامض البعيد من الفهم ، كالغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل .. ثم إن الغريب من الكلام يقال به على وجهين : أحدهما أن يراد به بعيد المعنى غامضه، لا يتناوله الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر . والوجه الآخر أن يراد به كلام من بعدت به الدار ، ونأى به المحل من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها ، وإنما هى كلام القوم وبيانهم ، وعلى هذا ما جاء عن بعضهم ، وقال له قائل : أسألك عن حرف من الغريب ، فقال : هو كلام القوم ، إنما الغريب أنت وأمثالك من الدخلاء فيه » (١) .

أقول : واللهم نعم : «الغريب هو كلام القوم» وعدم أنسنا به أو استعمالنا له ، لا يخرجه عن دائرة كلام العرب، وعلى أن الاستعمال ليس بدليل على الحسن ، كما يقول ضياء الدين بن الأثير (٢) .

ومعلوم أن كلام العرب على وجهين : واضح وغريب ، ذكر هذا ونبه عليه واضع أول معجم عربى : الخليل بن أحمد الفراهيدى ، قال فى مقدمة كتاب العين : «بدأنا فى مؤلفنا هذا بالعين ، وهو أقصى

---

(١) غريب الحديث للخطابى ١/ ٧٠، ٧١ .

(٢) المثل السائر ١/ ٢٢١ .

الحـروف، ونضـم إليه مـا بـعده حتـى نسـتوعب كلام الـعرب : الواضـح والغريب (١)» .

وهـذا الغريب من كلام العرب قد يكون لـه ما يقابلـه من الواضـح ، فلك أن تعدل عن غريبه إلى واضحه ، مـع فقر فى معجمك اللغوى ، أنت مسئول عنه ومؤاخذ به ، عند تفاضل أقدار الكاتبين . وقد لا يكون له ما يقابلـه من الـواضـح ، فلا معدى لك عن مـعرفته واستعمالـه ، والجهل به حينئذ مزر بصـاحبه ، ومضيق عليه سـبل القول ومنـادح الكلام ، ولا يحس لذع هـذا ، ويستشـعر المحنـة فيه الا الشـعراء ، مـن حيث هـم محتاجون دائما إلى وفرة من الألفاظ وسعة فى الكلام ، لا يفتحهما لهم ذلك الكلام السـهل القريب .

ودعوة الجارم إلى استحياء الغريب من اللغة إنما هى دعوة فى حق موضـعـهـا ؛ لأن هـذا الـغـريب من صـمـيـم الـلـغـة ، والدعوة إلى هـجره والتجافى عنه ليست من البر بهذه اللغة الشريفة ، بل هى عدوان عليها ، وتحيف لشطر كبير منها . وهذه الألفاظ التى ينكرها بعض أهل زماننا ويتبشَّعونها لست تجدها فى النصوص الأدبية فقط ، من شعر ونثر ، بل إنك واجدها فى كتب الأنسـاب والتاريخ والبلدانيات (الجغرافيا) وكتب الفلك والطب والفلاحة والزراعة ، وسـائر مـا كتب الأوائل من علومـهم وفنونهم .

---

(١) كتاب العين ١/ ٦٠ .

وقد نطق شعر الجارم بهذه الرغبة العارمة فى استحياء تلك الألفاظ التى يتحاشاها الأدباء والشعراء فى زماننا هذا : زهادة فيها أو جهلا بها ، أو استسهالاً للألفاظ القريبة السهلة المستهلكة ، فيقول فى واحدة من كريم شعره :

كم لفظة جهدت مما نكررها حتى لقد لهثت من شدة التعب
ولفظة سجنت فى جوف مظلمة لم تنظر الشمس منها عين مرتقب
كأنما قد تولى القارظان بها فلم يؤوبا إلى الدنيا ولم تؤب(١)

ثم صدّق شعر الجارم مقترحه ، فكثر فى شعره الغريب كثرة ظاهرة ، وهذا مثل واحد من شعره ، من قصيدته فى مدح الشيخ الإمام محمد عبده :

المجد فوق متون الضُمّر القود تطوى الفلا بين إيجاف وتوخيد
إذا رمت عرض صيهود مناسمها رمت إليها الليالى كل مقصود
أو مزقت طيلسان الليل من خبب كست خيال الأمانى ثوب موجود
مولاى علمتنى كيف الثبات إذا لم يترك الرعب قلبا غير مَزْءُود (٢)

على أن مما يجب التنبه له أن جميع شعراء النهضة الشعرية الحديثة ، بدءا من محمود سامى البارودى حتى شاعرنا على الجارم كانوا عارفين بهذا الغريب من الكلام، وكانوا لا يخلون شعرهم منه ، بل

(١) ديوان الجارم ص ٣٦٤ .
(٢) ديوان الجارم ص ٤١٣ ويلاحظ أن الجارم أنشأ هذه القصيدة وعمره عشرون عاما .

إن أمير الشعراء المعاصرين وعلمهم الكبير أحمد شوقى كان مكثرا من استعمال ذلك اللون من اللغة ، وله منه أعاجيب منها قوله :

خلو الأكاليل للتاريخ إن له يدا تؤلفها درا ومخشلبا (١)

فانظر إلى «المخشلب» هذه ، وهل يطيقها أحد من أهل زماننا ؟

لقد استخرجها شوقى من محفوظه من شعر أبى الطيب المتنبى ، وذلك قوله :

بياض وجه يريك الشمس حالكة ودر لفظ يريك الدر مخشلبا (٢)

★★★

وقد ظهر لى من قراءة شعر الجارم أن كثيرا من هذا الغريب الذى فاض به شعره إنما واتاه من دربة طويلة مع النصوص الشعرية المأثورة، ولم يأته من قراءة كتب اللغة أو المعاجم فقط. (٣) وآية ذلك أن

---

(١) ديوان أحمد شوقى ٧٩/١ ، ويروى عن الشيخ سليم البشرى أنه أحصى (١٠٠) ألف لفظة من الغريب أحياها أحمد شوقى فى شعره .

(٢) المخشلب : خرز يشبه الدر من حجارة البحر ، وليس بدر ، ويقال إنه لفظ نبطى والعرب تقول له الخضض . شرح ديوان المتنبى للواحدى ص ١٥٦ .

(٣) حكى لى شيخى محمود محمد شاكر رحمه الله ، أن الأديب الكبير أحمد حسن الزيات رحمه الله كان يضع فى جيبه نوتة (مجموعة ورقية) مدون بها أفصح الأبنية والتراكيب، جمعها الكاتب الكبير من القاموس المحيط وغيره ، وأنه كان يستعين بهذه النوتة عند كتابة مقالاته.

بعضا من تراكيبه الشعرية إنما انتزعه مما استقر فى محفوظه من شعر الأوائل :

فمن ذلك قوله من قصيدة فى ذكرى المولد النبوى الشريف :

إذا صال لم يترك مصالاً لصائل

وإن قال ألقت سمعها البلغاء (١)

فالشطر الأول منتزع من قول معاوية بن أبى سفيان، يمدح عبدالله ابن عباس رضى الله عنهم :

إذا قال لم يترك مقالا لقائل

مصيب ولم يثن اللسان على هجر (٢)

وقوله :

غضبان رد إلى اليافوخ عُفْرَتَه

ومن يصاول ليثا وهو غضبان

لقد حمينا أباة الضيم حوزتنا

من أن تُباج ودِنَّاهم كما دانوا (٣)

فهذا شعر ينظر إلى شعر الشاعر الجاهلى شهل بن شيبان ، المعروف بالفند الزمانى :

---

(١) ديوان الجارم ص ٢١ .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ٢/٢٧٠ ، وطبقات الشافعية لابن السبكى ٩/٢٠٨

(٣) ديوان الجارم ص ٩١ .

مشينا مشية الليث غـدا والليث غضـبان
ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا (١)

وقوله من قصيدته فى سعد زغلول باشا :

إن أم المجد مقلات فكم سوّفت بين جنين وجنين (٢)

منتزع من قول الشاعر (٣) :

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلات نزور

وقوله من قصيدته فى محمد محمود باشا :

طارت شعاعا وهولا مثلما عصفت
هوج الرياح برمل البيد فى البيد (٤)

مأخوذ صدره من قول قطرى بن الفجاءة ، من شعراء الخوارج :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى (٥)

---

(١) شرح حماسة أبى تمام للمرزوقى ص ٣٥ .

(٢) ديوان الجارم ص ١١٥ .

(٣) اختلف فى اسمه ، فقيل : هو كثير ، وقيل : العباس بن مرداس، وقيل : غيرهما ، انظر ديوان كثير ص ٥٣٠ ، وديوان العباس ص ١٧٣ ، وبغاث الطير : صغارها ، والمقلات : التى لا يكثر فراخها . والنزور : القليلة الأولاد .

(٤) ديوان الجارم ص ١٣٧ .

(٥) شعر الخوارج . جمع الدكتور إحسان عباس ص ٤٢ .

وفي القصيدة نفسها يقول :

من كل أروع عنوان الجهاد به   قلب ركين ورأى غير مخضود (١)

وفى هذا البيت شميم من قول حسان بن ثابت ، يرثى عثمان بن عفان ، رضى الله عنهما :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به   يقطع الليل تسبيحا وقرآنا (٢)

وفى هذه القصيدة أيضا :

ترنو إليه فتغضى من مهابته

فالطرف ما بين موصول ومصدود

ويحمل بعض هذا التركيب أثر قراءة لشعر الفرزدق (٣) ، وهو قوله يمدح علي بن الحسين بن على بن أبى طالب ، المعروف بزين العابدين :

يغضى حياء ويغضى من مهابته   فما يكلم إلا حين يبتسم

ويقول الجارم فى الأسرة العلوية :

شمس العداوة والحسام مجرد   فإذا انطوى فملائك أطهار (٤)

وصدر البيت مسلوخ من قول الأخطل ، فى بنى أمية، من قصيدته الباذخة فى عبدالملك بن مروان :

---

(١) ديوان الجارم ص ١٣٨ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ص ٩٦ .

(٣) ويروى لغيره . انظر الأغانى لأبى الفرج ٣٢٩/١٥

(٤) ديوانه ص ١٤٦

شمس العداوة حتى يستقاد لهم
وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا (١)

ويقول فى مدح أحمد لطفي السيد باشا :

ففى سكتة المبهور أصدق مدحة وكل كلام بين حق وباطل (٢)

وفى ذلك المديح نوع شبه يقول عيسى بن أوس، فى الجنيد بن عبدالرحمن، أمير خراسان :

مدحتك بالحق الذى أنت أهله ومن مدح الأقوام حق وباطل (٣)

ومن مرثية الجارم فى صديقه «أبو الفتح الفقى» يقول - وهى من قصائده الجياد :

كل ابن أنثى فى الحياة إلى مدى والمرء فى الدنيا إلى ميقاته (٤)

وهو ينظر إلى قول كعب بن زهير رضى الله عنه فى «لاميته» الشريفة «بانت سعاد فقلبى اليوم متبول » :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول (٥)

ويقول الجارم فى مِدْحَةٍ للفاروق ملك مصر السابق، ويهنئه بعيد الفطر :

---

(١) ديوان الأخطل بشرح أبى سعيد السكرى ص ٢٠١ ، والشمس: جمع شموس ، وهو الصعب العسر .
(٢) ديوانه ص ١٥٧ .
(٣) ديوان المعانى ، لأبى هلال العسكرى ٢٤/١ .
(٤) ديوانه ص ١٦٩ .
(٥) ديوان كعب بن زهير ص ١٩ .

هنيئا لك العيد الذى بك أشرقت

منازله بشرا وضاعت رحائبه (١)

وصدر البيت من قول المتنبى يمدح سيف الدولة ، ويهنئه بعيد الأضحى :

هنيئا لك العيد الذى أنت عيده

وعيد لمن سمّى وضحّى وعيّدا (٢)

ومن شعره فى قصيدة ضمنها بعض ذكرياته بعد عودته من أوربا :

يلقى بها أينما ألقى عصاه بها   أهلا بأهل وأصهارا بأصهار (٣)

ولا ريب أن الجارم قال هذا البيت وفى محفوظه قول الأول (٤) :

لا يمنعنّك خفض العيش فى دعة   نزوع نفس إلى أهل وأوطان

تلقى بكل بلاد إن حللت بها   أهلا بأهل وجيرانا بجيران

ومن قصيدة للجارم فى ويلات الحرب العالمية الأولى ، يقول :

---

(١) ديوانه ص ١٨١ .

(٢) ديوان المتنبى ١/٢٨٥ .

(٣) ديوانه ص ٢٣٧ .

(٤) أختلف فى اسمه ، فقيل : هو أبو تمام . وقيل : مسلم بن الوليد (صريع الغوانى) وقيل : إبراهيم بن العباس الصولى . انظر حماسة أبى تمام بتحقيق د. عبدالله عسيلان . ثم أنظر ديوان على بن الجهم ص ٢٦١ (الطبعة الثانية) .

لجّ به الموت فأودى به   وحز منه الليت والأخدعا (١)

وآخر البيت من قول الشاعر الأموى الصمة بن عبدالله القشيرى :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى

وجعت من الاصغاء ليتا وأخدعا (٢)

ويقول فى وصف جريدة لم يسمها :

وكنت صحيفة الأبرار حقا   تلقتك الكنانة باليمين (٣)

وقد نظر فى ذلك إلى قول الشماخ ، فى عرابة الأوسى :

إذا ما راية رفعت لمجد   تلقاها عرابة باليمين (٤)

ومن مرثيته لصديقه محمود فهمى النقراشى باشا ، يقول الجارم :

شيئان ما عيب البكاء عليهما   فقد الشباب وفرقة الألاف (٥)

وهذا من قول الشاعر (٦) :

---

(١) ديوان الجارم ص ٢٧٣ .

(٢) حماسة أبى تمام بشرح المرزوقى ص ١٢١٨ ، والاصغاء هنا : ميل الرأس والتلفت . والليت ، بكسر اللام : صفحة العنق ، والأخدع : عرق فى العنق .

(٣) ديوان الجارم ص ٢٩٤ .

(٤) ديوان الشماخ ص ٣٣٦ .

(٥) ديوان الجارم ص ٤٣٥ .

(٦) قيل : هو نفطويه النحوى ، وقيل : محمود الوراق ، ونسب البيتان إلى غيرهما . انظر ديوان محمود الوراق ، ص ٢٤٢ ، بتحقيق د. وليد قصاب .

شيئان لو بكت الدماء عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

وهذه القصيدة التى رثى بها الجارم صديقه النقراشى ، هى من أعلى شعره فنا وإحكاما ، ومن أغربه لغة وبيانا ، وقد أقامها على البحر «الكامل» ، واختار لها الفاء المكسورة رويا ، وأولها :

ماء العيون على الشهيد ذراف لو أن فيضا من معينك كافى

وأحسب أن الجارم حين جالت هذه القصيدة فى نفسه : موضوعا وبحرا ورويا ، إنما كان يستدعى من مذخوره أخرى (١) باذخة لأبى العلاء المعرى ، يرثى فيها أبا أحمد الموسوى ، الملقب بالطاهر ، وهو والد الشريف الرضى ، والشريف المرتضى ، ومطلعها :

أودى فليت الحادثات كفاف مال المسيف وعنبر المستاف (٢)

و«المستاف» هى إحدى القوافى التى انتزعها الجارم من قصيدة أبى العلاء . قال :

---

(١) هل هذا هو ما يسميه بعض أهل زماننا «التناص» ؟ وسواء كان هو أو لم يكن ، فإن هذه الكلمة «التناص» من أثقل ما ألقى الله على ألسنة عباده ، وهى وأخوات لها مثل «الزخم» ، و «الاشكالية» مما يطبق على القلب ، ويكاد يسد مجرى النفس ، وربنا المسئول أن يكشف عنا السوء ، ويصرف عنا الأذى .

(٢) شروح سقط الزند ص ١٢٦٤ . والمسيف : الذى ذهب ماله . والمستاف من السوف ، وهو الشم . وانظر أمالى ابن الشجرى ١/٤٠

ذكرى كحالية الرياض شميمها   راح النفوس وراحة المستاف (١)

وليست «المستاف» وحدها هي التي انتزعها الجارم من قوافي أبي العلاء في هذه القصيدة ، فهناك أخريات ، تراها في القصيدتين . وهي: الآلاف - عبد مناف - دراف - الرجاف - الأصداف - الأطراف - الرعاف - ثقاف - الأسياف - قوادم وخواف - الضافي - قواف - الأشراف - سلاف - المصطاف - الأعطاف - المئناف .

ومع ذلك فتبقى في قصيدة الجارم قواف ، هي مين كيسه ومن حر ماله ، ومن أحلاها وأعذبها وأخفها دما ، مع عربية أصيلة ، قوله :

إن الفتى ما فيه من أخلاقه   فإذا ذهبن فكل شئ «مافي»

والحذف هنا بعد «مافي» جميل جدا .

وهكذا يكون الشاعر الكبير : تمتلئ نفسه بموروث الكلام : شعرا ونثرا ، ويجري هذا الموروث في دمه جريان الدم في العروق ، وتخالط بشاشته قلبه وعقله ، ثم يفيض على لسانه ، شريف المحتد موصول النسب، ولكنه يبدو هو في نفسه سامق الهامة ، عالي الطول ، كذلك الطول المتوارث في بني عبدالمطلب (٢)

ومن وراء ذلك كله فللجارم في شعره استعمالات دالة على بصره باللغة والتصريف ، يقول في إحدى قصائده :

---

(١)ديوان الجارم ص ٤٣٨ .

(٢) انظر المعارف لابن قتيبة ص ٥٩٣ ، ولطائف المعارف للثعالبي ص ١١٢ ، والكامل للمبرد ص ٦٤٢ .

هبنى رجعت إلى الأوتار رنتها

فهل لشرخ الصبا واللهو رجعان (١)

والفعل «رجع» هنا استعمله الجارم متعديا فنصب به «رنتها» ، وكذلك استعمله متعديا فى قوله :

وقفت تجدد آثارها وتنشر للعرب أشعارها

وترجع بغداد بعد الفناء تحدث للناس أخبارها (٢)

وفى هذه القصيدة نفسها يقول :

ترد الشبيبة للصالحات وترجع للدين هتارها (٣)

وهذا الفعل الثلاثى «رجع» يستعمل لازما ومتعديا ، فيقال : رجع الحق إلى صاحبه ، ورجعت أنا الحق إلى صاحبه ، وهذا هو الأفصح أن يستعمل «رجع» متعديا ، فيقال : رجعت الكتاب إلى صاحبه ، ولا يقال : أرجعته ، إلا فى لغة لهذيل ضعيفة (٤) .

وعلى تلك اللغة الفصيحة جاء القرآن الكريم، قال تعالى : «فإن رجعك الله إلى طائفة منهم» - سورة التوبة ٨٣ ، وقال تعالى :

---

(١) ديوانه ص ٨٧ .

(٢) ديوانه ص ٩٨ .

(٣) ديوانه ص ١٠٠ ، والهتار : الذى غلبه الشيطان على عقله ، فمرق من الدين .

(٤) راجع شرح أشعار الهذليين للسكرى ص ٢٤ ، ٣١٨ ، ومعاجم اللغة (رجع) .

«فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن» سورة طه ٤٠ ، وقال تعالى: «ترجعونها إن كنتم صادقين» سورة الواقعة ٨٧ ، وقال تعالى : «فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار» سورة الممتحنة ١٠، وقال تعالى : «أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا» سورة طه ٨٩ ، ثم جاء المصدر من الثلاثى أيضا ، فقال تعالى : «إنه على رجعه لقادر» سورة الطارق ٨ .

★★★

ومن ثقافة الجارم اللغوية أيضا استعماله الفعل«أمل» مخفف اللام ، فقال :

إذا أمل الفتى فالهزل جد وإن يئس الفتى فالجد هزل (١)

وأكثر ما يستعمل الناس هذا الفعل مشددا «أمّل» إلى حد أن هذا الفعل المخفف - مع سلامته اللغوية ومجئ اسم الفاعل واسم المفعول منه مجيئا صالحا «آمل ومأمول » - قد خفى على بعض النحاة الأوائل، وهو أبو نزار الحسن بن صافى بن عبدالله البغدادى ، المعروف بملك النحاة المتوفى سنة (٥٦٨هـ) فقد أثر عنه أنه قال : «وأمل ، لم أسمعه فعلا ماضيا» وقد رد عليه ابن الشجرى ، وذكر له أن اللغويين حكوه وأجازوه ، وذكر له شيئا من شواهده ، ومنها قول المتنبى :

حرموا الذى أملوا وأدرك منهم آماله من عاذ بالحرمان (٢)

(١) ديوانه ص ٢٠٨.

(٢) ديوان المتنبى ١٨٢/٤ ، وأمالى ابن الشجرى ٣٦٤/٢ - ٣٦٦ .

ومن فقه الجارم باللغة أيضا استعماله كلمة «سائر» بمعنى «باق» ، يقول من قصيدة فى رثاء الشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى :

تمرّ به مرا فيسبيك بعضه وتقرؤه أخرى فيسبيك سائره (١)

واستعمال «سائر » بمعنى «باق» هو الفصيح الأكثر ، مأخوذ من السؤر، وهو ما يبقى فى الإناء ، ويرى بعض اللغويين أنه هو الصواب ، ولا صواب غيره ، يقول مجد الدين بن الأثير : «السائر : الباقى ، والناس يستعملونه فى معنى الجميع ، وليس بصحيح (٢)» ومثل ذلك قال ابن الجوزى والحريرى (٣) ، لكن المرتضى الزبيدى حكى عن بعض أئمة اللغة والتصريف أنه يجوز استعمال «سائر» بمعنى الجميع (٤) .

ويستشهد أصحاب الرأى الأول بشواهد كثيرة من النثر والشعر ، ومن أحلى شواهده قول عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط الأموى ، ويعرف بأبى قطيفة :

لهم منتهى حبى وجل مودتى وصفو الهوى منى وللناس سائره (٥)

★★★

---

(١) ديوان الجارم ٤١٩ .

(٢) النهاية فى غريب الحديث والأثر ٣٢٦/٢ .

(٣) تقويم اللسان لابن الجوزى ص ١٢٢ ، ودرة الغواص فى أوهام الخواص للحريرى ص ٤ .

(٤) تاج العروس شرح القاموس (مادة سأر) .

(٥) انظر كتاب من اسمه عمرو من الشعراء لابن الجراح . تحقيق د. عبدالعزيز المانع ص ١٦١ .

وهكذا تضلّع الجارم من لغته وفقهها ، وعرف لها حقها فيما كتب وفيما نظم ، فأحلّته هذه المنزلة الرفيعة بين شعراء زمانه ، واقتعدت له مكانا عاليا فى ركب الشعراء العظام ، على ما قال هو يصف شعره ، فى مقدمة الجزء الثانى من ديوانه :

«شعر نصر الفصحى فنصرته ، وصان لها ديباجها فصانته » .

وكما صان الجارم العربية فصانت له شعره ، فسيصونه الزمن أيضا ، فيبقيه طريا غضا على الألسنة ، مصونا فى تلافيف القلوب ، على ما قال حسان بن ثابت ، رضى الله عنه :

مصون الشعر تحفظه فيكفى

وحشو الشعر يورثك الملالا

★★★

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الثانى

فى الفصاحة والإعجاز

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن

من علوم القرآن التي اعتنى بها الأئمة ، وأفردوها بالتصنيف علم «إعجاز القرآن»، وقد بدأ الكلام في هذا العلم : شذرات ونتفا في كتب التفسير ، كشفا لمواطن الكمال والجلال في كلام ربنا عز وجل .

وقد دخل المفسرون الى الإعجاز من طريق تلك الآيات التي أمر بها المولى تباركت أسماؤه رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم أن يطلب من مشركي قريش الإتيان بمثل ما أنزل عليه ، تدرجا وتنزلا ، وذلك قوله تعالى : «أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات» - هود ١٣ - وقوله تعالى : «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » - البقرة ٢٣ - ثم قضى عليهم بالعجز وأيأسهم أن يأتوا بشيء من ذلك ، فقال عزّ من قائل : «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» - الإسراء ٨٨ - .

ومعلوم أن مشركي قريش الذين سمعوا كلام الله يُتلى على لسان رسوله الأمين كانوا أرباب فصاحة وبيان ، وكانوا يعرفون مواقع الكلام وحلاوة البيان ، ولذلك أدهشهم القرآن حين سمعوه ، ودله

عقولهم بعظمة بيانه وروعة معانيه ، ودقة نظمه واتساقه ، وحين لم يجدوا فى الطعن إليه سبيلا لم يسعهم إلا أن يقولوا : إنه شعر ، وإنه سحر ، وإنه أساطير الأولين اكتتبها محمد - صلى الله عليه وسلم - فهى تُملى عليه بكرة وأصيلا . وهذا كله إقرار بعظمة ما سمعوا ، وإذعان لأنه كلام مباين لكلام البشر ، لكنّ ما انغمسوا فيه من العناد والمكابرة صدهم عن الاعتراف بأنه وحيٌ يُوحى ، نزل به الروح الأمين على قلب المصطفى المختار ليخرج الناس به من ظلمات الوثنية والشرك إلى نور الإيمان وصفاء التوحيد .

ثم كان أن هدى الله بهذا القرآن العظيم أقواما ، فأقبلوا على تلاوته ، وتدبر أغراضه ومراميه ، وتمثلوا أوامره ، وانتهوا عن نواهيه. وكان هو كتابهم الذى يعتصمون به ويلجأون إليه فيما دقّ وجلّ من أمورهم .

وبقيت طائفة - ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة - لم تهتد ولم تذعن ، وظل عداؤها للقرآن قائما ، فأخذت تنقّر وتنقّب ، التماسا للمعابة فى هذا الكتاب المحكم ، باتباع متشابهه ، وتحريف كَلِمه عن مواضعه ، وتخيل فساد نظم ، أو لحن أسلوب ، أو تناقض معنى ، وقد أخذت هذه الطائفة تدب دبيبا فى القرنين الأولين، تستخفى بآرائها مرة ، وتُصحر بها أخرى ، لكنها فى كلتا حالتيها لم تترك أثرا يذكر ، إذ لم تكن لها شوكة ، وكانت العقيدة على صفائها ، لم تكدرها مقولات المتكلمين ، ولا خلافات المتأولين ، ثم كان اللسان

العربى لا يزال صحيحا محروسا لم يتداخله الخلل ، ولم يتطرق إليه الزلل ، لكن الصغير يكبر ويشب ، والزرع الضعيف يستحصد ويقوى، وتأتى أيام كالحات ، تنجم فيها الفتن بدواع كثيرة . منها اختلاط اللسان العربى بغيره من الألسنة ، وانتشار الكتب المترجمة بغثها وسمينها ، وتغلغل أهل المذاهب والنحل الأخرى فى صلب العقيدة الإسلامية ، وإغرائها بالجدل وعلم الكلام ، وأصحر أهل العداء القديم بآرائهم ، وإذا الذى كان بالأمس همسا ونجوى يصبح اليوم وله دوى وصليل ، فأخذت المجالس وحلقات الدرس تموج بتلك الآراء وتضطرب، وإذا بالذى كان مشافهة ومسامرة يسطر ويكتب وتتعاوره الأيدى .

ولم يكد المسلمون يدخلون فى النصف الثانى من القرن الثالث حتى انكشف كل خبىء وظهر كل مكنون ، واستعلن العداء للقرآن وللعربية ملففا فى ثياب الخلاف الفلسفى والكلامى ، ثم ما جر إليه كل ذلك من القول بفتنة خلق القرآن وأشباه لها من الكوائن والطامات .

لكن الله الذى تكفل بحفظ كتابه وفق طائفة من عباده ذاده منافحين ، قاموا لهذه المطاعن والشبهات، وألقوا بحججهم وبراهينهم فإذا هي تلقف ما يأفكون . ولعل أول حامل لهذا اللواء هو الإمام الجليل أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى، خطيب أهل السنة ، المولود سنة ٢١٣، والمتوفى سنة ٢٧٦، فقد انتدب لهذه الشكوك والمطاعن التى تثار حول القرآن ، فجمعها ثم سدد إليها

سهامه وأعمل فيها معاوله ، فاقتلعها من جذورها ، وكان مجلى ذلك كتابه العظيم «تأويل مشكل القرآن» الى ما نثره فى كتبه الأخرى ، مثل «تأويل مختلف الحديث» .

ثم ظهرت مسألة «إعجاز القرآن» مبحثا قائما بذاته ، يقصد إليه قصداً . وكانت تلك المسألة «من أبرز المسائل التى تعاورها العلماء بالبحث أثناء تـ فسيرهم للقرآن ، وردهم على منكرى النبوة ، وخوضهم في علم الكلام ، كعلى بن رَبّن كاتب المتوكل فى كتاب «الدين والدولة» وكأبى جعفر الطبرى فى تفسيره «جامع البيان عن وجوه تأويل أى القرآن» وكأبى الحسن الأشعرى فى «مقالات الإسلاميين» وأبى عثمان الجاحظ فى كتابه «الحجة فى تثبيت النبوة» . وكان علماء الاعتزال أكثر المثيرين للكلام فى إعجاز الـ قرآن ، فقد ذهب النظام – من بينهم – إلى أن القرآن نفسه غير معجز ، وإنما كان إعجازه بالصرفة ، وقال : «إن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة ، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحـكام من الحلال والحرام ، والعرب إنما لم يعارضوه ، لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك ، وسلب علومهم به » . وذهب هشام الفُ وطى ، وعباد بن سليمان إلى أن القرآن لم يجعل علما للنبى ، وهو عرض من الأعراض ، والأعراض لا يدل شىء منها على الله ولا على نبوة النبى . وكان ذلك وغيره من أقوال أئمتهما منبعا غزيرا للقول فى إعجاز القرآن . وقد انبرى كثير منهم للرد على من أنكر إعجازه جملة، كأبى الحسين الخياط وأبى علىّ الجبائى ، اللذين نقضا على «ابن الراوندى» كتابه «الدامغ» الذى طعن فيه على نظم

القرآن وما يحتويه من المعانى ، وقال : إن فيه سفها وكذبا . وكذلك رد كثير منهم على من خالف عن قول جماعتهم ، بأن تأليف القرآن ونظمه معجز ، وأنه علم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كالجاحظ الذى رد على النظام رأيه فى الصرفة فى كتاب « نظم القرآن » .

ثم أفرد علم «إعجاز القرآن» بالتصنيف ، ومن أشهر ما صنف فيه مما هو مطبوع ومتداول :

١ - النكت فى إعجاز القرآن ، لأبى الحسن على بن عيسى الرُّمانى المتوفى سنة ٣٨٦ .

٢ - بيان إعجاز القرآن ، لأبى سليمان حمد بن محمد الخطابى البُستى المتوفى سنة ٣٨٨ .

٣ - إعجاز القرآن لأبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ .

٤ - الرسالة الشافية ، للشيخ أبى بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ ، وهو صاحب «دلائل الاعجاز» و«أسرار البلاغة» .

ويعد كتاب أبى بكر الباقلانى من أوعب ما ألف فى هذا العلم . قال ابن العربى : «ولم يصنف مثله» .

« هذا الكتاب »

ويأتى كتابنا هذا فى «علـم إعجاز القرآن» نمطا وحده ، فقد أداره مؤلفه على وجه من إعجاز القرآن جديد ، لم يسبقه إليه سابق ، ولم

يفطن إليه باحث ، وكأن كعب بن زهير ، رضى الله عنه ، لم يكن مصيبا حين قال :

ما أرانا نقول إلا معارا
أو معادا من قولنا مكرورا

إلا أن يكون أراد الشعر وحده !.

فقد يفتح الله على الأواخر بما لم يفتح به على الأوائل ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وهذا أيضا وجه من وجوه إعجاز القرآن ، وأنت ترى هذا من نفسك ، فقد تتلو الآية أو السورة فى صلاتك ، أو فى مغداك ومراحك ، وعند أخذ مضجعك ، وتمر عليها مرا ، ثم تتلوها نفسها فى ساعة أخرى من ساعاتك ، وفى حالة مباينة من حالاتك ، أو تسمعها من قارىء غيرك ، فإذا هى تهزك هزا ، وإذا هى تملأ كل ما حولك بهجة وضياء ، ثم تفجر أمامك ينابيع من الحكمة والهدى لم يكن لك بهما عهد ، وتعجب ، كيف غيب عنك كل هذا الخير فيما سلف لك من أيام !.

وكل الكلام يمل ، إلا كلام ربنا عز وجل ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وصفه – وهو المنزل عليه : «ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه » .

وهذا الوجه من الإعجاز القرآنى الذى قام له المؤلف ونهض به ، وجه قاطع بات ، لا تصح فيه لجاجة ، ولا تسوغ معه مخالفة ، لأنه قائم على قواعد اللغة ، ومستند إلى أحكام التاريخ ، وليس للهوى فيه حظ أو نصيب .

وعنوان الكتاب كما ترى (من إعجاز القرآن فى أعجمى القرآن) - العلم الأعجمى فى القرآن مفسرا بالقرآن - وهو عنوان دال على موضوعه صراحة ، متجه إليه مباشرة ، ومنهج الوضوح دائر فى هذا الكتاب كله ، فالمؤلف يمضى إلى قضاياه ويعالجها دون ثرثرة أو تلكؤ أو فضول .

يقرر المؤلف أن القرآن يفسر فى ثنايا الآيات المعنى الدقيق لكل اسم أعجمى علم ورد فى القرآن ، أيا كانت اللغة المشتق منها هذا الاسم الأعجمى العلم ، وإن كانت لغة منقرضة يجهلها الخلق أجمعون عصر نزوله .

وأسلوب القرآن فى ذلك - كما يقول المؤلف - «المجانسة على الاسم العلم بما يفسر معناه أبين تفسير» ، ومثال ذلك ما ذكره فى تفسير اسم «زكريا» عليه السلام : يقول ربنا عز وجل : «ذكر رحمة ربك عبده زكريا» - مريم ٢ - ويقول المؤلف : زكريا فى اللسان العبرانى معناه حرفيا «ذاكر الله» ثم يدعوك المؤلف إلى أن تتأمل المجانسة بين قوله تعالى : «ذكر رحمة ربك عبده زكريا» « وبين ذاكر الله» ، وكأنه عز وجل يقول - وهو أعلم بما يريد - ذكر الله ذاكر الله أو : ذكر الله فذكره الله ، أو : ذكر الله فذكرته رحمة الله .

وقد يأتى تفسير العلم العجمى فى القرآن بذكر المرادف العربى لمعناه بغير العربى: ومن ذلك أن معنى «جبريل» فى العبرية : الشديد القوى ، وجاء التعبير عنه فى القرآن بذلك ، قال تعالى : «علمه شديد

القـوى . ذو مـرة فـاسـتـوى» – النـجـم : ٥ ، ٦ – والمـرة بكسـر المـيـم وتشديد الراء : بمعنى القوة أيضا ، وكذلك قوله تعالى عن جبريل عليه السـلام : « إنه لقـول رسـول كريم * ذي قـوة عند ذي الـعرش مكين» – التكوير : ١٩ ، ٢٠ – .

ومثـل ذلك ما انتهى إليه المؤلف في أمر «نـوح» عليـه السلام ، فقد رده بـعض مـفسـرى القـرآن إلى «الـنـواح» فقـالوا : هـو من نـاح ينـوح ، وجاء المؤلف فطبق عليه منـهجه فرده – اعتمـادا عـلى قواعد اللغة العبريـة – إلى مـعنـى التلبث والإقـامـة ، ثم فسـره بالسياق القرآنى الكاشف ، فـي قوله تـعالـى : «ولقد أرسلنـا نوحا إلـى قومـه فلبث فيهم ألف سـنة إلا خـمسـين عـاما » – العنكبـوت ١٤ – ، وقوله عز وجل : «واتل عليـهم نـبأ نـوح إذ قال لقومه يـا قوم إن كـان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بـآيات اللـه فعلى اللـه توكلت» – يـونس ٧١ – وقوله تبـاركت أسماؤه : «وجعلنا ذريته هم الباقين» – الصافات ٧٧ – .

وثـالـثة : يذكر المـؤلف أن «إسمـاعيل» ينـطق في العبريـة «يشمعيل» ومعنـاه : سمـع الله ، أو سميـع اللـه ، ثم التـمس هذا المعنى فى سياق القرآن الكريـم ، فوجده فـى قوله عز وجل على لسـان ابراهيـم عليـه السـلام : «الحمد للـه الذى وهـب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميـع الدعاء » – إبـراهيم ٣٩ – وفى قـوله عز وجل على لسان الخليل أيضـا وابنـه إسماعيل عليـهما السـلام : «وإذ يـرفـع إبراهـيم القواعد من البيت وإسـماعيل ربـنا تقبل مـنا إنك أنت السـميع العـليم » – البقرة ١٢٧ –.

وهكذا يمضى المؤلف بهذا المنهج فى تفسير أسماء الأعلام الأعجمية وما يشبهها من أسماء الأجناس والمواضع ، وقد أحصى فى ذلك واحدا وستين علما أعجميا أو مختلفا فى عجمته فى القرآن ، فسرها من القرآن نفسه ، تعالى منزله . ثم ذكر أن القرآن لا يفعل هذا فقط ، ولكنه يصحح أيضا لعلماء العبرية وعلماء التوراة وقت نزوله وإلى يوم الناس هذا ، تفسيراتهم اللغوية لمعنى هذا العلم العبرانى أو ذاك ، من مثل أسماء بنى إسرائيل الواردة فى القرآن وغيرها من أسماء المواقع ، مثل «مدين» فيخطىء أصحاب اللغة ويصيب القرآن .

فهذا هو عمود صورة الكتاب ، كـ ما أقامه مؤلفه ، وكما أراد له أن يكون ، ولكنه مـ ن وراء ذلك ومن قدامه قد استطرد إلى قضايا كثيرة ، عقيدية ولغوية وتاريخية .

ومن أنفس ما فى هذا الكتاب - وكله نفيس إن شاء الله - ما ذكره المؤلف حول تاريخ كتابة التوراة والإنجيل ، وأن نص التوراة مستنسخ من الذاكرة بعد نحو ثمانية قرون من وفاة موسى عليه السلام ، وكذلك الأناجيل الأربعة المتداولة لم يخطها عيسى عليه السلام بيده ، ولم يملها على حوارييه ، وبهذا تكون سلسلة السند فى التوراة والإنجيل منقطعة ، وليس كذلك القرآن .

ومما يتصل بالتوراة : ما سجله المؤلف من قصورها وتقصيرها فى ذكر الأنبياء الذين هم من قبل إبراهيم عليه السلام ، فتكون بذلك «توراة بنى إسرائيل» ليس غير .

وقد أفضى ذلك بالمؤلف إلى أن طعن كثيرا فى «سفر التكوين» الذى بين أيدينا الآن ، وكذلك شنع على كاتب التوراة ، وكشف تدليسه وكذبه فى أكثر من موضع ، بل إنه نبه على تناقضه مع نحو اللغة العبرية ومعجمها .

أما بنوة عيسى لآدم عليهما السلام ، وعبوديته لله عز وجل فقد عالجها المؤلف فى غير مكان من الكتاب .

والكتاب فى تسعة فصول ، خصص المؤلف الفصول الثلاثة الأولى منها لما يمكن أن نسميه تسمية علماء القراءات : الأصول ، والفصول الستة الباقية جعلها لما يسمى عندهم الفرش ، وهو تنزيل الكلام على أسماء الأعلام : علما علما ، كما ينزل الكلام فى اختلاف القراء على سور القرآن : سورة سورة .

أما الأصول فقد أدار المؤلف عليها كلاما عاليا شريفا ، حول أصناف الملاحدة ومناقشتهم ، ثم تكلم عن خصائص اللسان العربى وعبقرية العربية وقدمها ، وأوجه التقابل والتغاير بينها وبين العبرية ، ليجيب بعد ذلك : لماذا كانت العربية هى أم الساميات جميعا ؟

وأشار إلى لغات العالم المعروفة وقت نزول القرآن ، ثم أورد كلاما عزيزا عن القرآن ، وأورد اجتهادات فى لغة آدم عليه السلام ، التى تكلم بها على الأرض مهبطة من الجنة .

وتحدث عن استعارة معانى الأفعال وحدود الأخذ والاستعارة من اللغات الأخرى .

ولهذا المؤلف اجتهادات جيدة فى الاشتقاق ، وتأصيل عربية بعض ما يظنه الناس أعجميا ، مثل «جهنم» وتخطئة بعض اللغويين العرب فى أصل «إبليس» واشتقاقه .

وهناك أمر لا يزال المؤلف يعتاده ويُلم به كثيرا ، وهو الرد على المستشرقين ومن إليهم من متحذلقة الأساتيذ فى هذا القرن ، الذين أدركتهم عجمة العلم واللسان .. أو كما قال : وقد ردّ على المستشرقين فى طعنهم على القرآن ، وأنه وحى من الله يوحى على خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم .

ولعل أغنى بحث فيما وقع لى من أصول هذا الكتاب : هو الكلام على اسم أبى إبراهيم عليه السلام ، وهو «آزر» فى القرآن ، و «تارح» فى التوراة ، وقد تختلف مع المؤلف فى بعض ما انتهى إليه من الربط بين «آزر» و «تارح» ولكنك تكبر فيه صدق الجهد وقوة الحجة .

وهكذا تتوالى القضايا فى هذا الكتاب النفيس . على أنى أحب أن أسجل ها هنا أن كلام هذا الكاتب - وأنا لا أعرفه - لا تستطيع أن تفرق فيه بين أصل وحاشية ، بل إن كثيرا من حواشيه ينبغى أن تنقل إلى صلب الكتاب أو متنه ، وتأمل مثلا حاشيته فى الفصل الأول ، عند حديثه عن صور المغايرة بين العربية والعبرية ، فى توجيهه لتسميته صلى الله عليه وسلم «محمدا» ومظهر الحمد فيه ، وما تلا ذلك من حديثه عن «الموابية» والمقارنة أو الموازنة بين «ساذج» و«سادة» و «كيسر» المعرب إلى «قيصر» ، والاسم الإسبانى «رذريجو»

المعرب إلى «لذريق» .. وغير ذلك كثير من العلم المنثور فى حواشى الكتاب .

ومع غزارة هذه المعارف التى يقدمها لنا الكاتب ، ونفاستها ، فهو لا يدل بها على قارئه ، ولا يسوقها فى موكب تتقدمه الخيالة ، ويحف به راكبو الدراجات ، وتكتنفه دقات الطبول ، كما يفعل كثير من الكتاب الآن ، وإنما يأتيك كلامه سهلا رهْوا ، يتهادى فى إهاب الكرامة والتواضع والإسماح ، وعليه من العلم بهاؤه ، ومن الجد أماراته ، بأسلوب عذب مصفى ، أسلوب كاتب يحترم عقل قارئه ، ويريد إمتاعه لا التعالى عليه . يقول فى الفصل الثانى - الأعجمى المعنوى والأعجمى العلم - فى مناقشة المفسرين الذين اعتمدوا فى تفسير اسماء أنبياء بنى إسرائيل على المعجم العربى وحده ، يقول : «وأنا أيها القارىء العزيز - إن كنت لا تعرف عبرية التوراة أو يونانية الأناجيل ، بما فى هذه وتلك من أعلام آرامية بل ومصرية أحيانا - لا أريد لك أن يفوتك شىء من حلاوة بحث أريد أن أحبره لك تحبيراً : أريد منك أن تشترط علىّ توثيق ما أحدثك به ، فلا أكيل لك القول جزافا آمنا ألا تكشف زيفى ، لأنك لا تعلم شيئا من أمر تلك اللغات التى ذكرت لك . ليس هذا من العلم فى شىء ، وإنما هو من التدليس».

إن فى هذا الكتاب علما كثيرا ، وإن فيه خيرا كثيرا ، وإن عليه نورا كثيرا ، وما أظن ذلك كله قد كان إلا لأن مؤلفه قد تفيا به غايات

نبيلة : هـى خدمة كتاب الله ، بالكشف عن نواحى إعجاز جديدة فيه ، والأمور بمقاصدها ، يقول تاج الدين السبكى : « ولقد حصل أبو زرعة على أمر عظيم ببركة حفظه للحديث ، وهكذا رأينا من لزم بابا من الخير فتح عليه غالبا منه » .

ويقول عبد اللطيف البغدادى : « اعلم أن للدين عَبْقَة وعرْفا ينادى على صاحبه ، ونورا وضيئا يشرف عليه ويدل عليه » .

ويقول أبو الحسن العامرى : «إن الدين كريم الصحبة ، يعز من لجأ إليه ، ويستر عيوب من اتصل به ، مع ما يذخر له فى عاقبته من الغبطة الأبدية» .

قلت : وقد رأينا كثيرا ممن تطاولوا على الدين وهزءوا به وسخروا منه فى مجالسهم ، أو فى أعمالهم الأدبية - شعرا أو نثرا - قد انتهى أمرهم إلى خسار وبوار ، بل إن منهم من رأى فقره بين عينيه، ورأى عافيته تتفلت من بين يديه ، مع ما تراه من ظلام فى وجوههم .. (ومن يُهن الله فما له من مكرم) .

وتبقى بعد ذلك كلمة :

- لقد قلت من قبل إن أسلوب هذا الكتاب عذب مصفى ، واللهم نعم ! لكن شاب هذا الصفاء ، وعكر هذه العذوبة بعض أوشاب مما يخالط الأساليب الشريفة ، تتسلل اليها لواذا ، وكأنها العدوى المهلكة، تتخلل ذرات الهواء ، لا تحس بها إلا وقد داهمتك فى خلايا بدنك - عافاك الله - فلا تستطيع لها دفعا ولا مردا .

ومن ذلك ما جاء فى كلام المؤلف الفاضل من هذا التركيب «موسيقى القرآن» وهو تركيب رخو لين ، لا يليق بجلال القرآن وبهائه، ولا تقل : لا بأس علينا من تقارض مصطلحات العلوم ، لأن فيه إثراء للغة ، لا تقل هذا ولا تـغتر به ، لأنه مدخل لبلاء عظيم ، ولو فتحنا هذا الباب لفسد علينا كل شىء ، فإن للكلام حدودا ومعالم ينتهى إليها ، أنسيت أن منا من قال : إن القرآن رسم لوحة صفتها كيت وكيت ؟ فجعل المولى عز وجل فنانا تشكيليا يحمل فرشاة يغمسها فى ألوان ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

لقد غيروا «النظم القرآنى واتساقه» فجعلوه «موسيقى القرآن» ثم غيروا «العروض» فجعلوه «موسيقى الشعر» ثم غيروا «علم الصرف» فسموه «علم الصوتيات» وثم وثم وثم ، وبالله نستدفع البلايا !.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فى كم يتلى القرآن ؟

القرآن كلام الله ، تنزيل من حكيم حميد ، نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليكون من المنذرين ، وقد أمر عليه السلام بتلاوته على أمته ، وأمرت أمته بتلاوته وتدبر آياته والعمل بها ، وقد أثنى ربنا عز وجل على عباده التالين له، فقال تقدست أسماؤه :

«إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور» - فاطر ٢٩ ، ٣٠ - .

ويأتى رمضان كل عام مذكرا بهذا النور المبين ، فقد نزل القرآن الكريم فى ليلة مباركة منه . والمسلم وإن كان مأموراً بقراءة القرآن فى كل وقت وحين ، فإنه يجد لذة وأنسا حين يقرؤه فى رمضان لا يجدهما فى وقت آخر ، ونعم إن القرآن يطيب به الفم ويزكو به العمل فى كل آن ، ولكن الله يجعل لبعض الأيام ولبعض المواضع خصوصية ليست لغيرهما . وقد روى عن محمد بن مسلمة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن لربكم فى أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها» مجمع الزوائد للهيثمى ١٠ / ٢٣١ .

ولقد حفظت القرآن صغيرا ، واشتغلت بعلومه كبيرا ، وقرأته على فحول شيوخه واستمعته من كبار مقرئيه ، ولازلت مغمورا بنوره

وضيائه، فهو معى فى مغداى ومراحى وفى حلى وترحالى ، والحمد لله ، ولكن حلاوته تعظم فى فمى ، ونغمه يعذب فى سمعى حين أقرؤه فى رمضان ، وفى الحرمين الشريفين ، وكم كان قلبى يخشع وكيانى يهتز ، ودموعى تجرى حين أقرأ – وأنا فى الروضة الشريفة – تلك الآيات التى تخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم وتناديه ، فاقرأ وأتمثل وأستحضر وأنا بقرب النور وفى كرم الجوار ، فأى جلال وأى جمال ! وما دخلت المسجد النبوى مرة إلا وقرأت سورة النساء ، لأستحضر تلك الصورة الغالية الخاشعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وابن مسعود يقرأ عليه سورة النساء وذلك ما رواه البخارى عنه، قال : قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : «إقرأ علىّ ، قلت : يا رسول الله ، أأقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : نعم ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا» قال : حسبك الآن . فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان » صحيح البخارى (باب قول المقرىء للقارىء حسبك من كتاب فضائل القرآن) ٢٤١/٦ وهكذا تكون معرفة التفسير وأسباب النزول معينة على فهم القرآن وتدبره ، فإذا انضم الى ذلك معرفة غريبه ووجوه قراءاته ونحوه وإعرابه ، ومعانيه كان ذلك أعون على معرفة أسراره والوقوف على دقائقه ، ثم التلذذ بتلاوته ، واستصغار لذائذ الدنيا كلها بجوار آية واحدة من آياته يتلوها المؤمن مستجمعًا لها فكره مخليا لها قلبه ، ولذلك يقول أحمد بن أبى الحوارى الصوفى المتوفى سنة ٢٣٠ : «إنى لأقرأ القرآن فأنظر فى

آية فيحار عقلى فيها ، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم ويسعهم أن يشتغلوا بشىء من الدنيا وهم يتلون كلام الرحمن ؟ أما لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه ، وتلذذوا به ، واستحلوا المناجاة به ، لذهب عنهم النوم ، فرحا بما رزقوا ووفقوا » طبقات الصوفية للسلمى ص ١٠٢ .

والقرآن مؤنس لتاليه ، مزيل لوحشته ، يقول الراغب الأصفهانى فى مقدمة كتابه «حل متشابهات القرآن» : «فاتفقت خلوة سطوت على وحشتها بالقرآن ، ولولا إنه لم يكن لى بها يدان .. وكانت هذه الخلوة خلوة عين لا خلوة قلب ، واضطرار لا عن اختيار ، بل لقهر وغلب» والظاهر أن المراد بهذه الخلوة السجن . مقدمة تحقيق كتاب المفردات فى ألفاظ القرآن ص ٢٩ .

والمسلم حين يتلو القرآن ليس لسانا يضطرب فى جوبة الحنك فقط، ولكنه لسان يتلو ، وقلب يخشع ونفس تموج ، وعزم ينهض ، ولعمر بن الخطاب رضى الله عنه كلام نفيس ، فى إن المسلم مطالب بأن يجمع القرآن ويحفظه ويحيط به ويجعله إمامه فى جوارحه كلها ، وفى عمله كله ، وذلك ما أخرجه ابن جرير الطبرى عن الحسن «أن ناسا لقوا عبد الله بن عمرو بمصر ، فقالوا : نرى أشياء من كتاب الله أمر أن يعمل بها ، لا يعمل بها ، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين فى ذلك . فقدم وقدموا معه ، فلقيه عمر رضى الله فقال : متى قدمت؟ قال : منذ كذا وكذا ، قال : أبأذن قدمت ؟ قال : فلا أدرى كيف رد

عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن ناسا لقوني بمصر فقالوا «إنا نرى أشياء من كتاب الله تبارك وتعالى ، أمر أن يعمل بها لا يعمل بها، فأحبوا أن يلقوك في ذلك . فقال : اجمعهم لي ، قال : فجمعتهم له ... فأخذ أدناهم رجلا ، فقال : أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك ، أقرأت القرآن كله ؟ قال : نعم . قال : فهل أحصيته في نفسك ؟ قال : اللهم لا - قال : ولو قال «نعم» لخصمه - قال فهل أحصيته في بصرك ؟ هل أحصيته في لفظك ؟ هل أحصيته في أثرك، قال : ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم ، فقال : ثكلت عمر أمه ! أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ؟ قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات . قال: وتلا : «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما» - النساء ٣١ - هل علم أهل المدينة - أو قال : هل علم أحد - بما قدمتم ؟ قالوا : لا ، قال : «لو علموا لوعظت بكم» تفسير الطبري ٨ / ٢٥٤ - ٢٥٥ قال شيخنا أبو فهر محمود محمد شاكر وقوله لوعظت بكم أي : لأنزلت بكم من العقوبة ما يكون عظة لغيركم من الناس ، وذلك أنهم جاءوا في شكاة عاملهم على مصر ، وتشددوا ولم ييسروا ، وأرادوا أن يسير في الناس بما لا يطيقون هم في أنفسهم من الإحاطة بكل أعمال الإسلام ، وما أمرهم الله به ، وذلك من الفتن الكبيرة ، ولم يريدوا ظاهر الإسلام وأحكامه ، وإنما أرادوا بعض ما أدب الله به خلقه ، وعمر أجل من أن يتهاون في أحكام الإسلام . إنما قلت هذا وشرحته مخافة أن يحتج به محتج من ذوي

السلطان والجبروت ، فى إباحة ترك أحكام الله غير معمول بها ، كما هو أمر الطغاة والجبابرة من الحاكمين فى زماننا هذا » .

★★★

ولهذه الغايات كلها أمرنا بترتيل القرآن ، فى قوله عز وجل مخاطبا وآمرا نبيه صلى الله عليه وسلم - والأمر لأمته معه - (ورتل القرآن ترتيلا) المزمل ٤ ، قال القرطبى «أى لا تعجل بقراءة القرآن ، بل اقرأه فى مهل وبيان مع تدبر المعانى . والترتيل : التنضيد والتنسيق وحسن النظام ، ومنه ثغر رتل ورتل ، بكسر التاء وفتحها : أى حسن التنضيد» . تفسير القرطبى ٣٧/١٩ ، وحكى عن أبى بكر ابن طاهر ، قال : «تدبر فى لطائف خطابه ، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه ، وقلبك بفهم معانيه ، وسرك بالإقبال عليه » .

وروى أن علقمة بن قيس قرأ على عبد الله بن مسعود ، فكأنه عجل ، فقال ابن مسعود : «فداك أبى وأمى ، رتل فإنه زين للقرآن» المرشد الوجيز الى علوم تتعلق بالكتاب العزيز ، لأبى شامة المقدسى ص ١٩٨ .

لكن قوما من أهل الصدق والإخلاص - فى زماننا ومن قبل زماننا - حسنت نياتهم ، وسلمت صدورهم ، يرغبون فى إحراز الأجر ومضاعفة الثواب ، يشتدون فى هذا الشهر المبارك ، ويبالغون فى ختم القرآن أكثر من مرة ، ويتباهون فى ذلك ، فيقول أحدهم : ختمته عشرين مرة ، ويقول آخر : بل ختمته ثلاثين ، ثم يزيد بعضهم

وينقص بعضهم ، وما يدرون أنهم بذلك يبتعدون عن السنة المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن صحابته الأكرمين ، فقد روى البخارى ومسلم ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال ، قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ألم أخبر أنك تصوم الدهر، وتقرأ القرآن كل ليلة ؟ قلت : بلى يا نبى الله ، ولم أرد بذلك إلا الخير، قال : فصم صوم داود – وكان أعبد الناس – «كان يصوم يوما ويفطر يوما» واقرأ القرآن فى كل شهر قال : قلت : يا نبى الله ، إنى أطيق أفضل من ذلك ، قال : فاقرأه فى كل عشرين ، قال : قلت : يا نبى الله ، إنى أطيق أفضل من ذلك ، قال فاقرأه فى كل عشر قال: قلت يا نبى الله إنى أطيق أفضل من ذلك قال : فاقرأه فى كل سبع ، لا تزد على ذلك ، قال : فشددت فشدد علىّ وقال لى : إنك لا تدرى ، لعلك يطول بك عمر . قال فصرت إلى الذى قال لى النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما كبرت وددت أنى كنت قبلت رخصة نبى الله صلى الله عليه وسلم » جامع الأصول فى أحاديث الرسول ، لمجد الدين بن الأثير ٢/٤٧١ ، ٤٧٢ ، وجمع للحديث طرقا أخرى .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال « لأن أقرأ سورة أرتلها أحب إلىّ من أن أقرأ القرآن كله » وروى عنه أيضا أنه قال : «لأن أقرأ القرآن فى ثلاث أحب الىّ من أن أقرأه فى ليلة كما يقرأ هذرمة» .

والهذرمة : السرعة فى الكلام والمشى ، ويقال : هذرم فى كلامه هذرمة : أى خلط ويقال للتخليط : الهذرمة .

وثبت عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : «أن رجلا قال له : إنى أقرأ المفصل فى ركعة واحدة ، فقال عبد الله بن مسعود : أهذا كهذّ الشعر ؟ إن أقواما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع فى القلب فرسخ فيه نفع » أراد : أتهذّ القرآن هذا فتسرع فيه كما تسرع فى قراءة الشعر ؟ والهذ : سرعة القطع . والمفصل من سور القرآن : من سورة الحجرات إلى سورة الناس ، وقيل غير ذلك ، وسمى مفصلا لكثرة الفصول بين سوره ، أو لقلة المنسوخ فيه . بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزا بادى٤/١٩٤ .

وسئل مجاهد عن رجل قرأ البقرة وآل عمران ورجل قرأ البقرة ، قيامهما واحد ، وركوعهما واحد ، وسجودهما واحد ، وجلوسهما واحد ، أيهم أفضل ؟ فقال : الذى قرأ البقرة ، ثم قرأ : «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا» - الإسراء : ١٠٦ - وانظر بيان ذلك كله فى المرشد الوجيز ص ١٩٧ ، والتبيان فى آداب حملة القرآن للنووى ص ٧١ .

★★★

وإذا كان كثير من الناس يشتدون ويجتهدون فى ختم القرآن فى رمضان أكثر من مرة ، فإن كثيرا منهم أيضا كان على السنة ، وعلى المنهج الراشد المقتصد فقد روى أن أبا رجاء العطاردى - وكان إماما كبيرا من المخضرمين - كان يختم بأصحابه فى قيام رمضان القرآن كل عشرة أيام . حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ٢/٣٠٦ ، وصفة الصفوة لابن الجوزى ٣/٢٢١ .

وقال القرطبى فى كتاب التذكار فى أفضل الأذكار ص ٦٧ : «وذهب كثير من العلماء إلى منع الزيادة على سبع ، أخذا بظاهر المنع فى قوله : «فاقرأه فى سبع ولا تزد – يعنى فى حديث عبد الله ابن عمرو السابق – واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يرو عنه أنه ختم القرآن كله فى ليلة ، ولا فى أقل من السبع ، وهو أعلم بالمصالح والأجر ، وفضل الله يؤتيه من يشاء فقد يعطى على القليل ما لا يعطى على الكثير » .

وروى أن عبد الله بن مسعود كان يقرأ القرآن فى غير رمضان من الجمعة إلى الجمعة ، ويقرؤه فى رمضان فى ثلاث ، وكذلك كان تميم والأعمش يختمان فى كل سبع ، وكان أبى يختمه فى كل ثمان ، وكان الأسود يختمه فى ست ، وكان علقمة يختمه فى خمس ، «جمال القراء وكمال الإقراء لعلم الدين السخاوى ١٠٧/١» .

وقد عقد أبو عمر الدانى بابا فى (كم يستحب ختم القرآن وما روى عن الصحابة والتابعين فى ذلك) .

فى كتابه البيان فى عد أى القرآن صفحة ٣٢١ .

بل إن بعض الصحابة والتابعين كان يقف فى قراءته عند سورة بعينها ، يظل يرددها ، أو آية بخصوصها ، فلا يزال يكررها ، طلبا للتدبر ، وخشوعا لجلال المعنى ، وكان إمامهم فى ذلك وقدوتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى عن أبى ذر رضى الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام ليلة من الليالى يقرأ آية واحدة

الليل كله حتى أصبح ، بها يقوم ، وبها يركع ، وبها يسجد «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» – المائدة ١١٨ – ، وعن تميم الدارى أنه أتى المقام – فى الكعبة المشرفة – ذات ليلة ، فقام يصلـ ى ، فافتتح السورة التى تذكر فيها الجاثية ، فلما أتى على هـذه الآية : «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون» – الجاثية : ٢١ – ، لم يزل يرددها حتى أصبح ، وعن ابن مسعود أنه لم يزل يردد (وقل رب زدنى علما) – طه : ١١٤ – حتى أصبح . وعن عامر بن عبد قيس أنه قرأ من سورة المؤمن – غافر – فلما انتهى إلى قوله تعالى : «وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين» – غافـ ر : ١٨ – لم يزل يرددها حتى أصبح . وروى عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الـله عنهما أنها افتتحت سورة الطور فلما انتهت إلى قوله تعالى : «فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم» الطور ٢٧ ذهبت إلى السوق فى حاجة ثم رجعت وهى تكررها ، وهى فى الصلاة أيضا . وعن سعيد بن جبير أنه ردد هذه الآية فى الصلاة بضعا وعشرين مرة : «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون» – البقرة : ٢٨١ - وعنه أيضا أنه استفتح بعد العشاء الآخرة بسورة : «إذا السماء انفطرت» فلم يزل فيها حتى نادى منادى السحر » . المرشد الوجيز ص ١٩٥ – ١٩٧ .

فمدار الأمر فى تلاوة القرآن على التدبر واستحضار المعانى ، وتأمل الإشارات وتبين الدلالات ، فمن أنس فى نفسه قدرة وجلادة ، مع تحقيق هذه الغايات وتعهد الواجبات الأخرى من الفرائض والنوافل ، ومن سعى فى أمور المعاش وإعمار الحياة ، فليقرأ ما شاء الله له أن يقرأ ، على ألا يزيد على السنة المأثورة ، وللحافظ الذهبى هنا كلام جيد ، ينبغى ذكره وتأمله ، قال رضى الله عنه ، تعقيبا على حديث عبد الله بن عمرو بن العاص السابق : «وصح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نازله إلى ثلاث ليال ، ونهاه أن يقرأه فى أقل من ثلاث وهذا كان فى الذى نزل من القرآن ، ثم بعد هذا القول نزل ما بقى من القرآن . فأقل مراتب النهى أن تكره تلاوة القرآن كله فى أقل من ثلاث . فما فقه ولا تدبر من تلا فى أقل من ذلك ، ولو تلا ورتل فى أسبوع ، ولازم ذلك لكان عملا فاضلا ، فالدين يسر ، فو الله إن ترتيل سُبع القرآن فى تهجد قيام الليل ، مع المحافظة على النوافل الراتبة ، والضحى ، وتحية المسجد ، مع الأذكار المأثورة الثابتة ، والقول عند النوم واليقظة ، ودبر المكتوبة والسحر ، مع النظر فى العلم النافع والاشتغال به مخلصا لله ، مع الأمر بالمعروف ، وإرشاد الجاهل وتفهيمه ، وزجر الفاسق ، ونحو ذلك ، مع أداء الفرائض فى جماعة بخشوع وطمأنينة وانكسار وإيمان ، مع أداء الواجب ، واجتناب الكبائر ، وكثرة الدعاء والاستغفار والصدقة وصلة الرحم ، والتواضع ، والاخلاص فى جميع ذلك : لشغل عظيم جسيم ، ولمقام أصحاب اليمين وأولياء الله المتقين ، فإن سائر ذلك مطلوب فمتى

تشاغل العابد بختمه في كل يوم ، فقد خالف الحنيفية السمحة ، و ينهض بأكثر ما ذكرناه ، ولا تدبر ما يتلوه . هذا السيد العابد الصاحب - يعني عبد الله بـ ن عمرو بن العاص - كان يقول لما شاخ : ليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك قال ا عليه السلام في الصوم ، ومازال يناقصه حتى قال له : «صم يوما وأفطر يوما ، صم صوم أخي داود عليه السلام » ، وثبت انه قال : «أفضل الصيام صيام داود» ، ونهى عليه السلام عن صيام الدهر ، وأمر عليه السلام بنوم قسط من الليل ، وقال : «لكني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وكل من لم يزم نفسه - أي يمنع ويكبح - في تعبده وأوراده بالسنة النبوية يندم ويترهب ويسوء مزاجه ، ويفوته خير كثير من متابعة سنة نبيه الرءوف الرحيم بالمؤمنين ، الحريص على نفعهم ومازال صلى الله عليه وسلم معلـما للأمة أفضل الأعمال ، وآمرا بهجر التبتل والرهبـانية التي لم يبعث بها ، فنهى عـن سرد الصوم أي تواليه وتتابعه - ونهى عن الوصال - في الصوم - وعن قيام أكثر الليل إلا في العشر الأخير - يعني من رمضان - ونهى عن العزبة - عدا الزواج - للمستطيع ونهى عن ترك اللحم ، إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي . فالعابد بلا معرفة لكثير من ذلك معذور مأجور ، والعابد العالم بالآثار المحـمدية المتجاوز لها مفضول مـغرور وأحب الأعمال إلى

الله تعالى أدومها وإن قل . ألهمنا الله وإياكم حسن المتابعة ، وجنبنا الهوى والمخالفة » سير أعلام النبلاء ٣/٨٤ – ٨٦ .

وذكر الذهبى أيضا فى ترجمة «أبى بكر شعبة بن عياش » أنه مكث نحوا من أربعين سنة يختم القرآن فى كل يوم وليلة مرة ، وعلق على ذلك فقال : «وهذه عبادة يخضع لها ، ولكن متابعة السنة أولى ، فقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عبد الله بن عمرو أن يقرأ القرآن فى أقل من ثلاث ، وقال عليه السلام : «لم يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث» سير أعلام النبلاء ٨/٤٤٢ .

وكذلك ذكر فى ترجمة «وكيع بن الجراح» أنه كان يصوم الدهر ، ويختم القرآن كل ليلة ، وعقب على ذلك فقال : « هذه عبادة يخضع لها ، ولكنها من مثل إمام من الأئمة الأثرية مفضولة ، فقد صح نهيه عليه السلام عن صوم الدهر ، وصح أنه نهى أن يقرأ القرآن فى أقل من ثلاث . والدين يسر ، ومتابعة السنة أولى » سير أعلام النبلاء ٩ / ١٤٣ .

ومن قبل الذهبى ، ذكر خطيب السنة الإمام الجليل أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، فى كتابه تأويل مشكل القرآن ص ٢٣٢ ، قال: « ولم يفرض الله على عباده أن يحفظوا القرآن كله ، ولا أن يختموه فى التعلم ، وإنما أنزله ليعملوا بمحكمه ، ويؤمنوا بمتشابهه ، ويأتمروا بأمره ، وينتهوا بزجره ، ويحفظوا للصلاة مقدار الطاقة ، ويقرءوا فيها الميسور . قال الحسن – البصرى – نزل القرآن ليعمل به فاتخذ الناس تلاوته عملا .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم - وهم مصابيح الأرض وقادة الأنام ومنتهى العلم - إنما يقرأ الرجل منهم السورتين والثلاث والأربع ، والبعض والشطر من القرآن ، إلا نفرا منهم وفقهم الله لجمعه ، وسهل عليهم حفظه قال أنس بن مالك : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا أى جل فى عيوننا ، وعظم فى صدورنا » وفى تفسير القرطبى ١/٤٠ ، عن ابن عمر ، قال «كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلى السورة أو نحوها ، ورزقوا العمل بالقرآن . وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن ، منهم الصبى والأعمى ، ولا يرزقون العمل به » .

اللهم حبب إلينا القرآن ، وأذقنا حلاوته ، وأرزقنا تلاوته وفقهه والعمل به أثناء الليل وأطراف النهار - واجعله أنيسا لنا فى هذا الزمان الذى ذهب فيه من يؤنس به ويستراح إليه ، واجعله اللهم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا وجلاء - بكسر الجيم - حزننا ، وذهاب - بفتح الذال - همنا ، واجعلنا ممن يرعاه حق رعايته ، ويقوم بقصده ، ويوفى بشرطه ، ولا يلتمس الهدى فى غيره ويرحم الله عبدا قال آمينا .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إقراء القرآن بمصر

فى عدد يوليو ١٩٩٢ م من «الهلال» كتبت كلمة عن «الشيخ مصطفى إسماعيل وقراء مصر» جعلتها تحية وصلة لكتاب أستاذنا الكبير الناقد الشاعر كمال النجمى، عن الشيخ مصطفى إسماعيل، رحمه الله.

والحديث عن قراءة القرآن وإقرائه بمصر، لابد فيه من التفرقة بين «القارئ» و«المقرئ» ومعروف أن لمصر فى الفريقين تاريخا عريضا وأياما زاهية.

فالقارئ : هو الذى يقرأ لنفسه وقد يسمعه غيره، والمقرئ: هو الذى يقرئ غيره، تعليما وتوجيها، وتقول اللغة: «رجل قارئ، من قوم قراء وقرأة - بوزن فَعَلَه - وقارئين. وأقرأ غيره يقرئه إقراء، ومنه قيل : فلان المقرئ . وبهذه التفرقة بين الفعل اللازم والفعل المتعدى يحسن أن نقول عن الذى يقرأ بصوت حسن فى المناسبات وفى الإذاعة، كالشيخ مصطفى إسماعيل ومن إليه: قارئ . ونقول عن الذى يحفظ الصغار فى الكتاتيب وجماعات وتحفظ القرآن: مقرئ على أنه قد يجتمع الفريقان فى جمع التكسير فيقال: «القراء» لمن يقرأ ولمن يُقرئ، وعلى هذا سمى

الحافظ الذهبى كتابه «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار» وابن الجزرى كتابه «غاية النهاية فى اختصار طبقات القراء».

على أن «للمقرئ» فى تاريخنا التراثى معنى أوسع وأشمل من مجرد تحفيظ القرآن للصغار ومن فوقهم . فالمقرئ : هو ذلك العالم الذى يعرف القراءات القرآنية: رواية ودراية، بحيث يكون قادرا على جمع الطرق والروايات، ومعرفة وجوه الخلاف بين القراء، والاحتجاج للقراءات وتوجيهها من لغة العرب، ويكون أيضا متقنا لطرق الأداء – وهو ما يعرف الآن بعلم التجويد – ووقوف القرآن: الكافى منها والتام والحسن، ثم يتلقى الناس عنه ذلك كله مشافهة وسماعا . وقد نبغ فى كل زمان ومكان من قاموا بهذا الأمر على خير وجه، فضلا من الله وحياطة لكتابه وحفظا له. ولم يكن لمصر على سواها من الدول العربية والإسلامية فضل وزيادة، فهو رزق الله المقسم على خلقه شرقا وغربا، ليتم وعده (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (ولقد يسرنا القرآن للذكر) لكن الأمر كاد يخلص لمصر فى القرنين الأخيرين، فتربع قراؤها على عرش الإقراء والقراءة: رواية ودراية وجمال صوت، وصارت الرحلة إليهم من الشرق ومن الغرب، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة ذكرتها فى مقالتى عن «الشيخ مصطفى إسماعيل».

ويذكر التاريخ أسماء عظيمة لمعت فى سماء مصر فى القرنين الأخيرين، وخدمت كتاب الله إقراء وتأليفا . ومنهم الشيخ محمد أحمد المتولى المتوفى سنة ١٣١٣ هـ = ١٨٩٥ م والشيخ محمد مكى نصر

المتوفى بعد سنة ١٣٠٨ هـ، وهو صاحب أعظم كتاب فى طرق الأداء وصفات الحروف ومخارجها «نهاية القول المفيد فى علم التجويد»، والشيخ على محمد الضباع المتوفى سنة ١٣٨٠ هـ = ١٩٦١ م. ومن المعاصرين: الشيخ المقرئ العالم عبد الفتاح عبد الغنى القاضى المتوفى سنة ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٢ م، والشيخ إبراهيم على شحاته المقيم الآن بسمنود والشيخ أحمد عبد العزيز أحمد محمد الزيات، الأستاذ بكلية القرآن بالمدينة النبوية الآن . ويقال : إن الشيخ الزيات هو أعلى القراء الآن إسنادا (وعلو الإسناد معناه قلة الوسائط بين القارئ الآن، وبين القارئ الأول، وهو المصطفى صلى الله عليه وسلم بما نزل به جبريل عليه السلام، وعن رب العزة والجلال).

الشيخ عامر عثمان

ويقف سيدى وشيخى الشيخ عامر السيد عثمان بين هؤلاء الكوكبة من القراء المعاصرين فى مكان ضخم بارز، فهو أكثرهم إقراء للناس، واتصالا بهم، وتأثيرا فيهم. وقد عرفته منذ عشرين عاما قبل وفاته حين بدأ العمل فى تحقيق كتاب «لطائف الإشارات فى علم القراءات» لشهاب الدين القسطلانى، شارح البخارى، المتوفى سنة ٩٢٣ هـ، بالاشتراك مع الدكتور عبد الصبور شاهين. وكان الشيخ يتردد على دار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات - وكنت يومئذ أعمل به - فشدنى إليه، ورغبنى فيه، ودعانى إلى حلقته العامرة الممتدة على أيام الأسبوع كله، فوقفت منه على علم غزير جم، وتمثلت فيه وبه هذه الأوصاف الضافية

التى تأتى فى كتب التراجم والطبقات، ويظنها من لا علم عنده بتاريخ الأمة، وأحوال الرجال، من المبالغات والتهاويل التى يغص بها تاريخنا... زعموا! نعم رأيت فى هذا الشيخ الجليل كثيرا مما كنت اقرأه فى طبقات القراء والمحدثين والفقهاء والأدباء: من سعة الراوية، وكثرة الحفظ، وجمع الطرق ودقة الضبط وتحرير الرواية وحسن الإتقان.

ولد شيخنا الشيخ عامر، رحمه الله، بقرية «ملامس» مركز منيا القمح، محافظة الشرقية، فى ١٦ مايو سنة ١٩٠٠ م. وحفظ القرآن الكريم بمكتب الشيخ عطية سلامة، وأتمه ولم يتجاوز التاسعة من عمره، ثم أرسله والده إلى المسجد الأحمدى بطنطا، وتلقى القرآن بقراءة الإمام نافع المدنى، من فم عالم القراءات الشيخ السعودى . وقد أوتى الشيخ عامر فى صباه حظا من حسن الصوت أهله لأن يكون قارئا مرموقا بمحافظة الشرقية، يقرأ فى الليالى والمناسبات، وهو طريق جالب للرزق الواسع والشهرة المستفيضة، ولكنه عزف عن ذلك وولى وجهه شطر القاهرة، حيث الأزهر الشريف، وأئمة القراءة والإقراء.

وفى القاهرة أخذ فى القراءة والتلقى والمشافهة والعرض والسماع، فتلقى القراءات العشر الصغرى من طريق الشاطبية والدرة، على الشيخ محمد غنيم، وهو على الشيخ حسن الجريسى الكبير، وهو على العلامة المقرئ أحمد الدرى التهامى، وسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، معروف.

ثم تلقى القراءات العشر الكبرى على الشيخ على عبد الرحمن سبيع، من أول القرآن إلى قوله تعالى فى سورة هود (وقال اركبوا فيها) ثم إن الشيخ عليا أرسل خلف الشيخ عامر يقول له: سوف نبدأ بعد ثلاث أيام. فقال له الشيخ عامر: كيف سنبدأ بعد ثلاثة أيام يا سيدى ونحن قد وصلنا إلى قوله تعالى: (وقال اركبوا فيها)؟ فقال له الشيخ على: بعدين ح تعرف ثم توفى الشيخ بعد ثلاثة أيام من هذا الكلام وكان شيخنا الشيخ عامر إذا ذكر هذه القصة اغرورقت عيناه بالدموع، ويقول: «فكان معنى كلام الشيخ على أن أيام الآخرة بالنسبة له ستبدأ بعد ثلاثة أيام» . وتوفى الشيخ على سبيع هذا سنة ١٩٢٧م.

ثم إن الشيخ عامر شرع فى ختمة جديدة على تلميذ الشيخ على سبيع، وهو الشيخ همام قطب، فقرأ عليه ختمة كاملة بالقراءات العشر الكبرى، من طريق الطيّبة بالتحرير والإتقان. وقرأ الشيخ همام على الشيخ على سبيع المذكور، وهو على الشيخ حسن الجريسى الكبير، هو على الشيخ محمد المتولى، وهو على الشيخ أحمد الدرى التهامى، وسنده معروف.

حلقة للإقراء بالأزهر

وهكذا عرف شيخنا الطريق ولزمه وبعد أن رسخت قدمه فى هذا العلم، رواية ودراية، اتخذ لنفسه حلقة بالجامع الأزهر سنة ١٩٣٥ للإقراء والتدريس، وكان فى أثناء ذلك مكبا على مخطوطات القراءات بالمكتبة الأزهرية ودار الكتب المصرية، يقرأ وينسخ، فظهر نبوغه ولفت

إليه الأنظار ، فاتصل به الشيخ على محمد الضباع، شيخ المقارئ المصرية يومئذ، واستعان به فى تحقيقات القراءات العشر الكبرى.

وكان رحمه الله حجة في رسم المصحف الشريف، وقد شارك فى تصحيح ومراجعة كثير من المصاحف التى طبعت بمطابع الحلبى والشمرلى، والمطبعة الملكية فى عهد الملك فؤاد والملك فاروق رحمهما الله.

وحين أنشئ معهد القراءات تابعا لكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف، سنة ١٩٤٣ م كان الشيخ على رأس مشايخه وأساتذته، فتخرجت على يديه هذه الأجيال الكريمة من خدمة كتاب الله والعارفين بعلومه وقراءاته بمصر وخارج مصر.

ولما أنشأت مصر - غير مسبوقة - إذاعة القرآن الكريم سنة ١٩٦٣ وقدمت من خلالها (المصحف المرتل) أشرف الشيخ على التسجيلات الأولى من هذا المشروع العظيم، وكانت بأصوات المشايخ: محمود خليل الحصرى، ومصطفى إسماعيل ، ومحمد صديق المنشاوى، وعبد الباسط عبد الصمد، ومحمود على البنا، رحمهم الله أجمعين.

وعلى ذكر الإذاعة فقد كان شيخنا عضوًا بارزا فى لجنة اختيار القراء، وكان سيفا بتارا ، حازما صارما فى غربلة الأصوات وإجادتها، ولم يكن يقبل الميوعة أو تجاوز الأصول فى القراءة والأداء، وطالما اشتكى منه القراء، ورموه بالتعسف والتشدد ، وضغطوا عليه بوسائل شتى ، لكنه لم يلن ولم يضعف، كذلك كان يفعل فى لجنة اختيار القراء

الذين ترسلهم وزارة الأوقاف المصرية إلى البلدان العربية والإسلامية فى شهر رمضان. وقد حورب كثيرا فى لجنة اختيار القراء بالإذاعة المصرية، وطلب إقصاؤه أكثر من مرة، وكان الذى يقف وراءه مدافعا ومنافحا: الشاعر الفحل محمود حسن إسماعيل، إذ كان مستشارا ثقافيا بالإذاعة المصرية، رحمهما الله تعالى.

مؤلفات الشيخ

شغل الشيخ رحمه الله بالإقراء أيامه كلها، فلم يجد وقتا متسعا للتصنيف ولكن الله سبحانه يسر له أن يترك بعض الآثار العلمية فى فن القراءات، حتى تكون باعثا لمن يطالعها أن يدعو له بالمغفرة والرضوان. فمما يحضرنى الآن هذه التصانيف الآتية، ولست أدعى فيها الحصر: ١ - فتح القدير شرح تنقيح التحرير (فى تحرير أوجه القراءات العشر من طريق الطيّبة) ٢- شرح على منظومة العلامة الشيخ إبراهيم على شحاته السمنودى ، أبقاه الله ، فى تحرير طريق ابن كثير وشعبه. فرغ منه يوم الجمعة ٢٥ من صفر سنة ١٣٨٢ هـ . ٣- تنقيح فتح الكريم فى تحرير أوجه القرآن العظيم، بالاشتراك مع الشيخ إبراهيم على شحاته والشيخ أحمد عبد العزيز الزيات. وهو نظم منقح من منظومة فتح الكريم فى تحرير أوجه القرآن العظيم، للعلامة شيخ القراء فى وقته الشيخ محمد بن أحمد المتولى، المذكور قبل. ٤- كيف يتلى القرآن، وهى رسالة موجزة محررة فى تجويد القرآن، سماها : إملاء ما مَنَّ به الرحمن على عبده عامر بن السيد عثمان فى أحكام تلاوة القرآن. وقد أملاها على

أحد تلاميذه الذين يحضرون مقارئه، وهو الطبيب الجراح الدكتور حسنى حجازى، رحمه الله . وقد صدرت الطبعة الثانية من هذه الرسالة سنة ١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠ م ٥ - تحقيق الجزء الأول من كتاب «لطائف الإشارات» الذى ذكرته من قبل. صدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة عام ١٣٩٢، ولعل المجلس ينشط فى طبع بقيته، ٦ - أعان الأستاذ الدكتور شوقى ضيف فى تحقيق كتاب «السبعة» لابن مجاهد، الذى نشرته دار المعارف بمصر أول مرة سنة ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢م . وذلك بمراجعة كتابة آياته الكريمة على هجاء المصاحف المصرية المضبوطة، على ما يوافق رواية حفص عن عاصم، والمطابقة لما رواه علماء الرسم عن هجاء المصاحف التى بعث بها عثمان رضى الله عنه إلى الأمصار الإسلامية. ٧ - وكانت آخر أعمال الشيخ مشاركته فى لجنة طبع مصحف الملك فهد بن عبد العزيز، الذى صدر بالمدينة النبوية عام ١٤٠٥هـ.

فهذا ما يحضرنى الآن مما تركه الشيخ من علم مسطور مكتوب. أما أبقى أثر للشيخ وأخلده وأرجحه فى موازينه إن شاء الله تعالى ، فهو تلك المقارئ التى جلس فيها جلوسا عاما للناس، وقد شغلت هذه المقارئ أيامه كلها، وأشهر هذه المقارئ مقرأة الإمام الشافعى يوم الجمعة، وقد أسندت إليه مشيختها عام ١٩٤٧م وكان عدد الذين يحضرونها من القراء الرسميين أو المعتمدين من وزارة الأوقاف المصرية محدودا جدا بجانب مختلف طوائف الناس التى كانت تحضر تلك

المقرأة وغيرها من المقارئ ، فكنت ترى الطبيب والمهندس والضابط والمحامى والموظف والتاجر والحرفى، والفتى الصغير والشاب اليافع، والشيخ الفانى، مختلف الأعمار والمهن، ويتحلقون حول الشيخ : يقرءون ويصحح ، عيونهم مشدودة إلى شفتيه، وهو يروضهم على النطق الصحيح ، يصبر على الضعيف حتى يقوى، ويرفق بالمتعثر حتى يستقيم، لا يسأم ولا يمل ، ولازلت أذكره - رحمه الله - وهو يروض بعض إخواننا على ترقيق اللام من قوله تعالى : (رب إنهن أضللن) وكان عسرا على هذا الأخ أن يرقق اللام بعد الضاد، فكان شيخنا يقرأ أمامه (أضللن) على مقطعين هكذا: (أض) (للن) ويكرر المقطعين متفردين ثم يقرأهما معا حتى يخلص له الترقيق المراد . وكذلك لازلت أذكره وهو يروضنا على الخروج من التفخيم إلى الترقيق وبالعكس، فى قوله تعالى: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فأنت هنا تفخم الراء وإن كان قبلها كسر؛ لأنه كسر عارض للتخلص من التقاء الساكنين، ثم ترقق التاء وتعود إلى تفخيم الضاد. وهكذا كنت تقضى العجب وأنت تنظر إلى حركة فكيه وشفتيه وجريان لسانه فى إعطاء كل حرف حقه ومستحقه: من الهمس والجهر والغنة والإظهار والإخفاء والإقلاب والفك والإدغام، وغير ذلك من دقائق الصوتيات، مما لا تستطيع معامل الأصوات أن تنقله بدقة إلى الطالب لأن هذا العلم - علم الأداء - قائم على التلقى والمشافهة . ولو كان لى من الأمر شئ لأتيت بشيخ من علماء القراءات فى كل قسم من اقسام اللغة العربية بجامعاتنا ليعمل على تدريب الطلبة على الأداء الصحيح والنطق السليم ، بجانب معامل

الأصوات الحديثة. وهؤلاء المشايخ (الغلابة) لن يأخذوا من الأجر أكثر مما تستهلكه هذه المعامل من طاقة وكهرباء، بل إنى أذهب إلى أبعد من هذا فى التمنى: وهو أن يعين شيخ من هؤلاء القراء مشرفا خارجيا مع المشرف الأكاديمى لكل رسالة علمية (ماجستير أو دكتوراه) تتصل بعلم القراءات من قريب أو بعيد.

ومن تفنن شيخنا فى مجال الأداء الصوتى: أنه كان يأخذنا إلى تفرقة دقيقة لطيفة ، فى الوقف على الراء من قوله تعالى: (فكيف كان عذابى ونذر) وقوله عز وجل: (كذبت ثمود بالنذر) فالراء فى الآية الأولى يستحسن أن يوقف عليها بترقيق لطيف يشعر بالياء المحذوفة؛ لأن أصلها (ونذرى) وبإثبات ياء الإضافة، وقرأ بها ورش بن سعيد المصرى، عن نافع المدنى. ومن القراء المعاصرين الذين سمعتهم يراعون ذلك الترقيق اللطيف المشايخ: محمود خليل الحصرى، ومحمود حسين منصور ، ومحمود صديق المنشاوى.

أما الراء فى الآية الثانية فيوقف عليها بالتفخيم الخالص؛ لأنها جمع نذير .

وأما «النبر» فى مصطلح علم اللغة الحديث - وهو النظام المقطعى فى قراءة الكلمة، فقد كان الشيخ رحمه الله آية فيه، وقد سألته عنه يوما، فقال لى «إن القراء لم يذكروا هذا المصطلح، ولكنه بهذه الصفة يمكن أن يسمى «التخليص» أى تخليص مقطع من مقطع». وها أنا ذا أضع هذا المصطلح أمام علماء اللغة المحدثين ليروا فيه رأيهم ، ولعلهم

يحلونه محل «النبر» وقد سمعت لهذا «التخليص» من الشيخ أمثلة كثيرة جدا، أذكر منها قوله تعالى : (فسقى لهما ثم تولى إلى الظل) وقوله تعالى: (فقست قلوبهم)، وقوله عز وجل : (وساء لهم يوم القيامة حملا) فأنت لو ضغط على الفاء فى الآية الأولى صارت من الفسق لا من السقى، وإن لم تضغط على الفاء فى الآية الثانية صارت من الفقس لا من القسوة: أما فى الآية الثالثة فلابد أن تخلص (ساء) من (لهم) حتى يكون من السوء لا من المساطة، ولو خطفتها خطفة واحدة . هكذا كان يعلمنا الشيخ، إلى أمثلة كثيرة لا أحصيها عددا لكنى أذكر أن أحدهم قرأ مرة أمام الشيخ (فلهم أجر غير ممنون) وخطف (فلهم) خطفة واحدة ضاغطا على الفاء، بحيث صارت الكلمة كأنها فعل ماض مسند إلى ضمير الجماعة، مثل: ضربهم . فقال له الشيخ : (مَفَلَهُمْش) يريد رحمه الله أن يقول إنه ليس فعلا واقعا عليهم، وأن هذه البنية من مقطعين (ف) (لهم). وكان الشيخ صاحب دعابة. فكان إذا قرأ أحدهم على غير الجادة يقول له مستفهما مستنكرا: إنت جوِّدت القرآن فى ألمانيا؟ وقرأ بعضهم أمامه برواية خلف عن حمزة، ولم يكن متقنا للرواية، فقال له: «قوم يا شيخ دانا كنت باحسبك خلف الحبايب» وقرأ آخر أمامه وتحنن فى صوته تحننا ظاهرا فى تكسر ، فقال له الشيخ: «مفيش فايدة» يريد أنه يقلد صوت «فايدة كامل» فقد كان فى صوته تلك السمات التى عرفت بها هذه المغنية قبل أن تشتغل بالسياسة.

وكان للشيخ حس دقيق جدا فى تقييم الأصوات والحكم عليها، وقد لا يعرف كثير من الناس أن الشيخ رحمه الله درس علم الموسيقى بمعهد فؤاد الأول للموسيقى العربية أول إنشائه.

وكما كانت معرفة الشيخ بمخارج الحروف وصفاتها عظيمة، كانت عنايته بالوقوف: تامها وحسنها وكافيها، عالية جدا، وكان يأخذ على بعض كبار القراء تهاونهم فى تعهد الوقوف ومراعاتها، وكان يصارحهم بذلك فيغضبون.

وكان شيخنا رحمه الله يتشدد فى الوقف على رءوس الآى: لأنها سنة ولو تعلقت الآية بما بعدها. فإذا كانت الآية التالية مقول قول فى الآية الأولى، وكان البدء بمقول القول هذا مما يوهم أن يكون إقرارا من القارئ وليس من المحكى عنه، وقف على رأس الآية الأولى اتباعا للسنة، ثم يستأنف الآية الثانية تاليا الفعل السابق فى الآية الأولى. مثال ذلك قوله تعالى فى سورة الصافات : (ألا إنهم من إفكهم ليقولون (١٥١) ولد الله وإنهم لكاذبون (١٥٢) يتلوها هكذا: «ألا إنهم من إفكهم ليقولون. ليقولون ولد الله إنهم لكاذبون» وما أكثر ما علمنا هذا الإمام الكبير!

ومع حرص الشيخ على كمال الأداء وحسن التجويد، فقد كان يعيب على بعض القراء المبالغة في ذلك ويراه لونا من التنطع والشقشقة. وللفائدة هنا فإنى أذكر بأن مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ قد أخذ على قراء زمانه مبالغتهم فى التجويد والتقعر فى إخراج الحروف، وذلك فى رسالة له لطيفة مطبوعة، سماها «بيان دَغَل العلم» وهى رسالة نافعة، عرض فيها الذهبى لأخطاء أهل العلم.

نور القرآن

وقد أضاء شيخنا القاهرة كلها بنور القرآن. فلم تكن مقرأة الإمام الشافعي هي المكان الوحيد الذى يجلس فيه للإقراء . فقد كان يبدأ يومه عقب صلاة الفجر بالإقراء بمسجد السيدة زينب، حيث يسكن الشيخ قريبا من المسجد الزينبى. وهناك مقارئ أخرى يحضرها الشيخ منها مقرأة بمسجد النقشبندى بجوار مستشفى أحمد ماهر بالقرب من باب الخلق، وكان موعدها يوم السبت ، ومقرأة الجمعية التعاونية للبترول بشارع قصر العينى ، يومى الاثنين والثلاثاء، ومقرأة يوم الأربعاء بمسجد بمنزل الحناوى بجاردن سيتى. وقد تفرع من هذه المقارئ مقارئ أخرى، منها مقرأة الدكتور صادق بمنطقة الحلمية، بالقرب من القلعة. وهذا الدكتور صادق طبيب أطفال، وقد تلقى عن الشيخ القراءات السبع. وفي صوت هذا القارئ الطبيب صفاء وخشوع يأخذان بمجامع القلوب. ومقرأة بمسجد يوسف الصديق بميدان الحجاز بمصر الجديدة، يقوم عليها القارئ الطبيب الدكتور عوض الأستاذ بكلية طب الأزهر ومقرأة بمسجد مصطفى محمود بالمهندسين، يقوم عليها الحاج حسين، وهو صاحب معرض ملابس، وقد لازم الشيخ كثيرا بزاوية النقشبندى. وتلامذة الشيخ كثيرون، أذكر منهم الأديب الأستاذ عبد العزيز العنانى، وهو مؤرخ للموسيقى العربية، لا تجد له فى بابه نظيرا، ألبسه الله ثوب الصحة والعافية. ومن الوزراء الذين قرأوا على الشيخ ولازموه ونوروا به مجالسهم: السادة عبد المحسن أبو النور، وتوفيق عبد الفتاح، وعبد

الرحمن الشاذلى، وإبراهيم سالم. ويأتى على رأس هؤلاء جميعا الرجل التقى النقى - ولا نزكى على الله أحدا - الدكتور إبراهيم بدران. وكان من أبر الناس بشيخنا ، وقد حمله وأعد له مكانا رحبا بالمستشفى الذى يملكه بالمهندسين، وأقام عليه من يخدمه ويتولى أمره، وخصص له سيارة تحمله إلى حيث يشاء، وذلك بعد وفاة زوجته رحمهما الله جميعا.

وقد أفاد من علم الشيخ نساء كثيرات، منهن السيدة سميحة أيوب، وإذا تأملت أداءها فى النصوص المسرحية الفصيحة رأيت أمارات ذلك. ومنهن السيدة مفيدة عبد الرحمن، المحامية الشهيرة ، ولهذه السيدة الفاضلة بالقرآن وخدمته نسب وثيق، فأبوها هو : عبد الرحمن محمد، صاحب المطبعة الكائنة بحى الصنادقية بالأزهر الشريف. وقد تخصصت هذه المطبعة فى طبع المصحف الشريف منذ زمن بعيد.

تلاميذ للشيخ في كل مكان

على أن لشيخنا الشيخ عامر أثرا آخر مباركا، غير التصنيف والإقراء: هو هذا العون الظاهر الذى قدمه لهذا النفر من الجامعيين الذين اتخذوا من علم القراءات ميدانا لدراساتهم الصوتية والتاريخية، يحضرنى منهم الأساتذة: عبد الفتاح إسماعيل شلبى، وأحمد علم الدين الجندى، وعبد الصبور شاهين، إلى كثير من المعيدين والمبتدئين الذين كانوا يختلفون إليه لتجلية غامض، أو كشف مبهم من هذا العلم الذى هو علم العربية بحق.

وعلى الجملة فتلاميذ الشيخ والمنتفعون بعلمه لا يحصون، داخل مصر وخارجها وكنت أرى كثيرا من أبناء الدول العربية والإسلامية، بل من المستشرقين، يأتون إليه ، ويجلسون فى حلقته، وياليتنى أحصيتهم عددا، وقيدت أسماءهم وأسماء بلدانهم وأعمارهم، إحياء لسنن قديمة فى تراثنا التاريخى، من ذكر الواردين على البلاد ، والمرتحلين إلى الشيوخ.

وفى سنواته الأخيرة اختار شيخنا المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام - مستقرا ومقاما، حيث دعى إلى هناك لمراجعة مصحف الملك فهد، وللتدريس بكلية القرآن بالجامعة الإسلامية.

وفى مساء يوم الخميس ، وقبيل فجر يوم الجمعة الخامس من شوال سنة ١٤٠٨ هـ الموافق للعشرين من مايو سنة ١٩٨٨ م، اختار الله إلى جواره عبده وخادم كتابه عامر السيد عثمان ، وصلى عليه بالمسجد النبوى الشريف عقب صلاة الجمعة، ودفن بالبقيع، مرحوما مرضيا عنه إن شاء الله.

اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأجعل كل ما قدمه من خدمة كتابك فى موازينه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وهيئ لهذه الأمة من يخلف هؤلاء الرجال العظام، ويقوم مقامهم، حياطة لدينك، وحفظا لكتابك . إنك على ما تشاء قدير.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصيدة نادرة
فى المديح النبوى

جاء محمد بن عبد الله ﷺ على فترة من الرسل، فانتهت به الرسالات، وختمت به النبوات، وقد بعث إلى الناس كافة، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط ربه المستقيم.

وقد قضى ﷺ ثلاثا وعشرين سنة، بين مبعثه ووفاته يدعو الناس إلى التوحيد ، يبلغهم قرآن ربه الذى يشتمل على صلاح أمورهم فى دنياهم وآخرتهم. وكانت سنته الشريفة، أفعالا وأقوالا وتقريرا هى المصدر الثانى للتشريع، وهى الحكمة فى قوله تعالى: (ويعلمكم الكتاب والحكمة) البقرة ١٥١ ، وقوله : (واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به) (البقرة ٢٣١) وقوله : (وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم) النساء ١١٣.

ثم كانت سيرته العطرة مجلى قوله تعالى: (وإنك لعلى خلق عظيم) (القلم ٤)، وتصديق قول عائشة رضى الله عنها: «كان خلقه القرآن» والله أعلم حيث يجعل رسالته، فقد اصطفاه من بين خلقه اصطفاء وقرأ بعض القراء: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) التوبة ١٢٨ ، بفتح الفاء ، على معنى من خياركم من قولهم: هذا أنفس المتاع ، أى أجوده وخياره

– ثم هداه إلى الطيب من القول ، المرضى من السلوك، وعصمه من كل شبهة، وارتفع به عن كل نقيصة وبرأه من كل عيب وحفه بالضياء وغشاه بالنور فكان الإعجاب به والثناء عليه مما تقتضيه الفطر السوية والطباع النقية ، إذ كان ﷺ صورة للكمال الإنسانى.

هذا وقد كان الشعر أسبق من النثر فى مديحه ﷺ والثناء عليه «فلئن كان النثر قد مد أسبابه فى الحديث عنه عليه السلام، فيما عرف بكتب السيرة النبوية والشمائل والخصائص ، فإن ذلك لم يكن إلا بعد وفاته عليه السلام ، بل وانقضاء عصر الراشدين، وذلك فى نهاية القرن الأول ، وأوائل القرن الثانى. أما الشعر فقد صحبه ﷺ منذ صدع بأمر ربه. ولقى من إعراض كفار قريش وأذاهم ما لقى ، ولعل عمه أبا طالب هو أول من فتح هذا الباب العظيم: باب المدائح النبوية، وإن كانوا قد طعنوا فى كثير مما قال فإنهم قد سلموا له بقصيدته اللامية الطويلة. يقول محمد بن سلام الجمحى: وكان أبو طالب شاعرا جيد الكلام أبرع ما قال (قصيدته) التى مدح فيها النبى ﷺ :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

وقد زيد فيها وطُوّلت ورأيت فى كتاب يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة: وقد علمت أن قد زاد الناس فيها ولا أدرى أين منتهاها . وسألنى الأصمعى عنها فقلت: صحيحة جيدة ! قال : أتدرى أين منتهاها؟ .

قلت: «لا» . طبقات فحول الشعراء ص ٢٤٤.

ومن أقدم ما قيل فى مديحه عليه السلام أيضا قصيدة الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، التى مطلعها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا   وعـادك ما عاد السليم المسهَّدا

وفيها يقول:

نبى يرى ما لا تـرون وذكره   أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

له صدقـات ما تغب ونـائل   وليس عطاء اليوم مانعه غدا

وللنقاد ومؤرخى الشعر فى هذه القصيدة مقال .

ثم كان شعراء الصحابة المشاهير: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة . وقد اختلط مديحهم له عليه السلام بالحديث عن الدين الجديد ومناوأة المشركين، ولم يكن هؤلاء الثلاثة وحدهم على الساحة، فقد ذكر الحافظ ابن سيد الناس اليعمرى المتوفى (٧٣٢) نحوا من مائة وتسعين صحابيا وصحابية عطروا ألسنتهم بمدحه ﷺ، وجمع ذلك فى كتاب سماه (مِنَح المدح) وهو مطبوع متداول.

وينقضى عصر الصحابة ، ويداول الله الأيام بين الناس، فتذهب أيام وتأتى أيام، وتُثَل عروش وتقوم عروش، ويتقلب الناس بين قديم وجديد وطارف وتليد، ولازال ذكره الشريف يؤنس الغريب، ويطب الجريح، ويرد الضال ويهدى الحائر، فلم ينقطع هذا المدد النبوى الكريم على ألسنة الشعراء وقالة القصيد؛ شعرا منغوما، قد تتفاوت قيمه الفنية والتصويرية، لكنه فى جميع أشكاله وضروبه يسرى فيه هذا النفس

المحمدى العظيم، طب القلوب ودواؤها، وعافية الأبدان وشفاؤها، ونور الأبصار وضياؤها.

وقد نَهَد إلى جمع شعر المدائح النبوية فى مختلف العصور: الأديب العالم الجامع يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهانى الفلسطينى المولد، المتخرج فى الأزهر الشريف، رئيس محكمة الحقوق فى بيروت، المتوفى سنة (١٣٥٠ هـ = ١٩٣٢م) وقد سمى عمله هذا (المجموعة النبهانية فى المدائح النبوية) وهو عمل ضخم اشتمل على (٢٥٠٦٦) بيتا، وطبع فى أربعة مجلدات كبار.

ومن أنفس ما قرأت فى هذا الفن: ما أخرجه الأستاذ العالم الدكتور محمود على مكى، بعنوان (المدائح النبوية) وقد صدر عام ١٩٩١ عن الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، وجهات الحسن فى هذا الكتاب كثيرة ، فهو على وجازته قد عرض لتاريخ المدائح النبوية فى فصول أربعة: الفصل الأول للرسول فى شعر معاصريه، وهو ما يعرف بشعر الصحابة، الذى جمعه من قبل الحافظ ابن سيد الناس ، على ما ذكرت. والفصل الثانى: المدائح النبوية فى شعر الشيعة. والفصل الثالث : المولد النبوى والمولديات. ثم جاء الفصل الرابع عن المدائح النبوية فى العصر الحديث.

قصيدة العباس بن عبد المطلب

والعباس عم رسول الله ﷺ، وقصيدته هذه خالصة فى مديحه عليه السلام، وهى بذلك تباين ما قاله الشعراء الصحابة، إذ كان هؤلاء قد

خلطوا مديحهم له عليه السلام بالدعوة إلى الدين الجديد، والرد على المشركين والافتخار عليهم بوقائعهم معهم وانتصاراتهم عليهم ، كما ذكرت من قبل.

وقد سكت الدكتور محمود على مكى عن هذه القصيدة ، فلم يوردها مع ما أورد من شعراء الصحابة - مع يقينى بأنه لا يخفى عليه مكانها - وكذلك يغفلها كثير ممن يكتبون عن شعر المدائح النبوية، فلم تحظ بما حظيت به قصائد حسان وكعب وابن رواحة: مع أنها قصيدة مروية مذكورة الإسناد ، مع فخامتها الشعرية وشدة شبهها بالشعر الجاهلى بل قل إنها صورة من الشعر الجاهلى فى جلاله وبهائه.

وإليك أيها القارئ الكريم نص القصيدة متبوعة بتوثيقها وشرحها وتحليلها: حدث أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، عن أبيه ، عن يزيد بن عمرو الغنوى، عن زكريا بن يحيى الكوفى، قال : حدثنا عم أبى زَحْر بن حصْن ، عن جده حُمَيد بن مُنْهِب، قال: سمعت جدى خُرَيم بن أوس بن حارثة، يقول : هاجرت إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة منصرفة من تبوك فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول: يا رسول الله إنى أريد أن أمتدحك ، فقال: قل ، لا يفضض الله فاك . فقال العباس:

مِن قبلها طِبْت فى الظلال وفى ... مستودع حيث يُخْصَف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر ... أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ... ألجم نسرا وأهله الغرق
تنقل من صالب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق

حتى احتـــوى بيتك المهيمن من خنـــدف علياء تحتـــها النطق
وأنت لمـــا ولـــدت أشـــرقت ال أرض وضـــاء ت بنـــورك الأفق
فنحن فى ذلك الضياء وفى النور وسبل الرشاد نخترق

غريب الحديث لابن قتيبة ٣٥٩/١.

فهذه أقدم رواية لقصيدة العباس بن عبد المطلب، إذ كان ابن قتيبة توفى سنة (٢٧٦).

وتلى هذه الرواية زمنا رواية أبى القاسم الزجاجى المتوفى (٣٤٠)، قال : حدثنا إبراهيم الصائغ ، قال: حدثنى عبد الله بن مسلم بن قتيبة.... ثم بقية السند السابق . اشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجى ص ٢٣٠.

وثالث الروايات: رواية الحافظ أبى الحسن الدارقطنى المتوفى (٣٨٥)، قال حدثنا عبدان بن أحمد وأحمد بن عمرو البزار، وحدثنا محمد بن موسى بن حماد البربرى، قالوا: حدثنا أبو السُّكَين زكريا بن يحيى .... ثم بقية سند ابن قتيبة. المعجم الكبير ٢٥٢/٤.

ورابعها : رواية أبى عبد الله الحاكم النيسابورى المتوفى (٤٠٥) قال فى كتابه المستدرك على الصحيحين ٣٢٦/٣، ٣٢٧: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أبو البخترى عبد الله بن محمد بن شاكر، حدثنا زكريا بن يحيى.. إلى آخر السند. وقال الحاكم: «هذا حديث تفرد به رواته الأعراب، عن أبائهم ، وأمثالهم من الرواة لا يضعون»، وجاء فى

رواية الذهبى عن الحاكم، فى سير أعلام النبلاء ١٠٢/٢: «ومثلهم لا يُضَعَّفُون» والتعقيب فى كلتا الروايتين ذو دلالة، فهو يريد أن يؤكد الثقة بالحديث، إذ كان رواته من الأعراب ، يعنى الذين يجرون فى أحاديثهم ورواياتهم على الصدق، فطرة وسيلقة، وليسوا من المحدثين أصحاب الصنعة الذين تدور أحوالهم بين الجرح والتعديل.

ونأتى إلى أخر رواية من روايات الحفاظ، وهى رواية الحافظ أبى بكر الخطيب البغدادى المتوفى (٤٦٣) فقد رواه فى كتابه الأسماء المبهمة فى الأنباء المحكمة ص ٤٤٩ – عن أبى طالب يحيى بن على بن الطيب العجلى الدَّسْكَرى، عن أبى أحمد محمد بن أحمد بن الغطريف ابن القاسم العبدى، عن يحيى بن محمد بن صاعد، عن زكريا بن يحيى.. إلى آخر السند.

ثم تدور القصيدة بعد ذلك غير مسندة فى كتب العربية، فتراها فى : تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٨٨ ، والزاهر فى معانى كلمات الناس لابن الأنبارى ٢٧٥/١ ، والاستيعاب لابن عبد البر ص ٤٤٧، والفائق فى غريب الحديث للزمخشرى ١٢٣/٣، وشروح سقط الزند لأبى العلاء ص ٣٥٢، وشرح أدب الكاتب للجواليقى ص ٣٠٨، وأمالى ابن الشجرى ١١٤/٣، والشفا فى التعريف بحقوق المصطفى للقاضى عياض ص ٢١٨، والوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى ٣٥/١، وعارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى، لابن العربى ٩٦/١٣، ومنال الطالب فى شرح طوال الغرائب لمجد الدين بن الأثير ص ٤٤٠، وأسد

الغابة فى معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير ١٢٩/٢، والجوهرة فى نسب النبى وأصحابه العشرة للبرى ١٢/٢ والحماسة البصرية ٦١٠/١، وتفسير القرطبى ١٤٦/١٣ ، ومنح المدح لابن سيد الناس ص ١٩٢، وزاد المعاد فى هدى خير العباد، لابن قيم الجوزية ٥٥١/٣، والسيرة النبوية لابن كثير ٥١/٤، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لنور الدين الهيثمى ٢١٧/٨، والخصائص الكبرى للسيوطى ٩٧/١، وسبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للصالحى الشامى ٩٠/١ والمجموعة النبهانية فى المدائح النبوية ٥٦/١.

ثم يأتى من هذه القصيدة البيت والبيتان فى معاجم اللغة، ودواوين الأدب شواهد على غريب اللغة ووجوه المعانى، مُنزّلا ذلك على ترتيب المواد والمقاصد.

ويبقى أن أشير إلى أن أبياتا أربعة من هذه القصيدة نسبت إلى حسان بن ثابت - انظر ديوانه ص٤٩٨ - ولا تصح هذه النسبة ، وقد ردها الحافظ السيوطى فى كتابه اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ٢٦٤/١، ٢٦٥.

بحر القصيدة

جاءت هذه القصيدة على البحر المنسرح ، وتفعيلاته:

مستفعلن مفعولات مستعلن   مستفعلن مفعولات مستعلن

مع ما تطيقه هذه التفعيلات من زحافات وعلل.

ويرى بعض الدارسين المحدثين أن النظم على هذا البحر قليل، لأن فيه عنتا ومشقة، وقد قل النظم عليه، وكاد يهجر لاختلاف موسيقاه عن

جنس الموسيقى الشائعة الأوزان، ويرى بعضهم أن إيقاع هذا البحر خافت يكاد يكون كلاما منثورا، بل إن بعضهم تنبأ بأنه سينقرض من الشعر فى مستقبل الأيام!، وهذا كلام من لا يرتاح إلى هذا الوزن، وينفر منه بطبعه، فيجعل من ذوقه الخاص حكما عاما ، ثم هو كلام يرسل إرسالا، دون مراجعة أو إحصاء؛ فإن النظم على هذا البحر شائع فى الشعر الجاهلى، وفيما بعده إلى يوم الناس هذا، وإن لصديقنا الشاعر عبد اللطيف عبد الحليم (أبو همام) أُنْسَاً بهذا البحر وولعا وقد أنشأ ديوانا، أداره كله على هذا البحر، وسماه : (من مقام المنسرح) ثمولا يزال يتعاهده فى شعره بين الحين والحين.

ثم ذكر العلامة عبد الله الطيب المجذوب كلاما عاليا حول هذا البحر المنسرح فى كتابه *الفذ*: المرشد إلى فهم أشعار العرب ١/١٧٥ - ١٩١، وذكر أن هذا البحر فى الجاهلية قد شاع فى فنى الرثاء المراد به النوح، والنقائض، وأنشد قدرا صالحا من الشواهد ، ثم ذكر أن الخريمى الشاعر أنشأ قصيدة من هذا البحر، من مائة وخمسة وثلاثين بيتا يصف فيها الفتنة ببغداد أيام الأمين والمأمون، وأنشد فى كتابه بين النير والنور ص ١٦٩، هذا البيت:

وسرت النفس أمس ذات الفرا   شات التى ريم جيدها صنم

ثم قال : «هذا بحر المنسرح فاعرفه: بحر طروب إلى جارية وحشية وعروب» .

وأقول : حسبنا أن نذكر من هذا البحر رائعة المتنبى التى أولها - وهو مما قاله فى صباه:

أهلا بدار سباك أَغْيَدُها　　　أبعد ما بان عنك خُرَّدها

شرح القصيدة وتحليلها

تبدأ القصيدة فى روايتها المسندة، وفى سائر الكتب بهذا البيت:

من قبلها طبت فى الظلال وفى　　　مستودع حيث يخصف الورق

ولا ينبغى أن يظن أن هناك نقصا فإن الرواية مجمعة على هذا الاستفتاح، وهو استفتاح غريب حقا، وهو دال على حالة شعورية عجيبة، فكأن الشاعر طوى أشياء كثيرة فى صدره قفز منها إلى مقصوده الأعظمُ وشاغله الأقوى ، أو كأنه لا يحفل بما تعارف عليه الشعراء فى عصره من استفتاح القصائد، فكأنه لا يحب أن يرد طريقا مسلوكا . ولو وقع مثل هذا البدء فى شعر شاعر من القوم فى زماننا هذا لكان لنقادهم فيه ضجيج واحتفال.

وقوله : «من قبلها» أى من قبل الخليقة، أضمر لغير مذكور ، والعرب تفعل ذلك توسعا واختصارا وثقة بفهم السامع، وقد جاء منه فى القرآن والشعر ما لا يحصى كثرة ، كقوله تعالى : (كل من عليها فان) الرحمن ٢٦ ، قوله : (ما ترك على ظهرها من دابة) فاطر ٤٥ ، أضمر «الأرض» فى الآيتين وقوله (فلولا إذا بلغت الحلقوم) الواقعة ٨٣ ، وقوله : (كلا إذا بلغت التراقى) القيامة ٢٦، أضمر «النفس والروح» فى الآيتين . ومن ذلك إضمار «الخمر» فى قول ابن المعتز:

وندمان دعوت فهب نحوى　　　وسلسلها كما انخرط العقيق

وقوله : «طبت فى الظلال» أى فى ظلال الجنة، حين كان فى صلب آدم لما كان فى الجنة، وهو قوله: «فى مستودع» أى فى صلب آدم قبل أن يهبط إلى الأرض ، ومنه قوله تعالى : «فمستقر ومستودع» الأنعام ٩٨، أى مستقر فى الأرحام، ومستودع فى الأصلاب.

وقوله: «حيث يخصف الورق» يعنى حيث خصف آدم وحواء عليهما الورق حين بدت لهما سوءاتهما . والخصف : ضم الشئ إلى الشئ وإلصاقه به، ومنه قولهم: خصفت النعل: أى رقعتها.

ثـم هبطت البـلاد لا بشـر أنت ولا مضغـة ولا علق

يعنى هبوطه وهو نطفة فى صلب آدم، لم يصر علقا ولا مضغة.

بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نسرا وأهله الغرق

يعنى فى صلب نوح، كما جاء فى التنزيل : (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون) يس ٤١ . والسفين: جمع سفينة ، واستعمل الجمع فى موضع الواحد، كقولهم : شابت مفارقه، وإنما هو مفرق واحد.

وأراد بنسر : الصنم الذى كان قوم نوح يعبدونه . وإلجام العرق : كناية عن وصول الماء إلى أفواههم التى هى موضع اللجام.

تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق

الصالب: الصلب وهو الظهر ، قال تعالى : (يخرج من بين الصلب والترائب) الطارق ٧، والعالم ، بفتح اللام : قيل هو كل موجود سوى

الله تعالى ، وقيل : هم كل ذى روح ، وقيل : هم الإنس والجن. والمراد به ها هنا : الإنس خاصة ؛ لأن الذكر لهم والطبق ها هنا : القرن من الناس؛ لأنهم كالطبق للأرض يطبقون الأرض ثم ينقرضون، ويأتى للأرض طبق آخر. والمراد أنه ﷺ تنقل فى أصلاب كريمة، وتناسخته أرحام مطهرة، فأدته زاكى الحسب، نقى الأصول ، وعن ابن عباس فى قوله تعالى: (وتقلبك فى الساجدين) الشعراء ٢١٩، قال : «من نبى إلى نبى حتى أخرجك نبيا».

حتى احتوى بيتك المهيمن من   خندف علياء تحتها النطق

المراد بالبيت ها هنا: الشرف والنسب. والمهيمن: الشاهد ، وهو صفة هذا الشرف : أى حتى احتوى شرفك الشاهد على فضلك أفضل مكان وأعلاه وأرفعه من مجد خندف وسامى شرفها . وخندف : لقب ليلى، وهى امرأة إلياس بن مضر، وهو من أجداد النبى ﷺ. والنطق: جمع نطاق، وهو فى الأصل: من تشد به المرأة وسطها فوق الثياب، ومنه أسماء ذات النطاقين بنت أبى بكر رضى الله عنهما وضرب هذا مثلا فى ارتفاعه وتوسطه فى عشيرته وعزه، فجعله فى علياء ، وجعلهم تحته نطاقا له.

وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاء ت بنورك الأفق.

هكذا يبدأ الشاعر بيته بالضمير المنفصل «أنت» ومجئ مثل هذا الضمير فى مثل ذلك الموضع لا يأتى إلا فى فحولة شعر وجسارة شاعر

، فإذا عدم تلك الفحولة وفقد هذه الجسارة عاد غثا باردا ، وانظره فى قول عدى بن زيد العبادى ، فى إحدى غرره الأربع ، كما يقول ابن سلام:

أرواح مودّع أم بكور   أنت فانظر لأى حال تصير

وقد أدار النحويون على «أنت» في بيت عدى كلاما كثيرا، فابسط لهم العذر ولا تظن بهم إلا خيرا ؛ لأنهم أصحاب صنعة ونظام ، وقد إربكهم هذا الشاعر إرباكا عظيما بذلك الضمير فى هذا الموضع والشاعر الفحل مختال تيّاه، يتلعب بالكلام كما يشاء! .

على أن استعمال هذا الضمير «أنت» فى الشعر كثيرا ما يدل على التحنن والأنس والود بين المخاطب والمخاطب، وقد استعمله العباس فى قصيدته هذه ثلاث مرات.

وأشرقت الأرض : إذا أضاء ت وأنارت ويقال : شرقت الشمس: إذا طلعت، وأشرقت : إذا أضاء ت. ويقال : ضاء المكان وأضاء، وضاء ت النار وأضاء ت ، لغتان فاشيتان. قال الراجز:

قرب قَلُوصَيْك فقد ضاء القمر

والأفق : واحد الآفاق ، وهى أطراف السماء ونواحيها التى مع الأرض. والأفق مذكر، بدليل قوله تعالى: (ولقد رآه بالأفق المبين) التكوير ٢٣ . وقال:

«ضاء ت بنورك الأفق» فأنَّثَ فعله حملا على المعنى، لأنه أراد بالأفق الناحية وقيل : إنه استعمل الواحد فى موضع الجمع، كقوله تعالى : (ثم يخرجكم طفلا) غافر ٧٦، أى أطفالا، وقوله: (والملائكة بعد ذلك ظهير) التحريم ٤ ، أى ظهراء، وكقول الشاعر:

كلوا فى نصف بطنكم تصحوا فإن زمانكم زمن خَميص

أى بطونكم

فنحن فى ذلك الضياء وفى النور وسبل الرشاد نخترق

السبل : الطرق ، جمع سبيل. واختراقها: السير فيها.

ويبقى بيت من القصيدة جاء من زيادات بعض الكتب ، وقد جاء بعد البيت الرابع ، وبعضهم يجعله آخر القصيدة. وقد روى هذا البيت بروايات ثلاث: الرواية الأولى:

وردت نار الخليل مكتتما تجول فيها وليس تحترق

والرواية الثانية:

وردت نار الخليل مكتتما فى صلبه أنت ؛ كيف يحترق

والرواية الثالثة:

يا برد نار الخليل يا سببا لعصمة النار وهى تحترق

وأضعف الروايات الرواية الثالثة ، أما الاخريان فهما من أزكى الكلام وأشرفه، وأعلاهما عندى الرواية الثانية؛ لان فيها صريح الدلالة

على أنه ﷺ كان سببا لنجاة أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام؛ ولأن الشطر الثانى فسر «مكتتما» فى الأول فضلا عما فى البيت من إحكام الصنعة الشعرية وتوهجها ، وتأمل مرة أخرى «أنت» كيف جاء ت فى البيت كمنارة، مضيئة عالية ، ومجيئها بعد الجار والمجرور وقبل الاستفهام يحمل القارئ والسامع على أن يقف عندها هنيهة، يندى لسانه ويرهف سمعه تشريفا وإجلالا للممدوح ﷺ.

وبعد: فهذه قصيدة العباس بن عبد المطلب ، عم المصطفى ﷺ، فى مديحه وتعظيمه ، أرجو أن أكون قد وفقت فى تحقيقها وجلائها، ولفت الأنظار إليها.

وبأبى أنت وأمى يارسول الله.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الثالث

حسن البيان

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

البيان والطريق المهجور

من أجلّ نعم الله على عباده : نعمة البيان ، وقد أمتنّ الله على عباده بهذه النعمة ، فذكرها فى أشرف سياق ، فقال تقدست أسماؤه :

«الرحمن علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان» ولا ينبغى أن يكون المراد بالبيان هنا مجرد الكشف عما فى النفس لقضاء الحاجات واتصال مصالح العباد ، لأن الكشف عما فى النفس يؤديه الكلام وهيئة الحال والإشارة والعلامة ، وليس المراد أيضا بالبيان مطلق الكلام ، لأن هذا مما يستوى فيه الناس جميعا ، ولا يفضل بعضهم بعضا فيه إلاّ بما يكون من سلامة مخارج الحروف . واستواء النطق ، والبراءة من أسباب العىّ والحصر والحبسة .

لكن المراد بالبيان : الإحسان فى تأدية المعانى . يقول أبو الحسن الرمانى : «وليس يحسن أن يطلق اسم بيان على ما قبح من الكلام ، لأن الله قد مدح البيان واعتد به فى أياديه الجسام فقال «الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان» ولكن إذا قيد بما يدل على أنه يعنى به إفهام المراد جاز «النكت فى إعجاز القرآن ص ٩٨» .

وقد مدحوا البيان وعظموا شأنه ، فقالوا : البيان بصر والعىّ عمى كما أن العلم بصر والجهل عمى ، والبيان من نتاج العلم . والعى من نتاج الجهل ، وقال يونس بن حبيب : «ليس لعيى مروءة ، ولا لمنقوص

البيان بهاء. ولو حكَّ بيافوخه أعنان السماء» راجع البيان والتبيين للجاحظ ١/٧٧ ، ثم انظر مقالة .. الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى فضل البيان ، فى دلائل الإعجاز ص ٥ .

ووجوه الإحسان فى تأدية المعانى كثيرة ومنادحها واسعة ، ولا يكاد يظفر بها إلا من وهب لطافة الحس وخفة الروح ورحابة النفس، والارتياح والطرب لمظاهر إبداع الله عز وجل فى هذا الكون ، وما بثه فى ملكوت السماوات والأرض ، وما أجراه على ألسنة خلقه ، أما «أهل الكثافة» وهم الذين امتحنهم الله بثقل الظل وركود الهواء ، فما أبعدهم عن البيان والإحسان .

وهلك الفتى إلا يراح إلى الندى
وألا يرى شيئا عجبا فيعجبا

ثم أن هذه المواهب التى يمتن الله بها على من يشاء من عباده ، لابد لها لكى تؤتى ثمارها عند الأدباء وأرباب البيان ، من طول دربة ومعالجة يأتيان بكثرة النظر فى الأساليب العالية الشريفة ، من بديع الشعر وكريم النثر ، ثم معاشرة الأصفياء أصحاب الفطر السوية والطبائع النقية والفرار من مخالطة «أهل الكثافة» فإن مجالسة الثقلاء حمى الروح كما قال بختيشوع بن جبريل للخليفة المأمون «لطائف الظرفاء لأبى منصور الثعالبى ص ٧٠ .

★★★

ونحن أمة العرب أمة بيان وفصاحة ، ولغتنا معينة على ذلك بما أودع فيها من خصائص شعرية فى الحروف والأبنية والتراكيب ، ثم هذه الثروة الهائلة من الأسماء والأفعال ، والمترادف والمشترك والأضداد، ولغتنا معينة أيضا على البيان والفصاحة بهذه القوانين الرحبة الواسعة من الحقيقة والمجاز ، والسماحة فى تبادل وظائف الأبنية ، كالذى يقال من مجىء فعيل بمعنى فاعل وبمعنى مفعول وبمعنى مفعل ، وتبادل وظائف الأفراد والتثنية والجمع ووقوع بعضها موقع بعض ، والتساهل فى التعبير عن الأزمنة ، كالتعبير عن الماضى بالمستقبل ، وبالمستقبل عن الماضى ، إذا اقترن بالفعل ما يدل على زمانه ، ووقوع بعض حروف الجر مكان بعض ، وتذكير ما حقه التأنيث وتأنيث ما حقه التذكير ، والحمل على المعنى والحمل على اللفظ ، وحرية التعامل مع الضمائر ، غيبة وحضوراً فيما يعرف بالالتفات ، والتعويل على القرائن والسياق فى تخليص الكلام من كثير من الفضول والزوائد، وهو باب الحذف الذى يجعله ابن جنى من باب «شجاعة العربية»» وهو تعبير عجيب ، انظره فى كتابه الفذ الخصائص ٢/٣٦٠ ، إلى سائر قوانين اللغة وأعرافها . حتى علم النحو الذى يظن به العسر والتشدد ، لو تأملته حق التأمل لوجدت فيه كثيرا من الرخص والإباحة ، على ما قاله الأصمعى «من عرف كلام العرب لم يكد يلحن أحدا» .

ولقد تضوأت هذه اللغة العربية الشريفة على ألسنة الشعراء والخطباء ، شعرا شجى النغم ، ونثرا حلو الوقع ، فيما بقى لنا من أدب الجاهلية . ثم كان مجلى هذه اللغة العزيزة كلام ربنا عز وجل ، بما نزل

به جبريل الأمين على خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فى هذا البيان الذى لا يطاوله بيان ثم ألقى ربنا تباركت أسماؤه على لسان نبيه المصطفى بيانا عاليا آخر ، هو ما نطق به صلى الله عليه وسلم من جوامع الكلم : فصاحة صافية المورد ، وبلاغة عذبة المشرع ، ومنطقا صائب الحجة .

وقد جرت لغتنا العربية بما حملته من أدب الجاهلية ، وبيان الكتاب العزيز ، والحديث الشريف، على أقلام الكتاب وألسنة المتكلمين وقصائد الشعراء : بيانا يأخذ منه الناس بما قدر لهم من رزق الله المقسم على خلقه ، فتفاوتت حظوظهم فى ذلك فمنهم من أحسن ، ومنهم من قارب لكن البيان ظل هدفا يسعى إليه . وغاية يشتد الناس فى طلبها ، ومعياراً يلجأ إليه النقاد فى الحكم على الكلام وإعطاء الأدباء حقهم من التقديم والتأخير ، ولعل أول من أصّل هذا الفن هو أديب العربية الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، حين صنع كتابه الذى جعل عنوانه دالا بصريح اللفظ على الغاية التى تغياها منه ، وكان كتاب الجاحظ هذا مع كتاب معاصره والراوى عنه أبو محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة «عيون الأخبار» هما الأساس الأول فى إرساء قواعد هذا الفن «البيان» بذكر الأدوات الموصلة إليه والمعينة عليه ، من ذكر كلام العرب وخطبها وشعرها ومحاوراتها وأجوبتها المسكتة ، وتوالت الكتب فى هذا الطريق، ككتب الأمالى والمجالس والمختارات والحماسات، مع عناية ظاهرة باللغة والغريب تمثلت فى أمالى أبى على القالى ومجالس ابى العباس ثعلب .

ولم تكن كتب هذا اللون من التأليف قاصرة على الأدباء واللغويين فقط ، بل دخل فيها الحفاظ الفقهاء أيضا ، كالذى رأيناه من كتاب «بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس» لفقيه الأندلس الحافظ المحدث أبى عمر بن عبد البر القرطبى ، صاحب كتاب «التمهيد فى الموطأ من المعانى والأسانيد» وصاحب «الاستيعاب فى طبقات الأصحاب» ، وكتابه هذا «بهجة المجالس» من المجاميع الأدبية العظيمة ، ويقول فيه ابن سعيد بعد ما ذكر مصنفاته في الفقه والحديث والتراجم: «مع أنه فى الأدب فارس ، وكفاك دليلا على ذلك كتاب «بهجة المجالس» المغرب فى حلى المغرب ٢/٤٠٨ ، وهذا ابن عبد البر الفقيه المحدث هو الذى جمع ديوان أبى العتاهية ، وعن نسخته كانت نشرة الدكتور شكرى فيصل رحمه الله .

وهكذا كان الأدب مشرعا يرده الناس جميعا ، وغبرت أجيال ونشأت أجيال ، حتى جاء ابن خلدون فى القرن التاسع ليخبرنا أن كتب الأدب هى : أدب الكاتب لابن قتيبة ، والكامل للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والأمالى - أو النوادر - لأبى على القالى، ويريد ابن خلدون أن يقول : إن هذه الأصول هى مكونات الأديب .

البارودى والمرصفى

وطويت أيام ونشرت أيام حتى كان العصر الحديث ، وجاء رجال البعث والإحياء ، هؤلاء الذين ردوا الناس إلى أصولهم الأدبية ، وكشفوا عن تلك المناجم الفنية الضاربة فى التاريخ بعروقها ، فكان الشاعر

محمود سامى البارودى و«مختاراته» ، والشيخ حسين المرصفى و«الوسيلة الأدبية» والشيخ سيد بن على المرصفى و«رغبة الآمل من شرح كتاب «الكامل» وما قرأه على تلاميذه من «شرح حماسة أبى تمام» ، وبعدهما كان الشيخ حمزة فتح الله وكتابه الجيد «المواهب الفتحية» ، فكانت هذه الآثار كلها زادا ومددا للجيل التالى .

ولقد كان من حسن حظنا نحن أبناء هذا الجيل أننا فتحنا عيوننا وعقولنا فى أوائل الخمسينات ، ورأينا القاهرة قبل أن يدهمها السيل وتغشاها المحن والنوائب، وكان من صنع الله لنا أننا نعمنا بثمرات دار الكتب المصرية : قراءة فى قاعة المطالعة الشهيرة بها ، واستعارة باشتراك زهيد متاح لطلبة العلم ، وأخذنا نتضلع بالقراءة لتلاميذ مدرسة البعث والإحياء المذكورة ، وفيما يتصل بالبيان كان هناك اسمان كبيران : مصطفى صادق الرافعى ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وقد شق علينا الرافعى فى أول الأمر ، ووجدنا فى المنفلوطى واحة خصبة عامرة بالندى والازاهير ، فأى جنة فتحها لنا هذا المنفلوطى فى ذلك الزمان ؟ .

وكم دموع أراقها ، وكم قلوب خفقت على بيانه الحلو الآسر الذى انساب فى «العبرات» و«الشاعر اوسيرانودى برجراك» و«الفضيلة» ، «ماجدولين» . ولئن كنا قد فرغنا من المنفلوطى بعد حين ، فإن أثره الضخم الذى لا ينسى أنه حبب إلينا القراءة جملة ، فإن هذه الليالى التى قضيناها مع بيانه المعجب الاخاذ لم تضع سدى ، لأنها وثقت

صلاتنا بالأدب عامة وبالبيان خاصة ، ومن عجب أن المنفلوطى هو الذى ردنا إلى الرافعى ، وعند هذا الرافعى وجدنا دنيا أخرى حافلة بالغرائب والعجائب ، لكن صورة الرافعى لم تأخذ حجمها الحقيقى عندى إلا بعد أن اتصلت بتراث الآباء والاجداد فيما قرأت وفيما نسخت وفيما حققت ، وأيضا حين توثقت علاقتى بصاحبه ووارث أدبه وعلمه أبى فهر محمود محمد شاكر ، فعرفت أن هذا من ذاك ، وأنها ذرية بعضها من بعض ، وإن كنت أرى أن بيان أبى فهر لا يشبهه بيان ، وإن علمه لا يقرن به علم ، على ما فصلت فى كلمتى عن كتابه الماتع «المتنبى» فى الجزء الأول من «موسوعة عصر التنوير» التى أصدرها الهلال ، ولو كتب أبو فهر الآن – وهو فى هذه السن العالية – لزلزل الدنيا ، ولرأيت ثم نعيما وعلما كبيرا فهل تستجيب يا أبا فهر ؟ وهل أنت مخرج ما عندك من «حديث الأحرف السبعة» و«مدخل إعجاز القرآن» و«كتاب الشعر» شرح الله لك صدرك ، وامتع أهل الأدب ببقائك .

★★★

ولئن كانت مدرسة البيان قد عرفت يومئذ فى كتابات الرافعى والمنفلوطى والزيات ومحمد صادق عنبر ، فإن سائر الأدباء والكتاب لم يكونوا بعيدين عنها ، لأن حسن البيان وتجويد العبارة كانا لازمين لكل كاتب يريد لكتابته أن تقرأ ، ولكل مفكر يريد لأفكاره أن تذيع ، فلقد كان الأدب ولا يزال خير سبيل لإيصال المعرفة ، وسرعة انصبابها إلى السمع وتولجها فى القلب واستيلائها على النفس ، والبليغ يضع لسانه

حيث أراد ، وإنك لتجد كثيرا من الدراسات قد جمعت فأوعت لكنها لم تبلغ مبلغها من النفع والفائدة لجفافها وعسرها ، و«حسن البيان يرى الظلماء كالنور» على ما قال الشاعر .

ولقد كنا فى زمان الصبا نظن أن أسلوب «العقاد» معقد ، حتى كبرنا واستطعنا أن نميز الخبيث من الطيب ، فوقعنا عند «العقاد» على مناطق من البيان وحلاوة الأداء هى الغاية والمنتهى .

وكذلك سائر الكتاب والأعلام ممن لا يصنفون مع الأدباء كانوا أصحاب فصاحة وبيان ، فمكرم عبيد السياسى الشهير والمحامى الجهير كان أديبا وصاحب بيان ، ثم كان كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم ، وفتحى رضوان المحامى الضليع وأحد أقطاب الحزب الوطنى كان كاتبا صاحب بيان ، والدكتور أحمد عمار طبيب النساء الشهير كان لغويا صاحب بيان ، والدكتور محمد كامل حسين طبيب العظام الشهير كان أديبا صاحب بيان ، وهو صاحب القصة الشهيرة فى الخمسينات «قرية ظالمة» ، والدكتور محمد الصياد الجغرافى الكبير كان شاعرا صاحب بيان ، وسيد ابراهيم الخطاط العظيم كان شاعرا صاحب بيان ، وهو أحد مؤسسى جماعة أبولو ، والدكتور حسن حبشى عالم التاريخ شاعر وصاحب بيان ، والدكتور محمد يوسف حسن الجيولوجى الكبير ، وعميد كلية العلوم بجامعة الأزهر سابقا وعضو مجمع اللغة العربية الآن ، أديب يحفظ شعر أبى العلاء حفظا عاليا ، وله فى اللغة نظرات جياد نسعد بها فى لجنة المعجم الكبير بالمجمع .

ومن وراء هؤلاء طوائف لا تحصى من الأدباء المجيدين الاغفال أصحاب البيان ، كنت تقرأ لهم فى الصحيفة اليومية والمجلة الاسبوعية، ثم كنت تراهم فى فصول المدارس الابتدائية والثانوية يروضون صغار التلاميذ على البيان ، ويجمعون لهم «عناصر موضوع الانشاء» الذى صار الآن «التعبير» ولا تعبير هناك ولا عبارة ، ثم كانوا يخوضون بهم لجج بحار الشعر والنثر فيما كان يعرف بالمحفوظات والمطالعة .

حسن البيان

وقد ذهبت تلك الأيام بحلاوتها ونضارتها وصرنا إلى هذا الزمان الذى زهد الناس فيه فى حسن البيان ، وهجروا طريقه هجرا يوشك أن يكون تاما ، وأصبحت أساليب كثير من الكتاب ، ومن ينتسبون إلى الأدب الآن تدور فى فلك ألفاظ مستهلكة تشبه العملة المعدنية الممسوحة، أو العملة الورقية التى تهرأت أطرافها من كثرة ما تداولتها الأيدى ، أو كالعملة الزائفة التى ليس لها رصيد فى مصرف النفس ، وإنما هى ألفاظ وتراكيب تسود بها الصحف تروح وتجىء تتجاوزها عينك على عجل ، لا تقف عندها لأنك لا تجد فيها إمتاعا ، ولا تحس معها أنسا ، فضلا عما تجده فى بعضها من ثقل وغثاثة ، تكاد تطبق على القلب وتسد مجرى النفس - وما أمر «الزخم» منك ببعيد - إلى هذه البلية المستحدثة ، وهى بلية الغموض الذى يندفع فيه كثير من الأدباء الآن ، وليس هو الغموض الذى يحرك النفس لتستخرج بحسن التأمل خبىء

الكلام ومطوى المشاعر ، ولكنه الغموض المظلم الذى يكد العقل ، ويكون مجلبة للغم والكآبة ، غموض العجز والحيرة .

وهذه الألفاظ والتراكيب التى يستعملها بعض أدباء هذا الزمان اشبه بتقاليع (الموضة) تظهر ثم تختفى ، لا تعرف ثباتا ولا استقرارا ، فقد كنا نسمع فى الستينات – كما ذكرت فى مقال سابق بالهلال – الوحدة الموضوعية ، والمعاناة وعمق التجربة والخلق وتراسل الحواس ، والمونولوج الداخلى ، والدفقة الشعورية والتعبير بالصورة والألفاظ الموحية ، والشعر المهموس ، والآن تسمع : الابداع وتكثيف التجربة ، والزخم (والعياذ بالله) والطرح ، والمنظومة والاشكالية والتناص والتماهى والتفجير والتفكيك .. وهذا واشباهه إنما هو كما قال ابن قتيبة منذ (١٢٤٠) سنة فى مقدمة أدب الكاتب : «ترجمة تروق بلا معنى. واسم يهول بلا جسم ، فإذا سمع الغُمر – أى الجاهل – والحدث الغِر قوله : الكون والفساد وسَمْعَ الكيان .. راعه ما سمع ، فظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة ، فإذا طالعها لم يحل منها بطائل».. أو كما قال أبو السعادات ابن الشجرى : «تهاويل فارغة من حقيقة» الأمالى ١/٥٦ ، ولا يغرنك أيها القارىء المبتدىء اجتماع الكتاب على هذه الألفاظ وكثرة استعمالهم لها ، فإن الاستعمال ليس بدليل على الحسن ، كما يقول ضياء الدين بن الأثير فى المثل السائر ١/٢٢١ .

إن كثيرا مما يكتب الآن لا صلة له بالعربية إلا صورة الحروف والأبنية من الأسماء والافعال . أما روح العربية وآمادها الرحبة الواسعة

فلا تجدها فى أسلوب مما تقرأ ، ولا فى كلام مما تسمع ، إنى أحس أحيانا أن هؤلاء الذين يكتبون أدبا عربيا لم يمروا بالقرآن ولا بالبيان النبوى ، ولا بكلام العرب ، فإن ثروتهم اللفظية محدودة جدا . وتصرفهم فى وجوه الكلام قصير الخطو، منقطع النفس ، ولذلك تأتى معانيهم هزيلة خفيفة ، لأن ضيق الألفاظ يؤدى إلى ضيق المعانى ، كما يقول عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز ومن الكلام الحكيم للجاحظ فى هذه البابة قوله : «والاصل فى ذلك أن الزنادقة أصحاب ألفاظ فى كتبهم، وأصحاب تهويل ، لأنهم حين عدموا المعاني ولم يكن عندهم فيها طائل ، مالوا إلى تكلف ما هو أخصر وأيسر وأوجز كثيرا» الحيوان ٣/٣٦٥ .

وهؤلاء الذين يزعمون أنهم ورثة طه حسين لم يسيروا فى طريق بيانه ، ولم يحاكوا حلاوة أدائه ، وكان له فى ذلك مستراد ومذهب ، فانتماؤهم لطه حسين إذن انتماء كاذب وولاء منقوص .

وأيضا هؤلاء الذين يتحدثون عن التنوير ورموز التنوير ، لم يمروا بأدب اعلام هذا التنوير ، ولم يسلكوا طرائقهم فى معرفة العربية ورعاية قوانينها فى حسن الأداء وجمال العبارة .

إن الذين يشكون الآن من «الاغانى الهابطة» ، لا ينبغى أن ينسوا أن هذه القضية مرتبطة بألوان الأدب الأخرى ، وأن البيان كله من باب واحد ، فيوم أن كان عندنا أدباء بيان كبار ، كالمنفلوطى والزيات كان عندنا كتاب أغان كبار ، مثل أحمد رامى وبيرم التونسى وعبد الفتاح

مصطفى وحسين السيد ، لأن كلام الناس ينزع بعضه إلى بعض ، ويأخذ بعضه برقاب بعض ، وقد انشدتك أيها القارىء الكريم من قبل قول ابن الرومى :

وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض

ولن تجد مع كثرة الغبار إلا قذى العيون

والآن إذا أردت أيها القارىء العزيز أن تعرف سر هذا التردى فى الكتابة ، ومجافاة حسن البيان ، والإعراض عن جمال العبارة ، أعجزك أن ترده إلى سبب واحد أو سببين اثنين ، وإنما هى أسباب كثيرة تداخلت وتشابكت .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أسباب محنتنا فيما نكتب !

وبدءة ذى بدء لا أحب لك أيها القارىء العزيز أن تقول كما يقولون: إنها طبيعة العصر، وسرعة إيقاع الحياة، لا يدعان للكاتب فرصة لأن يحسن ويزين ويتأنق، كما أنى لا أرضى لك أيها الشاب المبتدىء أن تصدق ما يقولونه من أن لغتنا العربية هى لغة الخيل والليل والبيداء، وأن زمانها قد راح وولى، وأن هذا عصر الكمبيوتر ، فأفسحوا له الطريق، لا أحب هذا لقارئى ولا أرضاه له.

وذلك لأن حسن البيان قيمة جمالية، والقيم الجمالية باقية ثابتة، لا تتغير بتغير الأيام وتبدل الأحوال، والفطر السوية تطرب للكلمة الحلوة، كما تطرب لهديل الحمام وزقزقة العصافير. وحفيف الشجر فى ليلة طيبة الهواء، والعطر الفواح ينعشك سواء ركبت جملا أو طائرة، ولازلنا مع تغير الأصوات وتحولات الموسيقى نستقبل رمضان بأغنية أحمد عبدالقادر «وحوى يا وحوى»، كما نستقبل العيد بشدو أم كلثوم «ياليلة العيد أنستينا» و «حبيبى يسعد أوقاته» وإن كانت هذه قد قيلت فى عيد جلوس «فاروق» ملك مصر، ولا أظن أنه سيأتى يوم لا يطرب الناس فيه لصوت الشيخ مصطفى إسماعيل وأم كلثوم ومحمد عبدالوهاب. إن الأنغام متوارثة فى الأنفس.. والجمال مصون فى

تلافيف القلوب، والطرب مركوز فى الطباع، فلا يخدعنك عن الحق غلبة الباطل، ولا يزهدنك فى الطيب كثرة الخبيث.

ثم أعود بك أيها القارىء الكريم إلى أسباب محنتنا فيما نكتب وفيما نقول.

وقد جمعت لك أسبابا شتى، ولعلك جامع إليها أسبابا أخرى بصائب نظرك، وحسن تأتّيك وتهديك إلى ما لم أهتد اليه . أولا: ذهاب الكبار بالموت أو بالملل أو بالمصانعة، والموت لا مرد له ولا حيلة فيه، ويموت الكبار يضيع الصغار ويذهب العلم، أخرج البخارى عن عبدالله ابن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» صحيح البخارى (باب كيف يقبض العلم، من كتاب العلم) ١/٣٦.

أما الملل فهو من كواذب الاخلاق، كما جاء عن عمرو بن العاص رضى الله عنه، على أن بعض كبار أدبائنا معذورون فيما دفعوا إليه من الملل، لما يرونه من فساد لم ينشأوا عليه، ولما حاق بهم من أذى أضيروا منه.

الأضواء الخادعة

وأما المصانعة فهى داء خبيث، لا معذرة ولا مسامحة فيه، وبالمصانعة هذه خاض بعض كبارنا فيما يهزل به مدعو الادب والحداثة، وكأن هؤلاء الكبار خشوا على أنفسهم آفة النسيان، وأرادوا أن يكونوا ظاهرين فى الأرض، وكأنهم يقولون: لأن نكون فى جلبة الأضواء خير من أن نكون فى صمت الظلام، وهم يعلمون فى دخيلة أنفسهم أن هذه الأضواء خادعة، وأن مدها منقطع لان مولدها ضعيف، ولا ينقضى عجبى من بعض هؤلاء الكبار، وهم من تلاميذ طه حسين وأمين الخولى وأحمد أمين ومصطفى السقا وابراهيم أنيس، وبقية هذا الجيل العظيم، كيف يسكتون على هذا العبث، بل كيف يتعاملون معه ويحضرونه ويقدمونه بل ويدافعون عنه، وهم يعلمون باليقين الذى لا يدخله شك انه لا طائل تحته ولا غناء فيه .

ثانيا: قلة المحصول اللغوى عند الكتاب والقلة تغرى بالقلة، والفقر يقود إلى الفقر (وهذا كلام موزون وقع لى اتفاقا من غير قصد كما ترى)، ولو تأملت ما يكتبه كثير من الادباء الآن لوجدته يدور حول طائفة محدودة من أبنية الاسماء والأفعال والحروف.. مع العجز عن تحريكها والتصرف فيها وفق قوانين العربية التى حدثتك عنها سابقاً ، وإنما هى أبنية وأدوات ترص رصا، بلا دم ولا روح، وكأنها الدمى، وكأن ذلك الأديب يكتب بلغة أجنبية ليس له بها أنس، ولا يشده إليها تاريخ وموروث.

وليس يخفى أن قلة المحصول اللغوى والعجز عن التصرف فى الكلام إنما يرجعان إلى قلة القراءة وضعف الزاد، فالأديب لكى يكتب أدباً عاليا جميلا لابد أن يكون على صلة لا تنقطع بالقراءة.. وأن يجعل من يومه نصيبا مفروضا للمراجعة والاستزادة، فالابداع ـ كما يقال فى هذه الأيام ـ لابد له من مدد، والمدد ليس له إلا طريق واحد، هو القراءة الرشيدة المستمرة ثم التأمل وتقرأ فى كتب التراجم والطبقات أن العالم الفلانى صنف الكتاب الفلانى بعد أن قرأ له كذا كتابا ، فالصالحى الشامى المتوفى سنة (٩٤٢) يذكر انه ألف كتابه «سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد» من أكثر من ثلاثمائة كتاب، وروى عن إمام الحرمين الجوينى المتوفى سنة (٤٧٨)، أنه قال «ما تكلمت فى علم الكلام كلمة حتى حفظت من كلام القاضى أبى بكر وحده اثنى عشر ألف ورقة» طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى ١٨٥/٥ ، وأبو بكر فى هذا النص هو محمد بن الطيب الباقلانى، من كبار المتكلمين الاشاعرة، وصاحب «إعجاز القرآن» فهذا أثر القاضى ابى بكر وحده فى محفوظ إمام الحرمين، فكيف يكون أثر العلماء الآخرين؟.

لكن الملاحظ والمشاهد الآن أن الأدباء يتكلمون أكثر مما يقرءون وأن ما تقرأه من مصطلحات فى القصة والرواية والشعر والنقد، إنما هى مسموعات تتردد فى الندوات، يتلقفها بعض من بعض، ولا خير فى ذلك كله ، فقد قال ابن قيم الجوزية، «من لم تنفعه عينه لم تنفعه أذنه».

ثالثا: تسويغ العجز باصطناع نظريات تمهد له وتسانده، وفى ذلك الطريق جاءت مغالطات شتى، وجاء خداع كثير، فقيل مثلا: إن العناية بتحسين العبارة أصباغ وزخارف.. وأنها تكون على حساب المعانى والافكار، وان التفكير والموضوعية يأبيان الزخارف والاصباغ وان غايتهما الحقائق ليس غير وقد تبع ذلك التفرقة بين الأسلوب الادبى والاسلوب العلمى، تفرقة تفضى فى نهاية الأمر إلى التهوين من الاسلوب الادبى، ووصف من يحسن البيان بأن كلامه «كلام إنشا» وقولهم فى سياق المدح: إن فلانا يكتب كما يتكلم.

وقيل أيضا: لا ينبغى التعامل بالكلام المأثور حتى لا يجد القارىء نفسه يتعامل فى المنزل والشارع بلغة، وفى الكتاب بلغة الشعر الجاهلى، وأننا يجب أن نصطنع لغة تقرب الفجوة بين الشارع والكتاب، وهذا كلام غير صحيح ـ فضلا عما فيه من لعب وخداع ـ لان هذه الفجوة لابد أن تكون قائمة وثابتة، ففى كل لغات الدنيا فرق بين لغة العامة ولغة الخاصة (وانظر ما كتبته عن الشيخ الشعراوى واللغة .. وتقديمى لكتاب الأستاذ محمود رءوف أبو سعدة: من إعجاز القرآن.. وقيل أيضا: إن أحسن الاساليب هو ما لا يحتاج معه القارىء الى مراجعة معجم، وهذا مما يفتتن به الشباب المبتدئون والكلام مقلوب، والقضية معكوسة، فإننا إذا لم نراجع لبعض ما نكتب شيئا من المعاجم فإننا نكون قد وقعنا فى حمأة العامية والكلام السوقى واستوى فى ذلك عالمنا وجاهلنا، ولماذا كانت المعاجم، ولأى غاية وضعت؟ .

حسن البيان

ولقد كان من أشنع الخطأ هنا وأغلطه: الخلط بين المحسنات اللفظية وتحسين العبارة ، وبينهما فرق لا يخفى، فالمحسنات اللفظية هى أنماط تعبيرية محصورة فى قواعد محددة بشواهد معينة، أما تحسين العبارة الذى هو البيان، فمجاله واسع رحب، وهو قائم على أسباب كثيرة.. من الغنى اللغوى، واختيار الابنية الشاعرة المتجانسة ، من الاسماء والافعال والادوات واحكام بناء الجمل وحسن تنسيقها ، وإشاعة الألفة بينها، وقدرة الكاتب فى ذلك كله على أن ينشىء علاقة أنس بين قارئه وبين ما يكتب، إن الكاتب المبين يجعلنا نحب بعض الكلمات ونعشقها ، ترى هذا فى اسلوب الجاحظ وابى حيان التوحيدى (إذا نسى مشاكله النفسية) ومصطفى صادق الرافعى، ومحمود محمد شاكر.

وحسن البيان لا يمنع من الالمام بهذه المحسنات اللفظية إذا جرت على قلم الكاتب فى حاق موضعها غير متكلفة ولا مستكرهة.

على أن المحسنات اللفظية ليست سيئة السمعة، على نحو ما يلقيه بعض اساتذة البلاغة على طلبتهم، وانها قائمة على التكلف والتزييف، إن المحسنات اللفظية باب ضخم من أبواب الجمال فى البيان العربى، وما يجىء منها متكلفا يعاب ويذم، كما يعاب التكلف فى كل شىء ويذم، وكيف تعاب المحسنات اللفظية جملة، وقد جاء منها فى كلام ربنا عز وجل وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم وكلام العرب واشعارها قدر

صالح، ألم تقرأ قوله تعالى: (وهم ينهون عنه وينأون عنه) الانعام ٢٦، وقوله تباركت اسماؤه: (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) النمل ٢٢، ثم انظر (المجازات النبوية) للشريف الرضى وشعر ابى تمام على وجه الخصوص.

إن كثيرا من شواهد التورية والجناس تحدث إمتاعا للنفس لا مزيد عليه، فضلا عما يستخرجه بعضها من اسباب الضحك والبهجة وكثير من نكاتنا المصرية تجرى على هذا الباب، ولولا الجد الذى نحن فيه لأمتعتك بشىء منها.

وكأن هذه السمعة السيئة للمحسنات اللفظية قد استقرت عند بعض الناس وهذا هو البلاء العظيم - فقد سمعت أحد الاساتذة فى محاضرة له، وقد جاء على لسانه شىء من هذه المحسنات فغمغم بعض الجالسين ، فقطع المحاضر كلامه كالملسوع، وقال: « لا والله.. دى جت كده. غصب عنى!» وكأنه يبرأ من عيب يخشى أن يلحق به عاره».

وأقرأ لبعض النقاد.. واسمع لبعضهم فيما يذاع من ندواتهم تنفيراً شديداً من هذا اللون الادبى، وتحذيرا للشباب منه.

فلا أملك إلا أن أتلو قول الله تعالى (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) النساء ٣٧، والحديد ٢٤.

رابعا: اقترن بتسويغ العجز عن جمال البيان: السخرية منه والإزدراء بقائله، على ما قال تعالى: (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون

هذا إفك قديم) الأحقاف ١١، أو كما قال ابو على الفارسى: «من عرف ألف ومن جهل استوحش» الاشباه والنظائر النحوية للسيوطى ٤٦٤/٣.

ومن أعجب العجب أن أكثر من يسخرون من البيان الآن هم بعض أساتذة العربية الذين يدرسونها فى الجامعات (نحواً وأدبا وبلاغة) وأرجو من قارئى العزيز أن يأذن لى مرة واحدة - إن شاء الله - بذكر بعض التجارب الخاصة، واستعمال ضمير المتكلم.

بين الدعابة والسخرية!

لى صديقان أحدهما طبيب والآخر صيدلى، يحبان الأدب حبا جما، ويحرصان على قراءة ما أكتب، ويطربان جدا لما اجتهد فيه من ضروب البيان وتحسين العبارة وعلى الجانب الآخر يقرأ بعض زملائى من اساتذة العربية هذا الذى اكتب، فيداعبوننى بمثل قولهم: إيه الكلام ده؟ ايه الاساليب دى؟ ألفاظك كلها كلاكيع! وأعلم يقينا انه لولا المحبة لاستحالت هذه الدعابة سخرية لاذعة وازدراء شديداً، ودعيت منذ خمس سنوات الى ندوة عن «مستقبل التعليم فى مصر» أقامها مشكوراً مأجورا نادى أعضاء هيئة التدريس بجامعة اسيوط، وقدمت بحثا عنوانه: «استثمار التراث فى تدريس النحو العربى» قدمت له بمقدمة أدرتها على شىء من البيان فتح الله به علىّ فتحا وقد طرب له كثير من الحاضرين، وكان أكثرهم من الشباب المعيدين والمدرسين المساعدين بكليات الطب والهندسة والعلوم والتجارة واخذ

هؤلاء الشباب يلاحقوننى فيما بين الجلسات، يطلبون المشورة والدلالة على كتب العربية التى يقرءون فيها مثل هذا الكلام الذى جرى على لسانى.

أما أساتذة العربية الذين حضروا الندوة - ومنهم كبار فى السن والدرجة - فقد سخروا منى سخرية شديدة، اعلنوها ولم يكتموها وكان بعضهم ينادينى هكذا: تعال يا بتاع التراث قول يا بتاع التراث، أزيك يا بتاع التراث: (لكنى اشهد فى تلك الأيام أن الأستاذ الدكتور حامد عمار - وكنت قد اختلفت معه فى هذه الندوة - قال لى ونحن فى القطار من اسيوط الى القاهرة بالحرف الواحد: يا استاذ اثبت على ما أنت عليه، فإنى سعيد أن أرى انسانا يتحدث عن لغته وتراثه بهذه الحماسة) وهذا إنصاف من الرجل وهو شأن الكبار.. أما الصغار فما أجرأهم على لغتهم وعلى تاريخهم ، ومهما يكن من امر فإنه من العار أن يذم الناس مذهبهم ويهجنوا طريقهم هل تعرف طبيبا يذم مهنة الطب؟ وهل تجد مهندسا يحتقر حرفة الهندسة؟ قد يشكوان إرهاقا أو إعياء، أما أن يكون ذم ومعابة فلا.

وقد انتقلت سخرية الاساتذة الى تلاميذهم من معلمى العربية فى مدارسنا الآن: سأل مدرس اللغة العربية التلاميذ فى الثانوية العامة عن مرادف لعبارة «رغد العيش» فأجاب ابنى «بُلَهْنِية» فضحك المدرس ضحكة عالية وسخر منه قائلا:

«إيه ياخويه؟» وحمدت الله أن وقف المدرس العابث بالسخرية عند

هذا الحد، فإن لهذا التركيب الذى نطق به ذلك المدرس تكملة سوقية يعرفها أهل السخرية، ولعله قالها وكتمها ابنى عنى! .

أرأيت أيها القارىء العزيز؟ إنه أمر محير فعلا، وهو يحتاج إلى محلل نفسى لا إلى كاتب مثلى.

خامسا: الكسل والاخلاد الى الراحة : أعرف نفرا من زملائى الجامعيين، أعرف نشأتهم العربية الاصيلة، وأقرأ لبعضهم شعرا عذب النغم، فصيح الاداء، آسر النغمة، وأحاورهم فأقع منهم على كل لطيفة ودقيقة من الفطنة والقول الحسن . ولكنهم إذا كتبوا قرأت كلاما خفيفا يخدعك عن حقيقة امرهم وما عندهم من العلم والادب، ولا تفسير لذلك عندى إلا الكسل وطلب الخفة، و«طلب الخفة» ، مطلب نحوى، ولكنه لا يحمد فى الادب والبيان.

★★★

ويبقى أن أقول: إن إهمال البيان والتأنق فى الكلام وتحسين العبارة قد أدى الى هجر كثير من أبواب النحو، وقلة استعمال بعضها فى كتابات الكاتبين الآن مثل البدل، ويخاصة بدل البعض وبدل الاشتمال و«كان» التامة فى مثل قوله تعالى: (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) البقرة ٢٨٠، و«كان» الزائدة فى نحو: ما كان اغناك عن هذا ، وقول قتيلة بنت النضر بن الحارث، تخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ما كان ضرك لو مننت وربما

منَّ الفتى وهو المغيظ المحنق

واسم الفاعل واسم المفعول العاملان فى التركيب، والمصدر الميمى والمصدر المؤول، وبعض جموع التكسير الفصيحة وزيادة الباء فى خبر «ليس» وفى خبر «ما» مع كثرة ذلك فى القرآن وكلام الفصحاء.. ولا يزال ذلك يجرى على ألسنة الناس فى الخطاب اليومى فى السعودية والكويت، يقولون: ما أنا بمبطى عليك، وما أنا بناسي كلامك.

ومما أهمل أيضا المفعول المطلق المؤكد للفعل.. فأنت لا تكاد تقرأ لكاتب يقول: كلمته كلاما، من غير أن يضيف إليه وصفا، فيقول كلاما شديدا ونحوه مع مجىء ذلك بكثرة فى الفصيح، ومنه قوله تعالى: «رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا» النساء ٦١، ومن الغريب أن هذا المفعول المطلق مستعمل بكثرة فى عاميتنا المصرية، تقول: أكلت أكل - شربت شرب - نمت نوم - الاهلى لعب لعب.

ومن ذلك باب تعدى الافعال بنفسها أو بحرف الجر، مثل شكرته وشكرت له ونصحته ونصحت له ، فلا يكاد الكتاب يستعملون إلا الاول.. الى أبواب نحوية أخرى كثيرة اهملت وعطلت.

على أن من أبواب النحو التى كادت تختفى الآن تماما، باب التوكيد اللفظى - وهو اعادة الكلمة بلفظها - والاستغناء عنه بالتوكيد المعنوى وهو التوكيد بالنفس أو بالعين أو بكل وجميع مع أن التوكيد اللفظى أوسع مجالا من التوكيد المعنوى.

كما قال علم الدين اللورقى الاندلسى المتوفى سنة ٦٦١، قال: «لأنه يدخل فى المفردات الثلاث - يعنى الاسم والفعل والحرف - وفى

الجمل ولا يتقيد بمظهر أو مضمر، معرفة أو نكرة، بل يجوز مطلقا» الاشباه والنظائر النحوية ٢/٢٢٩ . ولعل الذى زهد الناس فى أيامنا في استعمال التوكيد اللفظي، هو ما تلقوه فى دراسة النحو، من مثل: جاء جاء محمد، أو جاء محمد محمد ، وهذه أمثلة تعليمية وفى مثل هذا يقول سيبويه كثيرا: «وهو تمثيل ولا يتكلم به »، ويقول ابن جني:

«التمثيل للصناعة ليس ببناء معتمد» الخصائص ٣/٩٧، ولو التمس معلمو النحو أمثلة التوكيد اللفظى من الكلام الفصيح لوجدوا منه أمثلة ذوات عدد تغرى باستعماله ،واعتياده من نحو قوله تعالى:

(كلا إذا دكت الأرض دكا دكا. وجاء ربك والملك صفا صفا) الفجر ٢١ ، ٢٢ ومن نحو قول عروة بن أذينة:

لقد علمت وما الإشراف من خلقى
أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
اسعى له فيعنينى تطلبه.
ولو قعدت أتانى لا يعنّينى
وكل حظ امرىء دونى سيأخذه
لابد لابد أن يحتازه دونى

ولعدم إلف الناس الآن لهذا التوكيد اللفظى يظن بعض من يقع إليه شيء منه انه من باب التكرار الخاطيء، كتبت مرة مقالا باحدى المجلات وكنت قد كتبت فيه هذه العبارة «والكلام هنا طويل طويل»

وحين قرأته مطبوعا وجدت «طويل» مرة واحدة، فأيقنت أن الاخ مصفف الحروف حذف الثانية لأنه ظنها تكرارا منى من باب السهو، وعذره فى ذلك واضح، لانه لم يتعود مثل هذا التوكيد اللفظى فيما يقدم له من كتابات ، وعلى ذلك فإننى أنصح من يستعمل التوكيد اللفظى أن يستعمل اللفظ ثلاث مرات لا مرتين ، فإن ذلك أبعد من مظنة التكرار وأنفى للبس.

★★★

وبعد: فإنى أخشى أن تكون هذه الحقبة التى نعيشها هى أسوأ الحقب التى مرت بها العربية والبيان العربى، فإن اللغات تنتعش أو تذوى باحترام أهلها لها وممارستهم لها «وما أظن لغتنا العربية فيما يسمونه ـ خطأ وتسرعا بعصور الانحطاط الادبى ـ وهو العصر العثمانى ـ لا أظنها فى تلك الايام إلا أحسن حالا وأجمل بيانا مما هى عليه الآن.

والرثاء كل الرثاء لشباب هذه الأيام الذين يخدعون عن تاريخهم وعن لغتهم فيما يقرءون وفيما يسمعون.

أما أنا وأنت ومن يجرى معنا فى حب العربية والبيان العربى فليس لنا إلا الصبر نعتصم به ونفزع إليه، حتى يكشف الله الكربة، ويزيل الغمة، ويرد الغربة :

ما فى الصحاب أخو وجد نطارحه
حديث نجد ولا صب نجاريه..

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التصحيح اللغوى وضرورة التحرى

«من عرف كلام العرب لم يكد يُلحّن أحداً»، تذكرت كلمة الأصمعى هذه وأنا أقرأ صفحة «لغويات» فى عدد مايو ١٩٩٢ من الهلال، فقد جاء فى هذه الصفحة «توفى فلان إلى رحمة الله فهو «مُتوفى» بضم الميم وفتح التاء والواو وتشديد الفاء المفتوحة وتنوين الحرف الأخير.. وهذا من بديهيات اللغة التى كانت معروفة عند الصحف المصرية والعربية، ولكن إحدى الصحف المصرية الكبرى كتبت فى صفحتها الأولى منذ أسابيع كلمة «متوف» بكسر الفاء وتنوينها بدلا من «متوفى» التى بيناها، فكأنما أحدث الرجل الوفاة بنفسه، ولم يتوفه الله تعالى!».

وهذا الكلام صواب، ولكنه ليس الصواب الذى لا صواب غيره، ولأهل العلم فى ذلك كلام طريف يصححون فيه الوجه الآخر لذلك الاستعمال الذي يأتي على ألسنة العامة هذه الأيام، وهو الاستعمال الذى خطأه الكاتب الفاضل، مع أنه ضارب فى العربية بعروقه، فإنه يقال: «توفى فلان فهو متوف» بفتح التاء والواو والفاء فى الفعل، وكسر الفاء فى اسم الفاعل، ويكون المعنى على هذا الضبط أنه استوفى

أجله، واستنفد أيامه فى هذه الحياة الدنيا، وعلى ذلك جاءت القراءة المروية عن على بن أبى طالب، وعن المفضل عن عاصم: «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا» ـ سورة البقرة ٢٣٤ ـ بفتح الياء فى «يَتَوفَّون» قال ابن مجاهد «ولا يُقرأ بها». وقال ابن جنى فى المحتسب ١/١٢٥ «هذا الذى انكره ابن مجاهد عندى مستقيم جائز، وذلك أنه على حذف المفعول أى : والذين يتوفون أيامهم أو أعمارهم أو آجالهم، كما قال سبحانه : «فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم» «والذين تتوفاهم الملائكة» وحذف المفعول كثير فى القرآن وفصيح الكلام، وذلك إذا كان هناك دليل عليه، قال الله تعالى: «وأوتيت من كل شىء» «أى شيئا». انتهى كلام ابن جنى ، وقد روى أيضا عن الأعمش أنه قرأ قوله تعالى: «ومنكم من يتوفى» سورة الحج ٥ ـ بفتح الياء، وحكاه أبو حاتم السجستانى، كما ذكر ابن خالويه فى شواذ القراءات ص ٩٤.

فهذا الذى يجرى على ألسنة العامة ليس خطأ محضا وإن لم يكن هو الأفصح.

قال ابن هشام اللخمى: «وإذا كان فى الكلمة لغتان وكانت إحداهما أفصح من الأخرى فكيف تلحن بها العامة وقد نطقت بها العرب، وإنما تلحن العامة بما لم يتكلم به».

على أن هذا التوجيه الذى يسوغ استعمال «توفى» مبنيا للفاعل لا ينبغى أن يُقبل إلا من عارف به مطيق لوجه الكناية فيه.. قال الإمام السكاكى فى مفتاح العلوم ص ٩٨ «فإن جوهر الكلام البليغ مثله

مثل الدرة الثمينة، لا ترى درجتها تعلو ولا قيمتها تغلو.. ما لم يكن المستخرج لها بصيراً بشأنها ، والراغب فيها خبيرا بمكانها وثمن الكلام أن يوفى من أبلغ الاصغاء وأحسن الاستماع حقه، وأن يتلقى من القبول له والاهتزاز بأكمل ما استحقه.. ولا يقع ذلك ما لم يكن السامع عالما بجهات حسن الكلام معتقداً بأن المتكلم تعمدها فى تركيبه للكلام عن علم منه، فإن السامع إذا جهلها لم يميز بينه وبين ما دونه، وربما أنكره ، وكذلك إذا أساء بالمتكلم اعتقاده ربما نسبه فى تركيبه ذاك الى الخطأ ، وأنزل كلامه منزلة ما يليق به من الدرجة النازلة، ومما يشهد لك بهذا ما يروى عن على رضى الله عنه أنه كان يشيع جنازة فقال له قائل: من المتوفى؟ بلفظ اسم الفاعل.. سائلا عن المتوفى . فلم يقل: فلان، بل قال: الله، رداً لكلامه عليه مخطئا إياه ، منبهاً له بذلك على أنه كان يجب أن يقول: من المتوفَّى بلفظ اسم المفعول.. وما فعل ذلك كرم الله وجهه إلا لأنه عرف من السائل إنه ما أورد لفظ «المتوفّى» على الوجه الذى يكسوه جزالة فى المعنى وفخامة فى الايراد، وهو وجه القراءة المنسوبة إليه «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا» بلفظ بناء الفعل للفاعل، من إرادته معنى: والذين يستوفون مدد أعمارهم».

قضية لغوية

وهذا الذى رأيته من تسويغ «توفّى» وإخراجه من دائرة الخطأ المحض يقودنا إلى قضية لغوية كبيرة شغلت اللغويين قديما وحديثا،

وهى قضية التصويب اللغوى، وقد بدأ التصنيف فيها مواكبا لجمع اللغة وتدوينها ، على نحو ما نرى عند الكسائى (١٨٩ هـ) فى الكتاب المنسوب اليه « ما تلحن فيه العامة» . وتحت هذا العنوان كتب كثير من علماء اللغة الاوائل، مثل الفراء (٢٠٧ هـ) وأبى عبيدة (٢١٠ هـ) والأصمعى (٢١٦ هـ) ومن فى طبقتهم ومن جاء بعدهم، بل ان حركة التصحيح اللغوى هذه قد شارك فيها بعض علماء الترك فى الدولة العثمانية الذين اتخذوا العربية قلما ولسانا، فرأينا ابن كمال باشا (٩٤٠ هـ) يؤلف كتابه «التنبيه على غلط الجاهل والنبيه» ثم جاء على ابن بالى القسطنطينى (٩٩٢ هـ) فصنف كتابه «خير الكلام عن أغلاط العوام».

ومعلوم أن حركة التصحيح اللغوى قد تغيت غاية كبيرة، هى المحافظة على سلامة اللغة، فى أصواتها ومفرداتها وتراكيبها وإعرابها ودلالة ألفاظها . ومعلوم أيضا ان التنبه للخطأ اللغوى قديم.. وأن محاصرته والتوقى منه مما جاءت به السنة والأثر ، فقد روى أن رجلا لحن بحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم» فقال: «أرشدوا أخاكم» وروى عنه عليه السلام أنه قال: «أنا من قريش ونشأت فى بنى سعد، فأنى لي اللحن ؟» .وقال أبوبكر رضى الله عنه: «لأن أقرأ فأسقط أحب إليّ من أن أقرأ فألحن» . وكتب كاتب لأبى موسى الأشعرى الى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما: «من أبو موسى» فكتب اليه عمر: «أما بعد فاضرب كاتبك سوطاً واحدا وأخّر عطاءه - أى راتبه - سنة»..

ومن أصدق وأدق ما قيل فى استنكار اللحن واستبشاعه ما روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه «إن الرجل ليكلمنى فى الحاجة يستوجبها فيلحن فأرده عنها.. وكأنى أقضم حب الرمان الحامض، لبغضى استماع اللحن، ويكلمنى آخر فى الحاجة لا يستوجبها فيعرب - أى يتكلم كلاما صحيحا - فأجيبه إليها، التذاذاً لما اسمع من كلامه، وروى عنه أيضا انه قال: «أكاد أضرس إذا سمعت اللحن».

وقال عبدالملك بن مروان: «اللحن فى الكلام أقبح من الجدرى فى الوجه».

وينتهى عصر الراشدين واللسان العربى لا يزال صحيحا محروسا لم يتداخله الخلل ولم يتطرق إليه الزلل، وتأتى الدولة الأموية، ومن بعدها العباسية، وتكثر الفتوح ويدخل الناس فى دين الله أفواجا، فتختلط الألسنة، وتتداخل الأصوات واللهجات، ويستعمل العربى ما لابد له منه فى الحوار والخطاب اليومى، من أجنبى ودخيل، فيضاف الى عامل «اللحن» القديم عامل آخر، هو هذا الدخيل ، فينهض له علماء اللغة، فتكثر الجهود والتصانيف فى حركة التنقية اللغوية.

وفى عصرنا الحديث يطرأ عامل ثالث:

هو الاستخفاف باللغة والنحو والصرف، وإشاعة أن الاشتغال بمثل هذه العلوم مضيعة للوقت والجهد الذى ينبغى أن يصرف إلى الفكر وحده، ثم ظهرت بدعة «التفكير الموضوعى» الذى يرفض الاحتفال بهذه الشكليات من حركات الإعراب وأبنية الاسماء

والافعال، والرسم «الاملاء»، ثم يكون التخليط فى هذه القواعد والضوابط سمة من سمات التحرر والانعتاق من ربقة التخلف واكفان الموتى ورمائم القبور!.

ويفزع لهذه الغاشية طائفة من علماء اللغة والنحو المحدثين، فيتصدون لهذا الانحراف عن سنن العربية، فيما عرف بالتأليف فى الاخطاء الشائعة.. ومن أبرز ما كتب فيها «لغة الجرائد» لابراهيم اليازجى، التى نشرها مقالات فى مجلة الضياء التى انشأها بمصر سنة ١٨٩٨ هـ و«حول الغلط والفصيح على ألسنة الكتاب» لأحمد أبي الخضر منسى. و«تذكرة الكاتب» لاسعد خليل داغر.. و«أخطاؤنا فى الصحف والدواوين لصلاح الدين سعدى الزعبلاوى، و«الكتابة الصحيحة لزهدى جار الله.. ثم كتب العلامة النحوى الشيخ محمد على النجار عدة مقالات فى مجلة الأزهر، باسم «لغويات» نشرها بعد ذلك مجموعة بمعهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية.. وكتب العالم العراقى الدكتور مصطفى جواد عدة مقالات ايضا بمجلة عالم الغد البغدادية ، بعنوان «قل ولا تقل» نشرها بعد ذلك فى كتاب اضافة إلى ما ذكره فى كتابه:. «مباحث لغوية فى العراق».

على أن هذه الجهود التى بذلت فى التنقية اللغوية وتصحيح اللسان العربى، قد تعرضت فى القديم والحديث لحركة نقدية واسعة، تبعا لمقياس الصواب اللغوى وعلى أى صورة يكون؟ وهل يقتصر القياس على المشهور الشائع دون القليل النادر كما يرى البصريون، أم يقاس

على الشاهد الواحد والشاهدين، كما يقول الكوفيون؟ وهل نقف عند أفصح اللغات ونلغى ما سواها، أم نجعل الشاذ والفصيح واحدا؟ وقد كان بعض اللغويين يتشدد ويحكم بالخطأ على ما لم يكن فصيحا وإن جاء ت به لهجة من لهجات العرب ولو كانت ضعيفة، وكذلك يعد صحيحا كل ما رواه لغوى ولو كان منفرداً بروايته، ولعل اعدل منهج فى القبول والرد هو ما أثر عن ابى عمرو بن العلاء، وقال له أحدهم: «أخبرنى عما وضعت مما سميته عربية، أيدخل فيها كلام العرب كله؟ فقال: لا . فقال: كيف تصنع فيما خالفك فيه العرب وهم حجة؟ قال: اعمل على الاكثر، واسمى ما خالفنى لغات».

فهذا منهج يقوم على اعتبار الاكثر، وعدم انكار الاقل، فهو يقبله ولكنه يضعه فى دائرة اللغات، واللغات عندهم تعنى ما نسميه نحن الآن: لهجات.

ومن أشهر كتب مؤلفات التصحيح اللغوى قديما: ما صنفه ابن هشام اللخمى الاشبيلى (٥٧٧ هـ) فقد ألف كتابه: المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان، وعرض فيه بالنقد لكتابين تقدماه فى لحن العامة: هما لحن العامة، لأبى بكر الزبيدى الاشبيلى (٣٧٩هـ) وتثقيف اللسان وتلقيح الجنان، لابن مكى الصقلى (٥٠١ هـ)، وقد ذكر ابن هشام أن الزبيدى «تعسف على عامة زمانه فى بعض الألفاظ، وأنحى عليهم بالاغلاط وخطأهم فيما استعمل فيه وجهان وللعرب فيه لغتان»، وأن ابن مكى الصقلى انكر على العامة ما يحتمل التأويل أو يكون عليه من كلام العرب دليل».

لغة الجرائد

وفى عصرنا الحديث أيضا تعرض مؤلفو الأخطاء الشائعة إلى كثير من النقد والمراجعة، ومن ذلك ما كتب من نقد حول «لغة الجرائد» لليازجي، وما أثير حول «قل ولا تقل» لمصطفى جواد. وقد دارت معظم هذه النقود والتعقبات حول معيار الحكم بالخطأ والصواب على هذا الاستعمال أو ذاك . ويكشف عن اختلاف معايير الحكم بالخطأ والصواب هذان المثالان : خطأ أبوبكر الزبيدى العامة فى قولهم: امرأة سكرانة، وبين أن الصواب: سكرى، ثم ذكر أن بنى اسد كانوا يقولون : سكرانة.. فرد عليه ابن هشام اللخمى: «فإذا قالها قوم من بنى أسد، فكيف تُلحن بها العامة، وإن كانت لغة ضعيفة ، وهم قد نطقوا بها كما نطقت بعض قبائل العرب». وروى عن أبى عثمان المازنى انه قال: «دخلت بغداد فألقيت على مسائل، فكنت أجيب فيها على مذهبى، ويخطئوننى على مذهبهم» مغنى اللبيب (مبحث إذا).

على أن أعظم ما تعرض له الذين كتبوا فى التصحيح اللغوى فى القديم والحديث: هو التسرع وعدم الاستقصاء والتحرى، والوقوف عند حدود القاعدة اللغوية والنحوية، دون التفات الى المسموع والمأثور المتناثر فى كتب العربية على اختلاف علومها وفنونها، فالمعاجم على تنوعها واتساع بعضها لم تحص اللغة كلها، وآية ذلك ما تراه فى فهارس أئمة تحقيق النصوص. من تلك الألفاظ والتراكيب التى

جاءت فى أشعار العرب وكلام أهل العلم من السابقين الأولين، مما لم يذكر فى المعاجم اللغوية المتداولة، ومن ذلك ما ذكره شيخنا محمود محمد شاكر بآخر طبقات فحول الشعراء باسم «ألفاظ من اللغة أخلت بها المعاجم أو قصرت فى بيانها».

وما تراه فى فهارس استاذنا عبدالسلام هارون رحمه الله، البيان والتبيين والاصمعيات والمفضليات ومقاييس اللغة.

وليس غريبا أن تغيب بعض الالفاظ والتراكيب، عن معاجمنا اللغوية، فإن لغتنا العربية اوسع من أن تحيط بها المعاجم وحدها، وقد قال الإمام الشافعي، : «لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا واكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه انسان غير نبى» . وعلى هذا فإن اللغة ينبغى أن تلتمس من كتب العربية كلها، لأنك واجد فى كتب التفسير والحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام والأدب والبلاغة والتاريخ والجغرافية وسائر فنون التراث ، من اللغة ما لا تجد بعضه فى كتبها المصنفة فيها المقصورة عليها، وذلك لان العربية كتاب واحد.

وإذ قد ثبت هذا - إن شاء الله - فإنه من الواجب على من يتصدى للتصحيح اللغوى أن يتحلى بالاناة والتوقف والصبر، وألا يهجم على التخطئة دون سند قوى وحجة غالبة.

نماذج

وقد كنت عنيت فى مطالع الشباب بتلك الكتب المصنفة فى اللحن والاخطاء الشائعة، وكنت احفظ منها مسائل ذوات عدد، أديرها على

لسانى فى مجالس المذاكرة والمطارحة، مزهوا بما احفظ ، إذ كان عندى هو الصواب الذى لا صواب غيره. وحين أذن الله - وهو الذى بيده الخير كله - ان اتصل بما كتبه أهل العلم فى كتب العربية، وبخاصة شروح الشعر وغريب القران والحديث، والامالى والمجالس، وكتب التراجم والطبقات، ووقفت على تصرف أهل البيان فى الابنية والالفاظ والتراكيب، حين تم لى ذلك - على ضعفى وقلة حيلتى - أيقنت أن ليس الطريق هنالك، وان التخطئة والتصويب لا يصار اليهما إلا بعد عناء وجهد - لأن الأفق رحب والمدى واسع، والشوط بعيد، وبخاصة أننا فى زمن انقطعت دونه الرواية، وغاب الاشياخ فأوصد بغيابهم باب ضخم من أبواب العلم، لأننا أبناء أمة قام تراثها على الرواية والتلقى والمشافهة والتوقيف، والكتب وحدها لا تصنع عالما، وقد قال أبو الفتح بن جنى فيما وقع له من كلام شيخه أبى على الفارسى : «ولمثل هذه المواضع يحتاج مع الكتاب الى الاستاذين» - شرح تصريف المازنى ٢١٠/١ - وقال ابن قيم الجوزية، : «ولمثل هذه الفوائد التى لا تكاد توجد فى الكتب يحتاج إلى مجالسة الشيوخ والعلماء» بدائع الفوائد ١٠١/١ وإذ قد وضح لى بعض الطريق جمعت طائفة من تلك الألفاظ والتراكيب التى خطأها الناس، ورأيت صوابها أو استعمالها عند بعض أهل العلم قديما، واكتفى من ذلك هنا ببعض النماذج التى تمهد لما أردته من ضرورة التحرى والمراجعة أمام كل تخطئة أو تضعيف.

١ ـ يُخطىء بعضهم استعمال «النفس» في غير التوكيد، يريدون انك تقول: «الشيء نفسه» ولا تقول : نفس الشيء وقد وجدت استعمال هذا الذي يخطئونه في كتاب سيبويه ١/٢٦٦ ـ وحسبك به ـ وذلك قوله: وتجرى هذه الاشياء التى هى على ما يستخفون بمنزلة ما يحذفون من نفس الكلام» وقوله أيضا في ٢/٣٧٩ «وذلك قولك: نزلت بنفس الجبل، ونفس الجبل مقابلى».. وقال الجاحظ في الحيوان ١/٧٦ «ولابد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة».. وقال ابن جنى في الخصائص ١/٣٤٨ «وإنما جاز ذلك في هذا الموضع لا لشيء رجع الى نفس «أو» بل لقرينة انضمت من جهة المعنى إلى أو».

وقال المرزوقى في شرح الحماسة ص ٨٩٢ «وأشار بقوله الأبد إلى نفس الدهر». بل إن هذا الاستعمال قد ورد عند من هو أقدم من هؤلاء جميعا، وهو الخليل بن أحمد، شيخ العربية وشيخ سيبويه، وذلك قوله في كتاب العين ٨/١١٧» والترباء: نفس التراب».

٢ ـ يُخطىء بعض النحويين استعمال «وقد لا يكون» لان «قد» لا تدخل على النفى، والصواب ان يقال: «ربما لا يكون» وقد وجدته في كلام لابن جنى، قال في الخصائص ١/٢٠ «كما أن القول قد لا يتم معناه إلا بغيره » وفي كلام للمرزوقى، قال في شرح الحماسة ص ٥٧ «والاكتفاء به قد يقع وقد لا يقع». ثم وجدته كذلك عند المالقى، في كتابه : رصف المباني في شرح حروف المعاني ص ٤٥٥، قال في (مبحث قد) «إن نفيت فقلت قد لا يقوم ، توقعت العدم».

٣ ـ يرى بعضهم أن كلمة «مجانا» مبتذلة وغير فصيحة وتوشك أن تكون عامية وأن الصواب أن يستعمل مكانها «بدون مقابل» ونحوه.. وقد رأيتها عند ابن فارس في مقاييس اللغة ٢٩٩/٥، قال: «والمجان: هو عطية الرجل شيئا بلا ثمن». وقد استعملها ابن خلدون في مقدمته ص ٥٥٧، قال: «فليست اللغات وملكاتها مجانا».

٤ ـ يستسقط بعضهم تركيب «عبارة عن كذا» وقد رأيته في كلام ابن جني، قال في كتابه الخاطريات ص ٥٨ «ويؤكد ذلك أن لفظ الجبال قد وضع عبارة عما لا تدركه المعاينة»، وقد رأيت هذا التركيب كثيرا في كلام الفقهاء، وكتب التعريفات.

٥ ـ منع بعض النحويين دخول «أل» على «بعض»، فلا يجوز أن تقول: أحبوا بعضهم البعض، وإنما تقول: أحب بعضهم بعضا.. وقد أدخل سيبويه «أل» على بعض، وذلك قوله في الكتاب ٥١/١ «وربما قالوا في بعض الكلام: ذهبت بعض أصابعه وانما أنث البعض لانه أضافه الى مؤنث هو منه»، وكذلك صنع ابن جني في الخصائص ٦٤/١، قال: «فلما كان الأمر كذلك واقتضت الصورة رفض البعض واستعمال البعض، وكذلك استعملها ثلاث مرات في الخصائص ٣٣٤/٣، ومن قبل سيبويه وابن جني دخلت «أل» على «بعض» في الشعر الجاهلي، وذلك قول المرقش الاصغر، في احدى رواياته، يصف فرسه:

شهدت به عن غارة مسبطرة

يطاعن بعض القوم والبعض طوّحوا.

٦ ـ وكذلك منع بعضهم دخول «أل» على «غير».. لكنى وجدتها فى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ٩٨/٢، وكتاب الهوامل والشوامل، لابى حيان التوحيدى ومسكويه ص ١١٧، ثم رأيتها قديما فى كلام لصاحب القاموس فى موضع غاب عنى الآن.

٧ ـ يخطىء بعضهم استعمال الفعل «ساهم» بمعنى «شارك» على أساس انه لم يأت فى المعاجم إلا: ساهم فلان القوم أى دخل معهم فى القرعة فقرعهم وغالبهم لكنه قد جاء بمعنى «شارك» فى شعر ينسب لزهير ولأبى الأسود الدؤلى، وهو قوله:

أبا ثابت ساهمت فى الحزم أهله   فرأيك محمود وعدك دائم

وعلى ذلك جاء فى المعجم الوسيط، الذى أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وهكذا نتبين صدق كلمة الاصمعى السابقة «من عرف كلام العرب لم يكد يلحن أحدا».

لكن هذه الكلمة على صدقها لا ينبغى أن تتخذ سبيلا للفوضى اللغوية أو الحرية فى استعمال ما نشاء، وارتكاب الضرورات والمحظورات اللغوية، بدعوى أن من الأوائل من ارتكب الضرورة واستعمل الشاذ، ثم بزعم أننا يجب أن نرفع العوائق، ونحطم الحواجز أمام الابداع والمبدعين .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكن الله الفردوس
www.moswarat.com

المعاجم اللغوية والهجوم الذى لا ينتهى

كتب أستاذنا الكبير الدكتور شكرى محمد عياد، فى عدد «المصور» ١٧ من مارس الماضى كلمة جعل عنوانها «عاشق العربية» حيا فيها شيخنا أبا فهر محمود محمد شاكر، وإذا اجتمع للكلمة شرف الكاتب وشرف المكتوب إليه كانت ذخيرة تحفظ وتصان، وأيضا فإن الكاتب الجاد يفتح أمام قارئه أبوابا من النظر، ويستخرج منه ألواناً من الفكر كانت دفينة لولا إثارة هذا الكاتب الجاد.

وهكذا عودنا ذلك الأستاذ الجليل: يمتعنا بما يكتب، ثم يمد لنا من حبال الفكر والبيان، ويصلنا بأسبابه، فنمضى معه موافقين أو مخالفين، والكاتب العظيم لا يحفل كثيرا بموافقة أو مخالفة، فحسبه أنه يحرك الساكن ، ويجرى الراكد، ويهز المألوف، بل إن المخالفة قد تعجبه أحياناً، لأنها ترده إلى الرأى الأول، فيستدرك فائته ويكمل نقصه، فيزداد جلاء ووضوحا، وقد يقتنع بالرأى المخالف إذا عرف صدقه، ولمعت أمامه أنواره، وثبتت لديه صحته . فيرجع عما قال راضيا سعيدا، على ما قال عمر بن الخطاب فى كتابه إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء : «لايمنعنك قضاء قضيته اليوم، فراجعت فيه عقلك، وهديت فيه

لرشدك، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل» الكامل للمبرد ١/٢٠.

وكان مما قاله الأستاذ الكبير فى كلمته عن أبى فهر، وإعجابه بجهوده وجهاده فى قراءة الشعر الجاهلى وفهمه والإبانة عنه: «وليس بوسع أحد أن ينكر المصاعب التى تكتنف قراءة الشعر الجاهلى، وأولها - لاشك - صعوبة اللغة، فلابد لنا أن نستصحب الشروح التى قام بها اللغويون القدماء، وربما غصنا فى المعاجم القديمة - وهى على ما نعرف من سوء الترتيب - إن أعوزتنا تلك الشروح»، هكذا قال أستاذنا، وكنت أحب للعبارة أن تكون «عسر الترتيب» وليس «سوء الترتيب» وليس يخفى فرق ما بين الكلمتين، على أن «عسر المعاجم» هذا لم يعرف إلا فى زماننا هذا، لأسباب كثيرة يأتيك حديث عن بعضها إن شاء الله.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه العبارة من أستاذنا الفاضل تحمل على أحسن محاملها، على ما قال عمر بن الخطاب أيضا: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك عليه» طوق الحمامة ص ٢٦٤، ونحن لم نعرف من أستاذنا إلا حبه للعربية وإجلاله لموروثها، ورأيه هذا فى المعاجم العربية لا يطعن فيها جملة، ولا ينقصها قدرها بمرة، وإنما هو رأى من الرأى، يعرضه صاحبه فيناقش فيه فيقبل منه أو يرد عليه، وليس هو أول من نقد المعاجم العربية ولن يكون آخره، فما برح أهل العلم منذ مطالع العصر الحديث ينقدون تلك المعاجم، ويكشفون عن جهات النقص فيها، وما يظهر من الاضطراب فى ترتيب موادها، مع اختلاف مناهج ذلك النقد وغاياته.

يقول الدكتور عدنان الخطيب: «وإذا كان الكلام على عيوب المعجمات العربية يكاد يكون معادا أو مكرورا، وإذا كان المهتمون بالمعجم العربى اليوم على شبه اتفاق حول كثير من تلك العيوب، إلا أن العلماء الذين تصدوا لنقد المعاجم القديمة، اختلفوا فى أسلوب الكشف عن عيوبها، فكان لكل منهم أسلوبه ونهجه، لهذا كانت عيوب المعاجم عند اللغويين غيرها عند النحاة أو علماء الصرف أو الاشتقاق، وكذلك العيوب التى يراها علماء اللغات غير العيوب التى يراها علماء آخرون يهتمون بنواح تاريخية أو جغرافية أو طبية أو نباتية، أو غير ذلك من النواحى التى اشتملت عليها معاجمنا القديمة، ومن هنا نجد أن نقد الشدياق غير نقد الأب الكرملى، ونقد أحمد أمين غير نقد الأمير الشهابى..» المعجم العربى بين الماضى والحاضر ص ٦٣، وينظر أيضا المعجم العربى - نشأته وتطوره - للدكتور حسين نصار ٧٤٧/٢، والمعجم العربى - بحوث فى المادة والمنهج والتطبيق - للدكتور رياض زكى قاسم ص ٢٥٩.

نقد المعاجم العربية

ولعل أول من نقب هذا النقب، وفتح ذلك الباب فى نقد المعجم العربى، فى عصرنا الحديث: هو «أحمد فارس الشدياق» صاحب مطبعة الجوائب الشهيرة باستانبول، فى كتابه المعروف «الجاسوس على القاموس» ، وقد وضعه لاستدراك ما فات الفيروزابادى من «قاموسه المحيط» ورد ما وهم فيه من الألفاظ إلى أصولها، وقد طبع باستانبول

سنة ١٢٩٩هـ ، وتوفى الشدياق سنة ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٧م ، ثم تتابعت النقود فى ذلك الطريق، وإن اختلفت فيما بينها شرعة ومنهاجا، على ما تراه مفصلا فى المراجع الثلاثة المذكورة، ولا ينبغى أن ننسى جهود العلماء القدامى فى نقد المعاجم العربية، مثل نقد ابن برى المتوفى (٥٨٢) لصحاح الجوهرى، واسم كتابه «التنبيه والإيضاح عما وقع فى الصحاح»، ويعرف أيضا بحواشى ابن برى على الصحاح، وكذلك نقد صلاح الدين الصفدى المتوفى (٧٦٤) للصحاح أيضا، الذى سماه: «نفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهرى من الوهم». ثم ما نثره الفيروزابادى المتوفى (٨١٧) من نقد للصحاح، من خلال «القاموس المحيط»، لكن نقود هؤلاء اللغويين القدامى لم تمس أصول المعجم العربى وقواعده الأساسية، كما نرى فى نقود المحدثين، وإنما هو نقد يدور حول التصحيف والتحريف ونسبة الشواهد، وذكر بعض الأبنية فى غير أصولها، وإهمال بعض الأصول اللغوية.

وليس من غرضى هنا أن أناقش كل ما وجه للمعجم العربى من نقد، فليس هذا فى وسعى ولا فى طاقتى، وليس هذا مكانه، وإنما أحب أن أقف عند وجه واحد من وجوه ذلك النقد. وهو ما يقال عن «سوء ترتيب المعجم العربى» أو «تشويش مادته»، وهو كلام يتردد بين الكبار والمبتدئين، ولايكاد يخلو منه نقد من نقود المعجم العربى.

وفى رأيى أن الحامل على هذا الوجه من النقد أمران. الأول: المقارنة أو الموازنة الدائمة بين معاجمنا العربية والمعاجم الأوربية، مثل

«معجم اكسفورد» و«معجم لاروس». والأمر الثانى: النظر فى المعاجم الكبرى فقط، مثل «لسان العرب» لابن منظور المتوفى (٧١١). و«تاج العروس من جواهر القاموس» للمرتضى الزبيدى المتوفى (١٢٠٥) وهذا فى رأيى هو أصل القضية وجوهرها، فالذين يصفون المعجم العربى بسوء الترتيب وتشويش المادة لا يفتأون يقارنون بين سهولة المعجم الأوربى والوصول إلى المعانى فيه بيسر. وبين صعوبة المعجم العربى والتخبط فى أبنيته وتراكيبه، وهى مقارنة ظالمة، بل هى غير صحيحة، للفرق الضخم بين العربية وبين غيرها من اللغات، فلغتنا لغة اشتقاقية، ومفرداتها بالغة الكثرة، ومازلنا نجد صدق كلمة الإمام الشافعى عن هذه اللغة فى قوله: «ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى» الرسالة ص ٤٢.

وما أظن الناظر فى معجم أوربى لمعرفة معنى كلمة أو تركيب يحتاج إلى العدة والأدوات التى يحتاج إليها الناظر فى معجم عربى، فهناك مراحل معينة لابد أن يمر بها الباحث فى المعجم العربى ليجد بغيته فى ذلك المعجم، وهى تقوم على معرفة الأصل الاشتقاقى للكلمة المراد البحث عن معناها. ومعرفة الأصل الاشتقاقى هذا ترتكز على أسس أربعة.

أ - حذف الزائد.

ب - رد المحذوف.

جـ - تصحيح المعتل

د - فك المدغم.

وتحت كل فقرة من ذلك كلام كثير. هو علم الأبنية المعروف بعلم الصرف، وبخاصة أبواب المجرد والمزيد، والإعلال والإبدال، وقد يعرف المرء هذه الأبواب الصرفية. ثم يصعب عليه التهدى إلى موضع الكلمة من المعجم، لعدم المراس والدربة، كما يجد بعضهم صعوبة فى موضع «تترى» و«ترقوة» من المعجم، وكذلك موضع «ميناء»، بل إن بعض الكلمات تأتى فى موضعين من المعجم، كما ترى فى «البازى» الصقر، يأتى فى (بوز) وفى (بزى)، وكذلك كلمة «الصدد» التى تأتى فى قولك «بصدد كذا» أو «فى ذلك الصدد» تأتى فى مادة (صدد)، وفى مادة (صدى)، وقالوا فى قوله تعالى «فأنت له تصدى» «عبس ٦» إن أصلها «تتصدد» فلما كثرت الدالات قلبت إحداهن ياء، كما قيل إن قوله تعالى: «وقد خاب من دساها» «الشمس ١٠» أصلها «دسسها» بثلاث سينات، فقلبت إحداهن ياء، تنطق ألفا ، ولذلك يأتى شرح هذه الكلمة فى موضعين من المعجم، الأول (دسس) والثانى (دسى) ، ولهذا نظائر أخرى فى الأبنية، ومنها : قصيت أظفارى، والأصل : قصصت .

أغزر المعاجم اللغوية

فهذا ما كان من الأمر الأول، أمر المقارنة بين المعجم العربى والمعجم الأوربى. أما الأمر الثانى، وهو النظر فى المعاجم الكبرى فقط، دون المعاجم الأوساط والصغار: فما أظن الذين حكموا على المعجم العربى بسوء الترتيب وتشويش المادة، قد انتهوا إلى هذا الحكم إلا بعد طول معاناة مع أكبر معجمين، وهما «لسان العرب» لابن منظور، و«تاج

العروس» للمرتضى الزبيدى، وهذا الثانى هو أغزر المعاجم اللغوية مادة وأكثرها شمولا، فقد بلغت جذوره اللغوية (١١٩٧٨) جذرا، على حين بلغت جذور لسان العرب (٩٢٧٣) جذرا - انظر دراسة إحصائية لجذور معجم «تاج العروس»، للدكتور عبدالصبور شاهين، والدكتور حلمى موسى، نقلا عن حاشية كتاب الاستدراك على المعاجم العربية للدكتور محمد حسن جبل ص ٧.

ومما لاشك فيه أن البحث فى هذين المعجمين متعب، ولاسيما لمن لم يألف التعامل معهما وكثرة النظر فيهما، ولا تنتظر من طالب مبتدىء، أو من شخص محدود الثقافة، يريد معنى كلمة أو تركيب أن يرضى عن كتاب لغة موسوعى كهذين المعجمين، يمتد فيهما الكلام ويطول.

إن الحكم الصحيح على هذين المعجمين ينبغى أن يتم فى إطار معرفة حال ابن منظور والمرتضى الزبيدى، ثم معرفة حال معجميهما المذكورين، فالرجلان ليسا من واضعى اللغة ولا من رواتها، لتأخر زمانهما كما تعلم، وتآليفهما الأخرى تدور حول شروح الكتب واختصاراتها. أما المعجمان اللذان صنفناهما: لسان العرب وتاج العروس فهما تجميع موسوعى ضخم للمعاجم السابقة عليهما بمناهجها المختلفة وتباينها: اتساعا وضيقا، وقلة وكثرة، ولقد صرح ابن منظور فى مقدمة «اللسان» بأنه جمعه من أصول معجمية خمسة، هى بحسب ذكره لها : تهذيب اللغة للأزهرى (٣٧٠هـ) والمحكم لابن سيده (٤٥٨هـ) والصحاح للجوهرى (حدود ٤٠٠ هـ) والحواشى عليه لابن برى (٥٨٢)

وتسمى هذه الحواشى: التنبيه والإيضاح عما وقع فى الصحاح. والنهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٦٠٦هـ) وتمثل هذه المعاجم الخمسة ثلاث مدارس فى التأليف المعجمى: المدرسة الأولى مدرسة ترتيب المواد اللغوية وفق مخارج الحروف. وهى مدرسة الخليل ابن أحمد. ويمثلها من هذه المعاجم: التهذيب للأزهرى والمحكم لابن سيده ، والمدرسة الثانية: التى ترتب المواد على الجذور اللغوية (أصل الاشتقاق) واعتبار الحرف الأخير منها بابا يبنى عليه المعجم، والحرف الأول فصلا. مع مراعاة الترتيب الألفبائى فيما بين حرفى الباب والفصل، وهذا النظام يعرف أيضا بنظام التقفية. فكأن المادة اللغوية المشروحة قافية شعرية، ينظر إلى حرفها الاخير قبل كل شىء، ويمثل هذه المدرسة الصحاح وحواشيه. والمدرسة الثالثة – وهى المدرسة المألوفة لنا – التى ترتب المواد وفق الأول والثانى والثالث – ويمثلها النهاية لابن الأثير.

وقد ارتضى ابن منظور من مناهج هذه المدارس منهج المدرسة الثانية، مدرسة «الصحاح» ورتب كتابه «اللسان» على أساسها ، وأخضع المدرستين الأخريين لها، ويصرح ابن منظور فى مقدمته بأن عمله فى معجمه لم يخرج عن حدود ما فى مراجعه الخمسة، وإن كان قد استطرد إلى ذكر فوائد من قراءاته وسماعاته، ثم تعقب فى أحيان قليلة بعض ما وجده فى مراجعه الخمسة المذكورة، كما أشرت إلى ذلك فى مقالتى عن «لسان العرب» فى الهلال (مارس ١٩٩٢م).

فقد ظهر إذن أن المادة المعجمية فى «لسان العرب» مجموعة من مراجع خمسة تخضع لمناهج ثلاثة مختلفة كل الاختلاف، وهذا هو سر ما يبدو من التشويش وعسر الترتيب عنده. فالتكرير وارد لا محالة فى كتاب موسوعى صرح مؤلفه بأنه لم يخرج عن مراجعه الخمسة، فهو لم يبح لنفسه أن يغير شيئا من المادة التى أمامه، غاية ما فى الأمر أنه أخضعها لمنهج واحد فى الترتيب، وترك كل شىء فى الكتب على حاله، الا أن يتدخل فى أحيان قليلة جدا بنقد أو ترجيح، ولذلك قد تجد لديه شرحا لشىء من غريب الحديث والأثر مختلفا عن شرح آخر للحديث نفسه فى المادة نفسها، لاختلاف مرجعه فى ذلك، فقد ينقل فى المرة الأولى عن «تهذيب اللغة» للأزهرى، وفى الثانية عن «النهاية» لابن الأثير، بل قد تجد شاهدا شعريا غير منسوب لقائل فى موضع من المادة، وبعد قليل تجد الشاهد نفسه منسوبا، وما ذلك إلا لاختلاف مرجعه فى الحالين، وقل مثل هذا فى اختلاف الشروح، والحظر اللغوى أحيانا والإباحة أحيانا أخرى، ولذلك يوصى كبار المحققين فى الإحالة على ما فى اللسان أن تقول: «جاء فى اللسان كذا وكذا» ولا تقول: «قال صاحب اللسان ، أو قال اللسان».

فهذا هو «لسان العرب» كتاب موسوعى، جمع مادة لغوية ضخمة من خمسة كتب كبار مختلفة المناهج، أخضعها لمنهج واحد، وهو جهد شاق يحسب فى موازين الرجل ، ولم يكن عدلا أن ننتظر من مؤلفه أن يصطفى من هذه المعاجم الخمسة معجما يصنعه على هوانا ووفق مشيئتنا، وعلى حسب مواصفات العصر الحديث – عصر الحاسبات

الآلية والكمبيوتر - يجلس الواحد منا متكئا على أريكته فيجد بغيته من أقرب طريق، ويعثر على ضالته بأقل جهد: الأفعال الثلاثية وحدها، ومازاد على الثلاثة وحده، والأفعال اللازمة وحدها والمتعدية بعدها، ولا بأس أن يميز بين المتعدى بنفسه، والمتعدى بالحرف، بل المتعدى لواحد ولاثنين وثلاثة، والجموع يأتى القياسى منها وحده، والسماعى وحده، وأبنية المصادر وحدها وأسماء المصادر وحدها، والمشتقات وحدها. وهذا كله منطق «اللقطة» تصيبها فى عرض الطريق، أو «الغنيمة الباردة» تحوزها بغير حول منك ولا قوة.

نحن والفهارس

لقد صنع ابن منظور معجمه «اللسان» فى أوائل القرن الثامن، ونحن نحاكمه بمنطق القرن الخامس عشر، وقد صنعه لقوم يقرأون الكتب من أولها إلى آخرها، ونحن نلزمه أن يكون قد نظر إلى أبعد من عصره ، بل نريده أن يكون قد نظر إلينا على وجه الخصوص، ونحن الآن لانتعامل مع الكتب إلاَّ عن طريق الفهارس، ولأخذ حاجتنا فقط، وقل أن تجد منا من قرأ كتابا كاملاً، للمعرفة وحدها، لا للمرجعية فحسب.

وما قيل عن ابن منظور و«اللسان» يقال عن المرتضى الزبيدى و«التاج» فقد جمعه الزبيدى من مراجع كثيرة، منها اللسان، وجمهرة ابن دريد، ومقاييس اللغة لابن فارس، وأساس البلاغة للزمخشرى، ثم كتب الصاغانى، وأخضعها جميعاً للمنهج الذى ارتضاه صاحب اللسان.

على أن ابن منظور والمرتضى الزبيدى لو كانا قد أرادا ترتيب المادة اللغوية على ما يريدها الناس الآن، لما استقام الأمر لهما ولالغيرهما، فهناك أبنية لا تأتى إلا مقرونة بغيرها، كأبنية المصادر التى تأتى عقب الأفعال، وكالجموع التى تأتى مقترنة بالمفرد، ثم هناك الأبنية المرتبطة بالنصوص، والتى لو عزلت عن سياقها فى شاهدها وسلكت مع نظائرها لفقدت روح دلالتها، وعندى من هذا وذاك أمثلة كثيرة، لايتسع المقام هنا لذكرها . وإن تفتيت المادة اللغوية على ما يريده الناس الآن يصادم روح اللغة ونظامها، ولذلك تعجبنى كلمة الدكتور رياض زكى قاسم، فى كتابه الذى ذكرته من قبل، قال حين تحدث عن عيوب المعجم العربى: «فهذه العيوب تنقسم إلى ثلاث مجموعات، منها ما يمكن تهذيبه، ومنها ما يمكن تطويره وتحديثه، ومنها عصى يرتبط بمسألة تدوين اللغة ، وهو ما لا يمكن تهذيبه أو تحديثه» المعجم العربى ص ٢٦٠.

فهذا الذى يرتبط بمسألة تدوين اللغة هو روح اللغة ونظامها الذى لا ينبغى أن يمس بحال، ومن ثم لا ينبغى أن يوصف بعسر ترتيب أو سوء ترتيب، وليس أمام الباحث الآن إلا مد حبال الصبر والاستمساك بعرى الأناة، والتدرج فى مراقى الإلف والعادة، لتنفتح له مغاليق هذه المعجمات الكبار، وأعرف أناسا من أهل العلم ثم من شداته والمبتدئين فيه ، يقرأون اللسان والتاج فى يسر وسهولة، ويقعون على حاجتهم منه فى غير مؤونة ولاكلفة، وليس يخفى الفرق بين شخصين، يطلب أحدهما معنى كلمة أو تركيب، ويريد الثانى تحرير قضية لغوية، تتصل بالأبنية أو الدلالة، فالأول يكفيه معجم صغير، مثل مختار الصحاح أو المعجم

الوجيز أو الوسيط اللذين أصدرهما مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وفيهما جهد كبير، أما الثانى فلابد له من أن يركب الصعب، ويأخذ نفسه بالجلادة والصبر، إن معرفة اللغة والوقوف على شىء من أسرارها لا يكفى فيها اللسان أو التاج، بل لابد فيها من الرجوع إلى مالا يحصى من كتب اللغة الصغار والأوساط ، وكتب الألفاظ، ومعاجم المعانى وشروح الشعر، وشروح غريب القرآن وغريب الحديث، وكتب الأمالى والمجالس ، بل كتب التاريخ والبلدان والمعارف العامة.

ويبقى التنبيه على عدة أمور:

أولا : ثبت - إن شاء الله - أن لسان العرب وتاج العروس هما أوسع المعاجم اللغوية وأغزرها مادة، وأنهما قائمان على أساس التجميع من المعاجم السابقة ليس غير، فهما بهذا الوصف داخلان فى حيز الموسوعات، والتعامل مع الموسوعات له أدوات، منها الصبر وبذل الجهد، والنفس الطويل، والخبرة السابقة بكتب العربية فى فنونها المختلفة، فالعسر الذى يجده الباحث فى هذين المعجمين الكبيرين لا ينبغى أن يعم على سائر المعاجم العربية.

ثانيا: ابن منظور من علماء القرن الثامن والزبيدى من علماء القرن الثانى عشر، وقد سبقتهما جهود كثيرة فى التأليف المعجمى، وهذه التآليف خضعت لمناهج مختلفة فى المادة والترتيب، وكلها قائمة على اليسر والسهولة، مثل الصحاح ومختاره وأساس البلاغة للزمخشرى ، والمصباح المنير للفيومى.

ثالثا: هناك طائفة من المعاجم اللغوية قائمة على فكرة الأبنية، فالمنهجية تحكمها، والغاية فيها واضحة، مثل إصلاح المنطق لابن السكيت (٢٤٤هـ) وديوان الأدب لأبى إبراهيم الفارابى (٣٥٠هـ) وهو غير الفارابى الفيلسوف ، ومثل كتب الأفعال لابن القوطية (٣٦٧هـ)، وللسرقسطى (بعد ٤٠٠ هـ) وابن القطاع (٥١٥) إلى جانب معاجم الأضداد والمشترك اللفظى، ومعاجم المعانى، والأجناس اللغوية، وأعلاها المخصص لابن سيده (٤٥٨هـ) ، ثم معاجم الموضوعات الخاصة، مثل معاجم غريب القرآن وغريب الحديث، وما كتب فى خلق الإنسان والبهائم والحشرات والإبل والخيل والنبات ، والمطر واللبن، وما كتب فى نوادر الأبنية.

رابعاً : مما ينبغى أن يضم إلى المعجم اللغوى تلك المؤلفات التى عنيت بشرح ألفاظ ومصطلحات العلوم، وهذه المؤلفات تنقسم إلى قسمين أ: مؤلفات عامة ، تجمع المصطلحات المستخدمة فى كافة العلوم الإسلامية - بما فيها علوم اللغة العربية - أو فى أكثر هذه العلوم دون تمييز . ب: مؤلفات خاصة ، يفرد كل منها لمصطلحات علم واحد، أو مجموعة قليلة من علوم متقاربة.

ومن أشهر مؤلفات القسم الأول: مفاتيح العلوم للخوارزمى (٣٨٧هـ)، والتعريفات للسيد الشريف الجرجانى (٨١٦هـ) والكليات لأبى البقاء الكفوى (١٠٩٤هـ) - وهذا الكتاب من أعظم الكتب وأنفعها، وإنى أنصح به كل طالب علم - وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى، أتم

تاليفه سنة (١١٥٨هـ). وأبجد العلوم لصديق القنوجى (١٣٠٧هـ). أما مؤلفات القسم الثانى فشىء كثير، لا يتسع له هذا المقام ، أنظره فى مقدمة الدكتور حسن محمود الشافعى للكتاب: المبين فى شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين، لسيف الدين الآمدى (٦٣١هـ) ثم انظر كتابى: الموجز فى مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم.

فهذا هو بناء المعجم العربى، بناء ضخم متماسك، واضح المعالم، قريب المورد، ميسور الاجتناء، ما لم تطبق عليه نظام المعجم الأوربى، وتنتظر منه أن يعطيك ما يعطيكه ذلك المعجم.

★★★

وبعد : فإن من الخير والعدل أن نتوقف عن الطعن فى معاجمنا اللغوية، ونمسك عن سوء الترتيب وتشويش المادة، نتجاوز هذا كله، ثم ننظر فى أمر هذه المعاجم: نستدرك فائتها، ونكمل نقصها، ونبرز فوائدها ، ونيسر سبيلها، وفى ذلك الطريق، أطرح هذه المقترحات:

أولا : جمع اللغة التى جاءت فى كتب العربية الأخرى غير المعاجم، وذلك ما تراه فى أشعار العرب التى شرحها أئمة الأدب واللغة، من أمثال الأصمعى وتلميذه أبى نصر الباهلى، وأبى عمرو الشيبانى، وأبى العباس الأحول، وابن السكيت وثعلب والسكرى، وقد قدم هؤلاء مادة لغوية غزيرة من خلال شروحهم لما جمعوه من شعر، هذا إلى اهتمام علماء كل فن وعلم باللغة، يقدمونها بين يدى علومهم، كالذى تراه مثلا من شرح أبى على الفارسى لمفردات اللغة فى كتابه: الشعر أو شرح

الأبيات المشكلة الإعراب، وكذلك ما صنعه ابن الشجرى فى كتابه: الأمالى النحوية. وبعض هذه الشروح اللغوية لم يرد فى المعاجم اللغوية المتداولة، وقد تنبه إلى ذلك ونبه عليه مشايخنا فيما نشروه من كتب الأوائل، ومن ذلك ما ذكره شيخنا أبو فهر بآخر طبقات فحول الشعراء باسم «ألفاظ من اللغة أخلت بها المعاجم أو قصرت فى بيانها» وما ذكره أستاذنا عبدالسلام هارون رحمه الله ، من إحصاء لهذه الألفاظ والكلمات التى لم ترد فى المعاجم بآخر: البيان والتبيين ومقاييس اللغة، والأصمعيات والمفضليات ومجالس ثعلب.

ومن تجاربى الشخصية فى التماس الشروح اللغوية من دواوين الشعراء: أنى كنت أبحث يوما عن توثيق كلام فى اللغة لأبى العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب (٢٩١هـ)، فنظرت فى المطبوع من كتبه اللغوية، المجالس ، والفصيح، فلم أجد فيها كلامه الذى نقله عنه الأئمة، ثم نظرت فى شرحه على ديوان زهير بن أبى سلمى، فوجدت بغيتى فيه، ومادلنى على ذلك إلا فهرس اللغة الذى صنفه محققو الديوان من مشيخة دار الكتب المصرية.

ثانيا: استخراج المواد اللغوية المذكورة فى المعاجم فى غير أبوابها، كأن تجد مثلا كلاماً على مادة (قلب) فى أثناء مادة (بدأ) ومثل هذا كثير، فإننا نجد ألفاظاً وتراكيب قد ذكرت فى غير موادها؛ لدواعى الاستطراد والمناسبة، ولاسيما فى لسان العرب وتاج العروس، لاتساع مادتهما وكثرة نقولهما، كما عرفت من قبل. ومن أنفع ما قرأت من ذلك

ما صنعه الدكتور محمد حسن جبل، فى كتابه الذى سماه: «الاستدراك على المعاجم العربية فى ضوء مئتين من المستدركات الجديدة على لسان العرب وتاج العروس»، وقد نشره منذ تسع سنوات، ولعله يمضى فى هذا الطريق إلى نهايته، هو ومن يختار من تلاميذه، ثم رأيت فى نشرة دار العلم للملايين ببيروت لكتاب «الجمهرة» لابن دريد (٣٢١هـ) رأيت فى هذه النشرة فهرساً نافعا جدا فى هذا المقترح، سموه: فهرس الجذور غير الواردة فى أبوابها .

ومثل هذين المستدركين على المعاجم العربية - جمع اللغة التى جاءت فى غير المعاجم، واستخراج المواد والجذور المذكورة فى غير أبوابها من المعاجم - يمكن أن يقوم بهما معيدو أقسام اللغة العربية بالكليات الجامعية، مع شىء من التحليل والدراسة، ويحصلوا بها على الماجستير والدكتوراه، بدلا من تلك الموضوعات المكرورة المتشابهة التى يدخل فيها اللاحق على السابق.

ثالثا : إعادة نشر معاجمنا العربية التى طبعت منذ زمن بعيد، بالاستفادة من التقدم الطباعى الحديث، باستخدام الألوان، والتوسع فى علامات الترقيم وأوائل السطور والفقرات ، وإبراز أوائل المواد وآخرها . ومن أعظم التجارب وأنفعها التى ينبغى الاستفادة منها فى هذا السبيل: ما قام به الناشر السورى النابه «رياض دعبول» صاحب مؤسسة الرسالة، فى تلك الطبعة العظيمة من «القاموس المحيط» للفيروزابادى (٨١٧ هـ)، وقد جاءت هذه الطبعة العالية فى مجلد واحد (١٧٥٠)

صفحة، فاختصر المجلدات الأربع التى كان يطبع عليها القاموس قديما، وقد اتبعت مؤسسة الرسالة هذه الخطوات فى إخراج تلك الطبعة الرائعة من القاموس، التى ظهرت الطبعة الثانية منها سنة ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧م:

١ – تحلية النص وتنسيقه بإدخال علامات الترقيم.

٢ – وضع كل مادة جديدة من أول السطر، وتمييز ألفاظ المادة بالحرف الأحمر.

٣ – إثبات الحواشى أسفل الصفحة مع أرقام فى المتن تشير إليها وتدل عليها.

٤ – إثبات إشارة خط هكذا – (باللون الأحمر) للدلالة على أن الكلمة كررت فى ذاك الموضع لإيراد معنى آخر لها. فهذا الخط هو بديل عن إعادة كتابة الكلمة.

٥ – تخريج الآيات القرآنية وقراءاتها، وتبيين الشاذ من القراءات.

٦ – جعلت الآيات القرآنية بين قوسين مزركشين، والاحاديث الشريفة والأمثال بين قوسين صغيرين.

٧ – أثبت فى أعلى كل صفحة أول وآخر مادة فيها ، تسهيلاً للعثور على المادة.

وعلى نحو من هذا الإخراج الميسر طبع من «تاج العروس» ثمانية وعشرون جزءاً وبقى منه اثنا عشر جزءا، والمأمول من وزارة الإعلام

بالكويت التعجيل بإخراج هذه الأجزاء الباقية من الكتاب الذى ظهر الجزء الأول منه عام ١٩٦٥م.

رابعا: إعادة نشر «لسان العرب» أشهر المعجمات العربية، وقد طبع أول مرة بمطبعة بولاق سنة ١٣٠٠ هـ، فقد مضى على طبعه (١١٥) سنة، وقد آن الأوان لكى نظهره فى طبعة تليق به، وتيسر سبيل الانتفاع به، باستخدام التطور الطباعي الحديث كما ذكرت، ثم تخليصه من شوائب التصحيف والتحريف التى منى بها، وذلك بجمع كل ما كتبه أهل العلم فى ذلك ، ومنهم العلامة المغفور له أحمد تيمور باشا، وقد نشر جزءين صغيرين فى تصحيح اللسان، أحدهما، فى مطبعة الجمالية سنة ١٣٣٤هـ، والآخر فى المطبعة السلفية سنة ١٣٤٣هـ، وكذلك صنع أستاذنا عبدالسلام هارون، برد الله مضجعه، فى كتابه الذى سماه: «تحقيقات وتنبيهات فى معجم لسان العرب» وطبعه سنة ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م، وقد استدرك غيرهما شيئاً من ذلك على اللسان، فيجمع ذلك كله ، وينزل على منازله من المواد اللغوية، مع مراجعة الكتاب على مراجعه الخمسة التى ذكرتها من قبل، وقد طبعت كلها.

فهذه المقترحات وغيرها مما يخدم لغتنا، وييسر سبيل الانتفاع بمعاجمها، أما ما يقال من تغيير ترتيب المعاجم العربية، وإعمال يد الإصلاح فيها، بالحذف والتقديم والتأخير، فكلام لا يصدر إلا عمن لا يحترم لغته، ولا يعرف تاريخه، وربنا المستعان .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

النحو العربى والحمى المستباح

من أمثال العرب الشائعة قولهم: «ذكرتنى الطعن وكنت ناسيا»، ويضرب فى الحديث يستذكر به حديث غيره، كما قال الزمخشرى، وقال أبوهلال العسكرى : يضرب مثلا للشئ ينساه الإنسان وهو محتاج إليه. وقد ذكرت ذلك حين قرأت فى جريدة الأهرام ١٩٩٦/٦/٢٦م مقالة للأستاذ الشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى، عنوانها «حين يستوى الصمت والكلام» وقد أعاد فى هذه المقالة كلاما قديما عن اللغة والنحو، كان قد كتبه فى الأهرام أيضا بتاريخ ١٩٩٢/٣/٤م و ١٩٩٢/٨/٢٦م ، وكنت قد رددت عليه فى عددين من الهلال (نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٢م).

ويقول الأستاذ أحمد عبدالمعطى حجازى فى كلمته الأخيرة هذه «وبعض الناس يظنون أن اللغة معناها النحو، ولهذا قد يستغربون هذه الضجة التى نثيرها؛ لأن القيامة فى رأيهم لن تقوم إذا أخطأ أحدنا أو أخطأنا جميعا، فجعلنا الفاعل منصوبا أو حتى مجرورا بدلا من أن نجعله مرفوعا كما يطالبنا النحاة والحقيقة أن هذا فهم بالغ السذاجة، فاللغة ليست النحو، والمبالغة فى الاهتمام بالنحو ليست دائما دليلا على نهضة أدبية أو حاسة لغوية يقظة، بل ربما كانت بالعكس دليلا على ضعف السليقة وانحطاط الملكة ..

هكذا رأينا أن عصور الانحطاط التى شهدتها الآداب اليونانية فى المرحلة الهللينية أو السكندرية كانت مصحوبة بنشاط واسع لعلماء

النحو والعروض، وكذلك فى عصور الانحطاط التى شهدتها روما فى القرن الرابع الميلادى ؛ وكذلك فى عصور الانحطاط التى شهدها الأدب العربى فى العصر المملوكى، ففى ذلك العصر الذى تراجع فيه الشعر وتدهورت الكتابة ظهر ابن منظور وابن هشام» .

هكذا قال الأستاذ حجازى، وقد قرأت كلامه هذا أكثر من مرة، وأعطيته حظه من النظر والتأمل، ثم قلبته ظهراً لبطن، والتمست لكاتبه المعذرة، فما استقام على وجه، ولاكشف عن جديد مما يكتبه الأستاذ حجازى، وما يكتبه غيره الآن عن النحو، هذا العلم الذى هو ملاك العربية وقوامها، والذى يقول عنه أبو العباس ثعلب أحد أئمة العربية فى القرن الثالث: «لايصح الشعر ولا الغريب ولاالقرآن إلا بالنحو، والنحو ميزان هذا كله» (مجالس ثعلب ص ٣١٠) ، وكان ينبغى على أبى العباس ثعلب أن يضيف «ولا الفقه» فقد قال أبو بكر الشنترينى من علماء القرن السادس «ولقد رأيت جماعة من الفقهاء المتقدمين الذين لم يبلغوا درجة المجتهدين قد تكلموا فى مسائل من الفقه فأخطأوا فيها، وليس ذلك لقصور أفهامهم، ولاالقلة محفوظاتهم، ولكن لضعفهم فى هذا العلم - يعنى علم النحو - وعدم استقلالهم به» تنبيه الألباب على فضائل الإعراب ص ٦٣ .

كتاب سيبويه والقياس

وروى أن أبا عمر الجرمى - من نحاة القرن الثالث - قال : «أنا مذ ثلاثين سنة أفتى الناس فى الفقه من كتاب سيبويه » فحدث ابن شقير

بهذا الحديث المبرد، على سبيل التعجب والإنكار! فقال المبرد : «أنا سمعت الجرمى يقول هذا - وأومأ بيديه إلى أذنيه - وذلك أن أبا عمر الجرمى كان صاحب حديث فلما علم كتاب سيبويه تفقه فى الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يُتعلم منه النظر والتفتيش» (كتاب سيبويه ١/٥) وروى ياقوت هذا الخبر برواية أخرى «قال الجرمى: أنا منذ ثلاثين سنة أفتى الناس فى الفقه من كتاب سيبويه، فقيل له : وكيف ذاك؟ قال: أنا رجل مكثر من الحديث، وكتاب سيبويه يعلمنى القياس، وأنا أقيس الحديث وأفتى به» (معجم الأدباء ص ١٤٤٣، طبعة د. إحسان عباس)، وهى أصح الطبعات .

هذا وقد روى الزجاجى قصة تؤكد هذا الخبر ، قال: «وكان أبو عمر الجرمى يوما فى مجلسه وبحضرته جماعة من الفقهاء فقال لهم : سلونى عما شئتم من الفقة، فإنى أجيبكم على قياس النحو، فقالوا له : ما تقول فى رجل سها فى الصلاة فسجد سجدتى السهو فسها؟ فقال : لاشئ عليه ، قالوا له : من أين قلت ذلك؟ قال : أخذته من باب الترخيم؛ لأن المرخم لا يرخم» .

ورويت هذه القصة أيضا عن أبى زكريا الفراء، بإجابة أخرى شبيهة بالسابقة وذلك قوله «أخذته من كتاب التصغير ؛ لأن الاسم اذا صغر لايصغر مرة أخرى» (مجالس العلماء للزجاجى ص ٢٥١، ٢٥٢) .

ومما ينبغى التنبه له أن بعض علماء الفقه كانوا يلجأون إلى بعض علماء النحو ؛ ليضبطوا لهم بعض مسائلهم الفقهية ومن ذلك ما ذكره

السرخسى صاحب كتاب المبسوط، فى أثناء شرحه لكتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى صاحب الإمام أبى حنيفة، قال «اعلم بأن أدق مسائل هذا الكتاب وألطفها فى أبواب الأمان، فقد جمع بين دقائق علم النحو ودقائق أصول الفقه ، وكان - أى محمد بن الحسن - شاور فيها على بن حمزة الكسائى رحمه الله تعالى، فإنه كان ابن خالته، وكان مقدما فى علم النحو» شرح السير الكبير «٢٥٢/١» .

وفى مكتبتنا العربية كتاب حاشد، يدور حول ربط الفقه بالنحو هو كتاب «الكوكب الدرى فى تخريج الفروع الفقهية على المسائل النحوية» لجمال الدين الإسنوى، من علماء القرن الثامن .

ولا أظننى بحاجة إلى الاحتشاد والاستشهاد على سلطان النحو على سائر علوم العربية، ودورانه فى نسيج الثقافة العربية، فهذا شئ مسطور فى الكتب، ومحفوظ فى صدور الذين أوتوا العلم لكن لا بأس من الإشارة إلى بعض الأمثلة التى تؤكد سلطان النحو على اللغة وعلى الفكر والفن معا، وهذه الأمثلة التى تأتيك أيها القارئ الكريم مما لايتنبه له كثير من الناس؛ لأنها مطروحة في أخبار لا يقف الناس عندها كثيرا: حكى المسعودى قال : «وذكر عمرو بن بحر الجاحظ فى كتابه فى تفضيل صنعة الكلام - وهى الرسالة المعروفة بالهاشمية - أن الخليل ابن أحمد من أجل إحسانه في النحو والعروض وضع كتابا في الإيقاع وتراكيب الأصوات» مروج الذهب ٣٢٤/٤ .

أرأيت أيها القارئ العزيز كيف قاد الإحسان فى النحو والعروض إلى الموسيقى؟ ولعل هذا خير تفسير لما قاله الأستاذ الكبير الدكتور

مصطفى ناصف، فيما نقله الدكتور محمد حماسة عبداللطيف فى كتابه الجيد : النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوى الدلالى . يقول الدكتور مصطفى ناصف : «فالنحو ليس موضوعا يحفل به المشتغلون بالمثل اللغوية، والذين يرون إقامة الحدود بين الصواب والخطأ ، أو يرون الصواب رأيا واحدا، النحو مشغلة الفنانين والشعراء، والشعراء أو الفنانون هم الذين يهتمون بالنحو، أو هم الذين يبدعون النحو، فالنحو إبداع » .

نعم النحو إبداع، ولايعرف هذا إلا من قرأ القرآن الكريم قراءة تبصر وإحسان، ثم أطال النظر فى كلام العرب : نثره وشعره وصبر نفسه على قراءة الكتب والسير فى دروبها، وحمل تكاليف العلم وأعبائه .

ونعم إن فى النحو مناطق فن وإبداع، فاذا أنت تركت نحو الصنعة المتمثل فى التعريفات والإخراج بالمحترزات والحدود والقوالب والنظام والاطراد، وما تقتضيه القسمة العقلية التى تفترض أشياء لا وجود لها؛ لاستواء الصنعة النحوية ليس غير، وسائر هذه الأمور التى جعلت أبا سعيد السيرافى يقول «النحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة» (الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ١١٥/١) .

أقول : إذا أنت تركت هذا كله، وجئت الى نحو التراكيب وبناء الجملة العربية وجدت ذلك النحو العربى الشامخ القائم على رعاية

المعانى والدلالات، التى خرجت بالنحو من دائرة القوالب والنظام والاطراد، الى العلاقات بين أجزاء الكلام، وتلك المنادح الواسعة، من التقديم والتأخير والحذف والتقدير والإضمار والفصل والاتساع والحمل والتضمين والجوار والاستغناء ورعاية الظاهر واعتبار المحل، ومعانى الحروف والأدوات ووقوع بعضها موقع بعض، وتبادل وظائف الأبنية، ثم لغة الشعر التى يسمونها الضرائر .

مقتضى المعنى وحق الإعراب

وحين انفسحت هذه الآفاق أمام النحاة الأوائل فطنوا إلى ما قد يكون من تعارض بين مقتضى المعنى وحق الإعراب، الذى هو أبرز شئ فى الصنعة النحوية، فحاولوا الإبقاء على الصنعة والنظام، مع إعطاء المعانى والدلالات حقها، وكان أبو الفتح بن جنى أسبق النحاة الى هذا التوفيق، وقد عالجه فى غير موضع من كتبه، وفى مقدمتها كتابه الفذ «الخصائص» فعقد فى ص ٢٧٩ من الجزء الأول منه بابا سماه (باب فى الفرق بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى) قال فيه : «ألا ترى إلى فرق ما بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى، فإذا مر بك شئ من هذا عن أصحابنا فاحفظ نفسك منه ولاتسترسل إليه ، فإن أمكنك أن يكون تقدير الإعراب على سمت تفسير المعنى، فهو مالا غاية وراءه، وإن كان تقدير الإعراب مخالفا لتفسير المعنى تقبلت تفسير المعنى على ماهو عليه، وصححت طريق تقدير الإعراب حتى لا يشذ شئ منها عليك وإياك أن تسترسل فتفسد ما تؤثر إصلاحه» .

وقال فى (باب تجاذب المعانى والإعراب) الخصائص ٣/٢٥٥ «هذا موضع كان أبو على - الفارسى - رحمه الله يعتاده ويلم كثيرا به ويبعث على المراجعة له وإلطاف النظر فيه وذلك أنك تجد فى كثير من المنثور والنظوم، الإعراب والمعنى متجاذبين هذا يدعوك إلى أمر، وهذا يمنعك منه، فمتى اعتورا كلاما أمسكت بعروة المعنى، وارتحت لتصحيح الإعراب».

ثم كانت القفزة الثانية فى ربط معانى الكلام ودلالته بالنحو على يد الشيخ عبدالقاهر الجرجانى فى كتابه العظيم «دلائل الإعجاز» وكانت نظريته المعروفة فى النظم هى مجلى ذلك الربط، وبتأمل هذه النظرية نستطيع أن ندرك أن المنهج العقلى المحكم الذى سار عليه عبدالقاهر «هو الذى قاده الى اعتماد النحو التقعيدى (نحو الصنعة) أساسا لإدراك القيمة الحقيقية للصياغة، وما يمكن أن يتيحه هذا النحو من إمكانات تركيبية تقترب من الإنسان ومقاصده الواعية» . كما قال الدكتور محمد عبدالمطلب فى كتابه قضايا الحداثة عند عبدالقاهر الجرجانى ص ٢٨٦ .

ومما ينبغى التنبه له أن عبدالقاهر الجرجانى هذا مع شهرته الواسعة فى البلاغة بكتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة يعرف عند الأقدمين بعبد القاهر النحوى .

فهذا النحو القائم على رعاية التراكيب والدلالات فى الكلام العربى الملفوظ والمكتوب هو النحو الذى ينبغى معرفته وتأمله والاستكثار منه؛

لأنه بهذا المفهوم ملاك العربية وقوامها، بل إنه كان يعبر عنه أحيانا فى القديم بالعربية، حكى ابن جنى عن أبى العباس ثعلب، قال : «وكان يعقوب - يعنى ابن السكيت- وضيئا عظيم الخلق ، وكان ذكيا حافظا عالما بالشعر واللغة ، صالح المعرفة بالعربية ، وكان ابن قادم وغيره من أصحابنا يحتاجون إليه فى الشعر واللغة، ويحتاج هو إليهم فى العربية» (الخاطريات ص ١٩٨) وكذلك عبر ابن خلدون عن النحو بعلم العربية . انظر مقدمة ابن خلدون ص ٥٣٢) .

وجهان للفعل الواحد

ومن الشواهد على سلطان النحو على اللغة ما ذكره أبو حيان التوحيدى، قال: «سمعت فى مجلس أبى سعيد - يعنى السيرافى - شيخا من أهل الأدب يقول : ومن الأفعال ماله وجهان كشئ ينصرف على معنيين مثل أصاب عبدُ الله مالا، وأصاب عبدالله مالٌ إذ أصابه مال من قسمة ووافق زيدٌ حديثنا إذا صادفهم يتحدثون ووافق زيدا حديثنا ، إذا سره وأعجبه وأحرز زيدٌ سيفَه إذا صانه فى غمده، وأحرز زيدا سيفُهُ ، اذا خلصه من القتل وشبهه ، ولو قلت : أحرز امرؤ اجله لم يجز؛ لأن الرجل لا يحرز أجله، ولكن أجله يحرزه، إلا أن تذهب إلى قولك أحرزت أجلى بالعمل الصالح .

ثم يقول أبو حيان : انظر - فديتك - الى أثر النحو فى هذا القدر اليسير - وتعجب عنده من أبى حنيفة الصوفى حين قال لك : ان الله عز وجل أمرنا بالطاعة والإيمان، وإن لم يأمرنا بالنحو، وإلا فهات أنه

يدل على أنه أمرنا بأن نتعلم «ضرب عبدالله زيدا» وقد رأيت روغانه عن تحصيل الحجة فى معرفة ذلك: ألا يعلم أن الكلام كالجسم والنحو كالحلية وأن التمييز بين الجسم والجسم إنما يقع بالحلى القائمة والأعراض الحالة فيه، وأن حاجته الى حركة الكلمة بأخذه وجوه الإعراب حتى يتميز الخطأ والصواب، كحاجته الى نفس الخطاب، وليس على كلامه قياس، ولا فى ركاكة بنى جنسه التباس وإنما غره من هو أنقص منه فطرة وأخس نظرا وفكرة، أتراه يصل الى تخليص اللفظ المبنى على معنى دون اللفظ المبنى على معنى آخر، إلا بحفظ الأسماء وتصريفها ؟ أو تراه يقف على تحصيل المعنى المدفون فى هذا اللفظ دون المعنى المدفون فى هذا اللفظ إلا بتمييز وجوه حركات اللفظ ؟» (البصائر والذخائر ١٧٩/ ١ ، ١٨٠) .

وفى هذا النص – فوق ماأوردته له – إشارة الى ضيق بعض الناس بالنحو من قديم، وهذا مما يرجع إلى ضعف الهمم وقصور الخطى ليس غير، على نحو ما قال ربنا عز وجل : (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) سورة الأحقاف ١١، فما ينبغى أن يتخذ مثل ذلك حجة على اطراح النحو أو إهماله .

على أن مثل «أبى حنيفة الصوفى» هذا لاينبغى أن يهتم برأيه فى النحو واستصعابه له، وذلك لجهالة شأنه وخفوت ذكره، أما أن يأتى شاعر ضخم مثل الفرزدق فيسخر من قواعد النحو، فيما أجاب به عبدالله بن أبى إسحاق الحضرمى فى القصة المشهورة، وقوله «علينا أن

نقول وعليكم أن تتأولوا» أو أن يؤثر عن الفيلسوف الشهير «ابن الراوندى» - على زندقته وإلحاده - طعن فى النحو ونقض على النحويين، فهذا الذى ينبغى الوقوف عنده والاحتفال به، وقد قلت رأيى فى قصة الفرزدق تلك، فى الهلال (ديسمبر ١٩٩٢م)، وانتهيت يومئذ إلى أن قول الفرزدق وقول سواه من الشعراء الذين أظهروا سخطهم على النحو وقواعده إنما هو من باب المعابثة والاستطالة بالذكاء وكأنهم يريدون أن يقولوا : إن نحوكم أيها النحاة صنعة ونحونا فطرة وآية ذلك أن شعرهم الذى حمل سخريتهم من النحاة ليس فيه شئ خارج عن النظام النحوى، أو خارق لقواعده، وكأنها سخرية بالنحاة لا بالنحو .

ومع هذا المأثور عن الفرزدق من استخفافه بالنحاة وخروجه أحيانا قليلة عن النظام النحوى، فقد بقى جمهور شعره على الجادة النحوية، وظل مددا ثريا للنحاة ينتزعون منه شواهدهم فى الدرس النحوى واللغوى والصرفى والصوتى .

وأما «ابن الراوندى» أحمد بن يحيى بن إسحاق (٢٩٨ هـ) الفيلسوف المعروف والزنديق المجاهر بالإلحاد فقد عرف عنه الطعن على النحويين، وذلك ما ذكره أبو حيان التوحيدى قال : «وأما قوله - يعنى أبا حنيفة الصوفي - : قد نقض على النحويين ابن الراوندى نحوهم، فانه ذاهب بهذا القول عن وجه الرشد؛ لأن ابن الراوندى لا يلحن ولا يخطئ لأنه متكلم بارع وجهبذ ناقد وبحاث جدل، ونظار صبور، ولكنه استطال باقتداره على علل النحويين ورآها مفروضة بالتقريب وموضوعة

على التمثيل؛ لأنها تابعة للغة جيل من الأجيال ومقترنه بلسان أمه من الأمم فلم يكن للعقل فيها مجال إلا بمقدار الطاقة فى ايضاح الأمثال وتصحيح الأقوال » (البصائر والذخائر ١/١٨١) .

وهذا النص مهم جدا، وهو شاهد صريح على ما قلته أنا منذ أربع سنوات بمجلة الهلال، من أن الذين يهاجمون النحو قديما لايلحنون ولايخطئون وإنما هو الضيق بنحو الصنعة ليس غير، و «علل النحويين» التى ذكرها أبو حيان إنما هى من أبرز نحو الصنعة، ومن التوافق العجيب أن هذا النص الشاهد لما قلته قد جاء فيه لفظ «الاستطالة» أيضا، وقد استعملته أنا وصفا لموقف الفرزدق من النحاة، واستعمله أبو حيان وصفا لموقف ابن الراوندى من النحاة أيضا .

★★★

وضح إذن أن النحو نحوان : نحو الصنعة ونحو التراكيب، فالأول هو النظام والقواعد والتعريفات والقوالب، وما صحب ذلك كله من العلة والعامل ولبعض خلق الله الحق فى أن يضيقوا بالنحو على هذا الوصف؛ لأن فيه أحيانا ما يكد الذهن ويصدع الرأس مع ما فى بعض النحويين قديما وحديثا من ثقل وغثاثة ولكنه على كل حال علم ينبغى أن يعرف ويحاط به .

والنحو الثانى : نحو التراكيب وهو الذى اتكأ على النظام وانطلق منه إلى إدراك العلائق بين أجزاء الكلام، وتلك المنادح الواسعة التى ذكرتها من قبل وهذا تستطيع أن تدركه من أول كتاب سيبويه الى النحو

الوافى لعباس حسن على تفاوت بين النحاة فى ذلك ، وتستطيع أن تدركه أيضا فى كتب أعاريب القرآن وتوجيه القراءات السبع والعشر والشواذ، وشروح الحديث النبوى وفى شروح الشعر وكتب الأمثال وعلوم البلاغة . والنحو بهذا الوصف لايصح أن يطعن فيه أو ينتقص منه، لأن الطاعن فيه منتقص للعربية كلها، ذاهب عنها جميعها .

ومن أعجب العجب أننا لا نتنبه لمناطق العظمة فى تراثنا إلا إذا نبهنا اليها غيرنا من الطارئين على ثقافتنا وفكرنا، وهم طائفة من المستشرقين الجادين الذين عملوا بإخلاص وتفان فى الكشف عن كنوزنا وإبرازها ، فحين التفتوا الى ابن جنى وعبقريته الفذة التفتنا نحن ايضا اليه ويوم أن خرج اللغوى الأمريكى المعاصر «تشومسكى» بنظريته فى النحو التحويلى التوليدى، وما قاله عن «البنية العميقة» و «البنية السطحية» فرح كثير من المشتغلين بالدراسات النحوية عندنا وقالوا : إن ذلك يتشابه مع كثير مما قدمه النحويون العرب القدماء فى معالجتهم لتفسير الجمل فى العربية، وجهد بعضهم فى المقارنة بين جهود عبدالقاهر الجرجانى وجهود تشومسكى فى هذا السبيل ويرد الدكتور محمد حماسة عبداللطيف ذلك فيقول : «ومهما تكن أسباب هذا التشابه أو التقارب فى أسس المعالجة فإنه ينبغى ألا نعد ذلك من جانبنا شهادة للنحو العربى بل قد أبالغ فأقول وبغير تواضع كاذب أو ادعاء خادع إن العكس هو الصحيح، أى أن هذا التقارب أو التشابه قد يعد شهادة لنظرية تشومسكى» (من الأنماط التحويلية فى النحو العربى ص ٦) .

اللغة ليست هى النحو

وإذ قد فرغت من التفرقة بين نحو الصنعة الذى هو النظام ، ونحو التراكيب الذى هو التراكيب والعلاقات بين أجزاء الكلام، أعود إلى ما كتبه الأستاذ الشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى، وأول ما يلقانا من كلامه – حفظه الله – قوله : «وبعض الناس يظنون أن اللغة معناها النحو، ولهذا قد يستغربون هذه الضجة التى نثيرها؛ لأن القيامة فى رأيهم لن تقوم إذا أخطأ أحدنا أو أخطأنا جميعا فجعلنا الفاعل منصوبا أو حتى مجرورا، بدلا من أن نجعله مرفوعا كما يطالبنا النحاة».

وأقول : أما أن اللغة ليست هو النحو فهذا صحيح وقد قاله أهل العلم من قديم ، ومن أقرب من قاله من القدماء أمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوى اليمنى (٧٤٥ هـ) قال فى كتابه الطراز ٣/٤٤٢ «إن المقاييس النحوية تابعة للأمور اللغوية، فيجب تنزيلها على ما كان واقعا فى اللغة فإذا ما ورد ما يخالف الأقيسة النحوية من جهة الفصحاء، وجب تأويله ويطلب له وجه فى مقاييس النحو ولا يجوز رده لأجل مخالفته للنحو».

ومع استقلال اللغة عن النحو وتبعيته لها، فإن له سلطانا بضوابطه الإعرابية على دلالات اللغة وقد مر بك كلام ذلك الأديب الذى حكاه أبو حيان .

أما قول الأستاذ حجازى عن بُعْضهم «إن القيامة لن تقوم إذا جعلنا الفاعل منصوبا أو حتى مجرورا بدلا من أن نجعله مرفوعا كما يطالبنا

النحاة» فالأمر فى العلامة الاعرابية ليس بهذه السهولة وذلك اليسر والذين يقولون هذا إنما يستشهدون بجملة مثل «جاء محمد» ويقولون : إن الفاعل معروف سواء سكنّا الدال أو رفعناها أو نصبناها أو جررناها ، وهو كلام ركيك، لأن جملة كهذه لاتكاد توجد، لا فى الفصحى ولا فى العامية فالذى يستعملها فصيحة لابد أن يضم الدال ولايسكنها إلا اذا وقف على الدال، أما فى العامية - وبخاصة العامية المصرية - فلا يكاد الناس يستعملون فى هذا الموضع إلا الجملة الإسمية «محمد جه» وعلى لهجة أهل دمياط وما حولها «إجه» ، وفيها قلب مكانى، مثل جذب وجبذ، وأرانب وأنارب ومسرح ومرسح .

والعلامة الإعرابية هى قضية القضايا فى النحو العربى بقسميه : نحو الصنعة ونحو التراكيب، وقد أكثر الدارسون القدامى والمحدثون حولها من الكلام عنها، وعن العامل الذى جلبها ، وهل هو عامل لفظى أو معنوى مما لايتسع المقام هنا لبسطه وشرحه، ومن أجمع ما كتب فيها كتاب «العلامة الإعرابية فى الجملة بين القديم والحديث» للدكتور محمد حماسة عبداللطيف .

وهذه العلامة هى إحدى القرائن النحوية، ومهما اختلف الدارسون فى وضع هذه العلامة مع القرائن الأخرى، سبقا أو توسطا أو تأخرا، فلن يستطيع الدارس المستند إلى قراءة واسعة فى كتب النحو وفى غير كتب النحو، أن يغفل أثر هذه العلامة، وأنها أحيانا تكون حاسمة فى تحديد المعانى والدلالات، لايشركها معها غيرها، ولايقوم شئ مقامها،

وأمثلة ذلك مما يطول به الكلام جدا، وأظن أنه لا يخفى على القارئ اختلاف الدلالة في قوله تعالى : (إن الله بريء من المشركين ورسوله) سورة التوبة ٣، برفع اللام وجرها من (رسوله)، وكذلك اختلاف تقدير عدد النسوة في قولنا : «جاء سبعة رجال ونسوة» بين جر «نسوة» ورفعها، فإذا قلنا و«نسوة» بالجر، كان عددهن سبعا، لأن «نسوة» حينئذ تكون معطوفة على «رجال» وهم سبعة وإذا قلنا «نسوة» بالرفع، كانت على الابتداء، والخبر محذوف وتقدير الكلام «ونسوة لا يعلم عددهن».

سأترك هذا وأشباهه لأذكر مثالين اثنين على الإعراب وأثره في توجيه المعنى، وعلى المعنى وأثره في توجيه الإعراب، وإنما ذكرت هذين المثالين لأن الناس لاتلتفت اليهما ولا تقف عندهما .

الفرق بين الرفع والنصب

المثال الأول، ذكره ابن هشام في المغني ٢/٥٢٨ «قال الشلوبين (٦٥٤هـ) : حكى لي أن نحويا من كبار طلبة الجزولي سئل عن إعراب (كلالة) من قوله تعالى : (وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة) سورة النساء ١٢، فقال : أخبروني ما الكلالة ؟ فقالوا : الورثة إذا لم يكن فيهم أب فما علا، ولا ابن فما سفل . فقال : فهي إذن تمييز » قال ابن هشام: «وتوجيه قوله أن يكون الأصل : وإن كان رجل يرثه كلالة، ثم حذف الفاعل وبني الفعل للمفعول ، فارتفع الضمير واستتر، ثم جيء بكلالة تمييزا » ثم عقب ابن هشام برأيه في المسألة .

أما المثال الثانى : فهو ما ذكره معربو القرآن الكريم فى الفرق بين الرفع والنصب فى جواب «ماذا» من قوله تعالى : (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) سورة النحل ٢٤، وقوله تعالى : (وقيل للذين اتقوا ماذا انزل ربكم قالوا خيرا) السورة نفسها ٣٠، وواضح هنا أن سياق الآيتين واحد ، فى قيل المبنى للمجهول، ثم فى صورة السؤال (ماذا أنزل ربكم)، ومع ذلك فقد جاء الجواب فى الآية الأولى برفع (أساطير)، وفى الثانية بنصب (خيرا) .

وتوجيه الرفع فى (أساطير) أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره «هو»، أما توجيه النصب فى (خيرا) فهو أنه مفعول به لفعل محذوف، تقديره «أنزل» .

قال المعربون: وإنما قدر فى الأول «هو» ولم يقدر «أنزل» لأن الآية إخبار عن الكافرين، والكافر جاحد لإنزال القرآن، وإنما هو عنده كذب وأساطير، كما حكى القرآن عنهم فى قوله تعالى : (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) سورة الفرقان ٥، وقدر فى الثانى «أنزل» لأنه من جواب المؤمنين بأن القرآن منزل من عند الله .

قال الزمخشرى عقب تلاوة الآيتين: «فإن قلت : لم نصب هذا ورفع الأول ؟ قلت : فصلا بين جواب المقر وجواب الجاحد، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للإنزال فقالوا خيرا : أى أنزل خيرا، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال، فقالوا : هو أساطير الأولين ، وليس من الإنزال فى شئ » (الكشاف ٤٠٧/٢) .

فهذا أثر العلامة الإعرابية فى تحديد الدلالة والفصل بين المعانى، وسوف تقوم القيامة فعلا فى هذا ونحوه لو رفعنا ما حقه النصب، أو نصبنا ما حقه الرفع . وترى لذلك نظائر كثيرة فى الشعر، وفى غيره من مأثور كلام العرب .

ثم يقول الأستاذ الشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى : «والمبالغة فى الاهتمام بالنحو ليست دائما دليلا على نهضة أدبية أو حاسة لغوية يقظة، بل ربما كانت بالعكس دليلا على ضعف السليقة وانحطاط الملكة، هكذا رأينا أن عصور الانحطاط التى شهدتها الآداب اليونانية فى المرحلة الهللينية أو السكندرية كانت مصحوبة بنشاط واسع لعلماء النحو والعروض، وكذلك فى عصور الانحطاط التى شهدتها روما فى القرن الرابع الميلادى..» ويجئ بعد ذلك كلام نستبقيه الى حين .

ضعف الحجة

وهذا كلام غريب حقا، وبدءة ذى بدء فليس صحيحا ولا عدلا أن نضع نحو أولئك القوم وعروضهم بإزاء نحونا وعروضنا، فالجهة منفكة كما يقول أهل المنطق . فإن الأمر على نحو ما قال أبوعمرو بن العلاء : «ما لسان حمير وأقاصى اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا» .

على أن الزج بهذه الكلمات : الآداب اليونانية، والمرحلة الهللينية والسكندرية وروما فى القرن الرابع .. كل ذلك وأشباهه مما يلقيه الكاتب الى القارئ أو السامع - وبخاصة المبتدئ - فيهزه هزا، ثم يدهشه ويرعش عقله ويخيفه (ويخضه) فتضعف حجته فى الرد عليه أو دفعه لو

وجد إليهما سبيلا، على ما جاء في الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما : «ونصرت بالرعب مسيرة شهر» .

ثم نعود الى كلام الأستاذ حجازى الذى يقول إن المبالغة فى الاهتمام بالنحو ليست دائما دليلا على نهضة أدبية .. إلى آخر ما قال وانتهى اليه من أن الاهتمام بالنحو دليل على ضعف السليقة وانحطاط الملكة .

وليس بيننا وبين الأستاذ حجازى إلا التاريخ نلوذ به ونحتكم اليه: تاريخ نشأة النحو وتاريخ الاهتمام به، ولنترك ونحن بسبيل ذلك القرن الاول وما قيل عن وضع النحو على يد أبى الأسود الدؤلى بإشارة من أمير المؤمنين على بن أبى طالب، ففى تلك الحقبة بعض غموض لا يفضى الى الاطمئنان إلى رأى، ولنقفز إلى القرن الثانى، حيث نلقى الخليل بن أحمد، عبقرى العربية، وتلميذه سيبويه الذى ترك لنا كتابا مكتملا محكما لاسبيل الى الطعن فيه أو الغض منه . وتوفى سيبويه على الأرجح سنة (١٨٠ هـ) فكان هذا القرن الثانى هو بداية التصنيف النحوى الذى مهد لما بعده، فجرى الناس فى أثره . ولنأخذ القرنين التاليين : الثالث والرابع وننظر فى حال النحو فى هذه القرون الثلاثة معا : تأليفا ومدارسة واهتماما، وإنما اخترت تلك القرون الثلاثة لأنها تمثل البداية والتدرج والنضج ، وسوف ننظر بعد ذلك فى حال اللغة والأدب فى تلك القرون الثلاثة أيضا، لنرى أثر الاهتمام بالنحو فيها علوا أو انحطاطا وفق رؤية الأستاذ حجازى .

على أنه مما ينبغي التذكير به أنه كان هناك اهتمام بالنحو في القرنين الأول والثاني قبل ظهور كتاب سيبويه، ولكنه كان اهتماما بالنحو، لا من حيث هو علم ذو قوانين وضوابط، ولكن من حيث الاستعانة به في محاصرة اللحن الذي بدأ يطغى ويفشو نتيجة اختلاط اللسان العربي بغيره من ألسنة الأمم الوافدة على المجتمع العربي . ونستطيع أن نقول : إن النحو في تلك الفترة المبكرة كان نحو السليقة والفطرة العربية المتوارثة، وهي تلك السليقة التي عبر عنها الشاعر بقوله :

ولست بنحوي يلوك لسانه ولكن سليقي أقول فأعرب

وأخبار التصدي للحن ومحاصرته في ذلك الزمان المبكر كثيرة، من أبرزها خبران يتصلان بلحنين وقعا من شخصيتين كبيرتين، لم يمنع مركزهما الاجتماعي من تنبيههما على ما وقعا فيه من خطأ :

الخبر الأول : ما وقع من الحجاج بن يوسف الثقفي «وقد سأل يحيى بن يعمر : أتسمعني ألحن ؟ قال : حرفا، قال: أين ؟ قال: في القرآن قال : ذلك أشنع له! فما هو؟ قال: تقول (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله) سورة التوبة ٢٤ - قرأها برفع (أحب) وحقها النصب لأنها خبر كان - قال الحجاج: لاجرم، لا تسمع لي لحنا أبدا . فألحقه بخراسان» (طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ١٣) كأن الحجاج غضب فنفاه .

والخبر الثانى : عن الأخفش، قال: كان أمير البصرة يقرأ (إن الله وملائكتُه يصلون على النبى) سورة الأحزاب ٥٦، برفع (وملائكتُه)، فمضيت إليه ناصحا له ، فزبرنى وتوعدنى وقال : تُلَحِّنون أمراءكم .

وفى رواية أن اللاحن كان محمد بن سليمان الهاشمى أمير البصرة أيضا ، وأنه رضى عن الأخفش لتنبيهه إياه، وأجازه . (إنباه الرواة للقفطى ٢/٤١) .

وقد قلت إن القرون (الثانى والثالث والرابع) تمثل بداية التأليف فى النحو وتدرجه ونضجه، ففى القرن الثانى ظهر كتاب سيبويه الرائد وفى القرن الثالث جاء أبو بكر بن السراج بكتابه الأصول، الذى قيل فيه: «كان النحو مجنونا حتى عقله ابن السراج بأصوله» وفى القرن الرابع جاء العلم الضخم أبو على الفارسى، إمام الصناعة النحوية وتلميذه العبقرى أبو الفتح ابن جنى، وفى وسط هؤلاء الأعلام ظهر نحاة كثيرون فى البصرة والكوفة وبغداد والشام ومصر والأندلس .

وفى تلك القرون الثلاثة ظهر النحو ظهورا بينا على ساحة الفكر العربى، وأخذ الاهتمام به أشكالا كثيرة : تأليف فى النحو خالصة، وأعاريب للقرآن الكريم، وكتبا فى توجيه قراءاته والاحتجاج لها مثل : معانى القرآن للفراء (٢٠٧هـ) - والمعانى فى ذلك الوقت يراد بها الإعراب - ومجاز القرآن لأبى عبيدة (٢١٠هـ) ومعانى القرآن للأخفش (٢١٥هـ) ومعانى القرآن للزجاج (٣١١هـ) وإعراب القرآن للنحاس (٣٣٨هـ) والحجة للقراء السبعة لأبى على الفارسى (٣٧٧هـ) والمحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جنى (٣٩٢هـ) .

ثم تجلى الاهتمام بالنحو أيضا فى شروح الشعر الجاهلى الاسلامى، وقد عنيت هذه الشروح عناية فائقة بالنحو، مثل شروح لأصمعى، وأبى نصر الباهلى وابن السكيت وأبى العباس ثعلب، وأبى العباس الأحول ، وأبى بكر بن الأنبارى، وأبى سعيد السكرى .

مظاهر الاهتمام بالنحو

ومن وراء ذلك كله كان هناك مظهر رابع للاهتمام بالنحو، وهو تلك المجالس التى كانت تعقد بين عالمين أو أكثر من علماء النحو واللغة، وقد عرفت بالمجالس النحوية، ومن أشهرها مجلس سيبويه مع الكسائى، حول المسألة الزنبورية «كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور، فإذا هو هى، أو فإذا هو إياها» . وقد حضرها هارون الرشيد . وقد جمع هذه المجالس التى بلغت ١٥٦ مجلسا - أبو القاسم الزجاجى ، فى تأليف مستقل باسم : مجالس العلماء، نشرها شيخنا عبدالسلام هارون برد الله مضجعه .

أرأيت اهتماما بالنحو أكثر من هذا ؟

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بين النهضة اللغوية والنهضة الأدبية

إن الاهتمام بالنحو كان متزامنا مع النهضة العامة التي كانت آخذة فى النمو والاتساع، فى علوم العرب وفنونهم فى ذلك الزمان، لكن التركيز هنا يكون على النهضة اللغوية والنهضة الأدبية اللتين يرى الأستاذ حجازى أنهما لاتجتمعان مع الاهتمام بالنحو:

فالعلماء الرواة يغدون ويروحون لمشافهة الأعراب فى البوادى، وكذلك رواة الشعر وجامعوه فى نشاط دائب، واللغة تدون فى تلك الرسائل الصغار القائمة على الأجناس، مثل كتب خلق الإنسان والبهائم والحشرات والخيل والإبل والنخل والنبات والمطر والسحاب واللبن، والمذكر والمؤنث. ثم تظهر المعاجم فى ذلك الوقت المبكر، مثل العين للخليل بن أحمد أو الليث بن المظفر، وكتاب الجيم لأبى عمرو الشيبانى.

ثم يتجه التأليف اللغوى وجهة أخرى، فينهض العلماء إلى تنقية اللغة، فيما عرف بلحن العامة، وقد جاء ذلك صريحا فيما صنفه الكسائى من «لحن العامة» أو ما جاء ضمنا كالذى صنعه ابن السكيت فى «إصلاح المنطق»، وما صنعه ابن قتيبة فى «أدب الكاتب».

أما النهضة الأدبية المواكبة لذلك الاهتمام النحوى فى القرون الثلاثة المذكورة، فلست أعرف سبيلا للتدليل عليها، ولا أحسب أن الأستاذ

حجازى يخفى عليه مكان هذه الكتب واجتماع النحو واللغة والأدب فيها: البيان والتبيين للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والكامل للمبرد، وأمالى أبى على القالى، ويبرز كتاب الكامل من بين هذه الكتب، بعنايته الفائقة بالنحو.

أما الشعر والشعراء فلا يخفى تألقهما فى تلك القرون الثلاثة التى اهتم فيها أهل العلم بالنحو، وهاتان قائمتان بأبرز النحاة وأبرز الشعراء الذين تعاصروا فى ذلك الزمان ، أسوقهما تذكرة للمبتدئين، أما أهل العلم فهم أقدر منى على معرفة ذلك :

النحاة : سيبويه (١٨٠هـ) الكسائى (١٨٩هـ) الفراء (٢٠٧هـ) المبرد (٢٨٦هـ) ثعلب (٢٩١هـ) الزجاج (٣١١هـ) ابن السراج (٣١٦هـ) السيرافى (٣٦٨هـ) أبو على الفارسى (٣٧٧هـ) ابن خالويه (٣٧٠هـ) ابن جنى (٣٩٢هـ) .

الشعراء : بشار بن برد (١٦٧هـ) أبو نواس (١٩٨هـ) مسلم بن الوليد المعروف بصريع الغوانى (٢٠٨هـ) أبو العتاهية (٢١١هـ) أبو تمام (٢٣١هـ) ابن الرومى (٢٨٣هـ) البحترى (٢٨٤هـ) ابن المعتز (٢٩٦هـ) المتنبى (٣٥٤هـ) أبو فراس الحمدانى (٣٥٧هـ) الشريف الرضى (٤٠٦هـ).

ومن المعروف أنه كانت هناك خصوصية بين بعض هؤلاء النحاة وبعض هؤلاء الشعراء، أذكر منها ما كان بين أبى العباس المبرد والشاعرين البحترى وابن الرومى، فالبحترى يدعو المبرد إلى حضور

مجلسه على النهر، فى قصيدة يقول فيها :

ودوام المـــدام يـــدنـــيـــك ممـــن
كـنـت تـهـوى وإن جـفـاك الحـبـيـب
فـأتـنـا يـا مـحـمـد بـن يـزيـد
فـى اسـتـتـار كـى لا يـراك الـرقـيـب

ثم يمدحه بشعر آخر، يقول فيه :

مـا نـال مـا نـال الأمـيـر مـحـمـد
إلا بـيـمـن مـحـمـد بـن يـزيـد

ديوان البحترى ص١٣٢ ، ٧٧٤ (تحقيق حسن كامل الصيرفى).

وابن الرومى يمدح المبرد أيضا فى قصيدة طويلة، بلغت عدة أبياتها (٩٨) بيتا، يقول فى أولها :

طـرقـت أسـمـاء والـركـب هـجـود
والمـطـايـا جـنـح الأوزار قـود

ديوان ابن الرومى ص١٧٥ (تحقيق د. حسين نصار).

ثم أذكر أيضا الخصوصية التى كانت بين ابن خالويه وأبى فراس الحمدانى، وقد شرح ابن خالويه ديوانه الذى نشره الدكتور سامى الدهان.

ومن أشهر الصلات بين نحوى وشاعر ما كان بين أبى الفتح بن

جني وأبي الطيب المتنبي، فقد اجتمعا معا في بلاط سيف الدولة بن حمدان بحلب، وفي مجلس عضد الدولة بن بويه بشيراز ، وكانا يتبادلان الإعجاب، ويتقارضان الثناء، وكان المتنبي يقول عن ابن جني : «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس» وكان إذا سئل عن شيء من دقائق النحو والتصريف في شعره يقول : «سلوا صاحبنا أبا الفتح» ، ثم كان إذا سئل عن معنى قاله ، أو توجيه إعراب حصل فيه إغراب دل عليه، وقال : «عليكم بالشيخ الأعور ابن جني فسلوه، فإنه يقول ما أردت وما لم أرد».

الاستشهاد بالشعر

وأما ابن جني فقد كان يجل المتنبي، وهو أول من شرح ديوانه، وقد شرحه شرحين : أحدهما كبير يسمى «الفسر» أي التفسير، وقد طبع جزء منه بتحقيق الدكتور صفاء خلوصي، والشرح الآخر صغير يسمى «الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي»، وقد طبع في جزء واحد بتحقيق الدكتور محسن غياض. ومن وراء ذلك فقد كان ابن جني يثني على أبي الطيب ويستشهد بشعره، متجاوزا بذلك ما حدده متشددو النحاة من الوقوف بالاستشهاد عند الشاعر إبراهيم بن هرمة (١٧٦هـ) ومما قاله ابن جني في ذلك عندما استشهد بشعر المتنبي : «ولا تستنكر ذكر هذا الرجل - وإن كان مولدا - في أثناء ما نحن عليه من هذا الموضع وغموضه ولطف متسربه، فان المعاني يتناهبها المولدون كما يتناهبها المتقدمون» الخصائص ٢٤/١، ومن أقواله فيه أيضا : «وحدثني المتنبي

شاعرنا، وما عرفته إلا صادقا» (الخصائص ٢٣٩/١)، «وذاكرت المتنبى شاعرنا نحوا من هذا» الخصائص ٤٠٣/٢، وكان يفاوضه فى أمور من النحو والصرف، منها قوله : «ودار بينى وبين المتنبى فى قوله «وقلنا للسيوف هلمنا» كلام فيه طول» سر صناعة الإعراب ص٧٢٢.

وحين مات المتنبى رثاه ابن جنى بقصيدة أولها:

غاض القريض وأودت نضرة الأدب

وصوحت بعد رى دوحة الكتب

فهل تصدق بعد ذلك ما يقال عن عداوة ومدابرة بين النحاة والشعراء؟

ثم هل بقى بعد ذلك موضع لقول الأستاذ الشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى «والمبالغة فى الاهتمام بالنحو ليست دائما دليلاً على نهضة أدبية أو حاسة لغوية يقظة، بل ربما كانت بالعكس دليلا على ضعف السليقة وانحطاط الملكة»، هل بقى موضع لهذا الكلام؟ إلا أن يكون الأستاذ حجازى يريد نحوا آخر، وأدبا آخر غير اللذين يعرفهما الناس فى تراثنا العربى.

كلام فظيع جداً

ثم نأتى إلى أخطر شئ فى كلام الأستاذ الشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى، وهو قوله في سياق الحديث عن عصور الانحطاط التى يسود فيها الاهتمام بالنحو والعروض، يقول : « وكذلك فى عصور الانحطاط

التى شهدها الأدب العربى فى العصر المملوكى، ففى ذلك العصر الذى تراجع فيه الشعر وتدهورت الكتابة ظهر ابن منظور وابن هشام» . انتهى كلام الأستاذ حجازى بنصه وفصه، وهو كلام فظيع جدا، مفزع جدا، وهو فظيع جدا ، ومفزع جداً، لأنه دال بصريح اللفظ على أن ابن منظور وابن هشام آيتان من آيات الضعف ، ومظهران من مظاهر الانحطاط.

وأنا أسأل الشاعر الكبير، وأقول له : من أنبأك هذا؟ ثم ماهى جريرة ابن منظور وابن هشام عندك حتى تهوى بهما إلى مكان سحيق من التخلف والانحطاط؟ أهو شىء استنبطته أنت بقراءاتك، وقامت لك شواهده ، ولمعت أمامك أدلته، فنبئنا بتأويله؟ أم هو كلام سقط إليك مما نقرأه من البلايا التى تصب علينا هذه الأيام، تريد أن تغتال تاريخنا اغتيالا، تحت شعار : تنوير العقل العربى؟ فدلنا على مصدر هذا الكلام، واخرج من العهدة فيه.

وابن منظور هنا: هو جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على الأنصارى الأفريقى المصرى، ينتهى نسبه إلى الصحابى الجليل رويفع بن ثابت، والأفريقى فى نسبه معناها التونسى، فقد كانت إفريقية فى ذلك الزمان يراد بها تونس الآن.

ولد ابن منظور يقينا بالقاهرة سنة ٦٣٠هـ، ونشأ بها وتعلم وصنف، وتوفى بها أيضا سنة ٧١١هـ، وخلاصة أمره أنه كان مشتغلا بالأدب نظما ونثرا، مع معرفة بالنحو واللغة والتاريخ، وتولى وظيفة كاتب الإنشاء بالدولة، وكان كثير النسخ ذا خط حسن.

وقد عرف ابن منظور باختصاره للكتب، فاختصر كتاب الأغانى، وهذبه ورتبه على الحروف، وقد طبع هذا المختصر فى ثمانية مجلدات.

ومن الكتب التى اختصرها ابن منظور أيضا : الحيوان للجاحظ، وزهر الآداب للحصرى، ويتيمة الدهر للثعالبى، والذخيرة لابن بسام، ونشوار المحاضرة للتنوخى، وتاريخ بغداد للخطيب، والذيل عليه لابن النجار، وصفة الصفوة لابن الجوزى، ومفردات ابن البيطار، وسرور النفس بمدارك الحواس الخمس للتيفاشى، نشره الدكتور إحسان عباس، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ويقوم على تحقيقه الآن الدكتور رضوان السيد الأستاذ بالجامعة اللبنانية.

وقد تغيا ابن منظور من تأليف معجمه هذا غايات، أبنت عنها فى مقالة لى بالهلال (مارس ١٩٩٢م) لكنى أستأذن قارئى الكريم فى أن أعيد ذكر غاية واحدة من تلك الغايات - لاتصالها بموضوعنا الآن - وهى غاية قومية وطنية، باعثها الغيرة على العربية والعصبية لها، بعد أن اطرح بعض الناس الحديث بالعربية، وهجروها إلى اللغة الأعجمية، وهى التركية فى ذلك الزمان .

اختلاف الألسنة

يقول ابن منظور فى مقدمة اللسان : «وذلك لما رأيته قد غلب فى هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن فى الكلام يعد لحنا مردودا، وصار النطق بالعربية من المعايب معدودا، وتنافس الناس فى تصانيف الترجمانات فى اللغة الأعجمية، وتفاصحوا فى غير

اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب فى زمن أهله بغير لغته يفتخرون، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون».

فهذا حديث ابن منظور، سقته على سبيل الوجازة والاختصار.

أما حديث ابن هشام فمجمل القول فيه أنه : جمال الدين أبو محمد عبدالله ابن يوسف بن أحمد.. بن هشام الأنصارى المصرى، ولد بالقاهرة سنة (٧٠٨هـ) وتوفى بها سنة (٧٦١هـ)، حصل علوم العربية، واشتغل بالتدريس والإقراء، وصنف تصانيف كثيرة، جمهورها فى علم النحو، وقد بلغت تآليفه فيه نحو (٣٠) مصنفا، ما بين رسالة صغيرة، إلى كتاب كبير، ومن أشهرها : الإعراب عن قواعد الإعراب، وقطر الندى وبل الصدى، وشذور الذهب، وأوضح المسالك وشرح ألفية ابن مالك، المسمى أوضح المسالك . ويأتى على رأس مصنفاته النحوية كلها: كتابه المانع : «مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب» وهو الذى يقول عنه ابن خلدون : «ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها، أستوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما فى الصناعة من المتكرر فى أكثر أبوابها، وسماه بالمغنى فى الإعراب.

وكان ابن خلدون قد وصف أمر ابن هشام على الجملة، فقال وهو يتحدث عن صعوبة تحصيل علم من العلوم من جميع جهاته، والإحاطة به كله، ومثل لذلك بعلم العربية، وهو علم النحو، فقال فى سياق حديث طويل : «كيف يطالب به المتعلم وينقضى عمره دونه، ولا يطمع أحد فى

الغاية منه إلا فى القليل النادر، مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تآليف رجل من أهل صناعة العربية، من أهل مصر، يعرف بابن هشام، ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة، لم تحصل إلا لسيبويه وابن جنى وأهل طبقتهما لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه، ودل على أن الفضل ليس منحصرا فى المتقدمين» المقدمة ص ٥٣٢.

(تحقيق) شاعت عن ابن خلدون فى حق ابن هشام كلمة تناقلها مترجموه، وهى قوله : «مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية ، يقال له ابن هشام ، أنحى من سيبويه » و لم أجد هذه الكلمة بسياقها هذا وحروفها فى مقدمة ابن خلدون، وإن كان الكلام الذى نقلته من المقدمة يؤول إليها ويدل عليها. وقد تتبعت الكلمة فوجدت أن الذى ذكرها بهذا النسق والسياق : هو ابن حجر العسقلانى، فى ترجمة ابن هشام من الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ٢/٤١٦، ويلاحظ أن ابن حجر صدر هذه الكلمة بقوله «قال لنا ابن خلدون» فهو سماع إذن، وقد ذكر شمس الدين السخاوى فى الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ١٤٨/٤، أن ابن حجر اجتمع بابن خلدون مرارا، وسمع من فوائده.

تعمق مذاهب النحاة

ويقول أستاذنا الدكتور شوقى ضيف عن ابن هشام «وقد تحول يتعمق مذاهب النحاة، وتمثلها تمثلا غريبا نادرا، وهى مبثوثة فى مصنفاته مع مناقشتها وبيان الضعيف منها والسديد، مع إثارته ما لا

يحصى من الخواطر والآراء فى كل ما يناقشه وكل ما يعرضه».. ويقول أيضا عن مصنفاته : «وهو يمتاز فيها جميعا بوضوح عبارته، مع الأداء الدقيق إلى أبعد حدود الدقة، مسهبا مطنبا، أو موجزا مجملا» المدارس النحوية ص٢٤٦ و ٢٤٧ .

فهذا ابن هشام يراه الأستاذ أحمد عبدالمعطى حجازى مظهرا من مظاهر الضعف والانحطاط، ويراه ابن خلدون وشوقى ضيف : محيى صناعة النحو فى تلك العصور الوسطى بعدما كادت تؤذن بالذهاب، وأنه قرين سيبويه وابن جنى، وأنه قد تعمق مذاهب النحاة وتمثلها ثم أحسن عرضها ومناقشتها... وهذا على نحو ما قال ربنا عز وجل (إنهم يرونه بعيدا، ونراه قريبا) سورة المعارج ٦ ، ٧.

وهذا ابن منظور يراه الأستاذ حجازى مظهرا من مظاهر الانحطاط والضعف أيضا، ويراه أهل العلم بالعربية صاحب أول معجم عربى كبير، جمع جذور اللغة العربية بمناهج المعاجم المختلفة «لسان العرب» تذكره ولا تصفه، لأنه أحد معالم حضارتنا العربية.

على أن للقضية وجها آخر، هو ما ذكره الأستاذ حجازى ويذكره غيره من الدارسين الجامعيين وغير الجامعيين، من وسم العصر المملوكى بالانحطاط والتخلف لضعف الأدب والشعر فيه. ورد هذا الكلام ونقضه فى غير هذا المكان، لكنى أشير هنا إلى أنه لولا ما صنعه ابن منظور وابن هشام ومن إليهما من لغويى ونحاة وعلماء القرن الثامن (وهو العصر المملوكى) من هذه الأعمال الموسوعية لضاع علم كثير،

ولضعفت ذاكرة الأمة العربية ثم تلاشت، وهو (الدور) العظيم الذى اضطلعت به مصر والشام فى ذلك الوقت غداة سقوط بغداد، وإيذان شمس الأندلس بالغروب، فكانت القاهرة ودمشق ملاذا وملجأ لعلماء بغداد، والأندلس، فواصلوا المسيرة التى بدأوها فى بلدانهم قبل أن تغشاها النوائب، وشاركوا قرناءهم من علماء مصر والشام فى تلك الأعمال التجميعية الضخمة، لابن منظور وابن هشام وصلاح الدين الصفدى، وشمس الدين الذهبى، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأبى الحجاج المزى، وأبى حيان الأندلسى، وابن سيد الناس اليعمرى، وشهاب الدين النويرى، صاحب «نهاية الأرب فى فنون الأدب» الذى يقول فيه المستشرق ڤازيليف «إن نهاية الأرب على الرغم من تأخر عصره يحوى أخبارا خطيرة عن صقلية، نقلها عن مؤرخين قدماء لم تصل إلينا كتبهم، مثل ابن الرقيق وابن رشيق وابن شداد وغيرهم».

فما ينبغى أن تكون بعض مظاهر الضعف فى الشعر والكتابة الأدبية فى العصر المملوكى، صارفة الأنظار عن مظاهر الحضارة العربية فى ذلك العصر، فلنكف إذن عن ثلب هذا العصر وتجريحه. ومرة أخرى : لولا ابن منظور وابن هشام وأشباههما من الحفظة لضاع الإرث والورثة، ولم يجد الأستاذ حجازى عربية يقيم بها لسانه، وينسج منها شعره.

وليعلم الشاعر الكبير أن مكانته العالية التى أقتعدها فى دنيا الشعر فى زماننا هذا ليست مؤهلة له لأن يذهب هذه المذاهب فى دنيا اللغة

والنحو، فاللغة بحر لا ساحل له، والنحو صعب وطويل سلمه، ولست آمن إذا ظل الشاعر الكبير ماضيا فى هذا الطريق : طريق الجرأة على اللغة والنحو، لست آمن أن يقوم له أحد المعيدين الصغار الذين تخصصوا فى هذين العلمين، فيقعد له كل مرصد، ويأتيه من كل مكان، حتى ينقض كلامه عروة عروة، وأول راض سنة من يسيرها» كما يقول خالد بن زهير الهذلى.

هجوم وازدراء

على أن هذا الذى ذكره الأستاذ أحمد عبدالمعطى حجازى عن النحو العربى إنما هو نفخ فى نار خامدة، شبت فى العقود الأخيرة من هذا القرن ثم طفئت، ثم شبت ثم طفئت.. وهكذا، على نحو ما قال ربنا سبحانه : (كلما خبت زدناهم سعيرا) سورة الإسراء ٩٧.

وإذا كانت ثقافة هذه الأمة العربية كلها قد تعرضت للتنقص والتجريح، كقولهم فى تفسير القرآن إن به إسرائيليات، وقولهم فى الحديث إن به وضعا وضعفا، وإن فى الشعر انتحالا، وفى الأدب ذاتية، وفى البلاغة تكلفا وزخارف وأصباغا.. إلى آخر هذا الكلام المعاد الممجوج، فإن النحو العربى قد ذهب بالهجوم كله وبالازدراء كله. على أن أغرب ما فى الأمر أنه قد صار (ملطشة) يتكلم فيه من يعرف ومن لايعرف، فإن بعض الذين يكتبون عن النحو الآن لا صلة لهم به، لا من قريب ولا من بعيد، وإنما هى نقول ومتابعات ينقلها لاحق عن سابق، ثم ينسبها إلى نفسه ويتنفخ بها على خلق الله ، وهذا هو الزور بعينه ، على

ما جاء فى الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور»، وهكذا تسير الأمور، وكأن الأمر فى الكتابة عن النحو قد صار (على المشاع).

ومن ذلك ما كتبه الأستاذ بدر نشأت فى الأهرام ١٩٩٦/٧/٥م بعنوان «بين فصحى نعرفها وعامية نجهلها» وفى هذه الكلمة ترديد لأقوال السابقين، مع تخليط كثير، وجرأة عجيبة، من مثل قوله: «إن القراءة الصحيحة السليمة تفتقد السرعة والمباشرة ، فالقراءة بالتنوين تطيل الوقت، وتضاعف جهود النطق، وهى أمور ما عادت تتفق وإيقاع العصر وتتعارض مع النزوع البشرى المطرد إلى الاقتصاد فى الجهد والوقت، فاللغة كائن حى، لابد لها من أن تلاحق إيقاع الحياة وتتكيف معه». وأنا لا أفهم معنى القراءة بالتنوين هذه؟ هل التراكيب النحوية كلها تجرى فى نطقها على التنوين فما بال الأسماء التى لايجتمع معها التنوين، مثل الأسماء المعرفة بأل، والأسماء المعربة المضافة، والأسماء المبنية، والأسماء الممنوعة من الصرف، والمثنى والمجموع؟ ثم ما بال الأسماء الموقوف عليها؟

ويقول الأستاذ بدر نشأت أيضا : «ويجب أن يعلم النحويون عندنا أن علم النحو العربى يحتاج فى كثير منه إلى صياغة جديدة، فقد قام على رؤية معيارية، وعمد إلى الافتراض، واستنباط القواعد التى تضبط الجانب الكتابى، وأهمل الجانب الصوتى الذى هو موطن اللغة الأصلى، وهو ما أدى إلى ما نشكو منه اليوم من تعقيد فى اللغة العربية».

وهذا كلام مكرور ومعاد، أعرف منابته ومغارسه، كما قالت العرب فى أمثالها : «شنشنة أعرفها من أخزم»، ولا تغرنك هذه العبارات : «إيقاع العصر، واللغة كائن حى، وصياغة النحو صياغة جديدة..» أفبعد أربعة عشر قرنا من جهود الرجال الكبار تطلب للنحو صياغة جديدة؟ (صياغة إيه يا راجل؟ وحد الله وصلى على اللى حيشفع فيك!) ولا بأس علينا إن شاء الله من الإلمام بشىء من العامية، فإنها تحلو فى هذا الموضع، ولا تقوم الفصحى مقامها، وأيضا فإن ذلك من باب المناسبة أو المشاكلة ، كما يقول علماء البلاغة ؛ لأن الأستاذ بدر نشأت قصاص بارع، ومكانه فى الأدب معروف، ومازلت أذكر مجموعته القصصية الجيدة التى نشرها فى الخمسينات «مساء الخير ياجدعان» وقد مزج فيها بين الفصحى والعامية مزجا رائعا، مع تطويعه العامية المصرية لبعض المحسنات البديعية، كالجناس والتورية، على نحو ما كان يفعل الشاعر العظيم فؤاد حداد، رحمه الله، لكن أن يسلك الأستاذ بدر نشأت تلك الدروب الضيقة فى النحو والصرف واللغة، فهذا مالا يجمل به، ولا يحسن منه.

أقول قولى هذا، وأنا أعلم يقينا أننا جميعا أصحاب هذه اللغة، لنا أن نتحاور حولها، وأن نبدى الرأى فيها، لكن الأمر مشروط بتقدم الأهلية وامتلاك الأدوات، كما قالت العرب فى أمثالها «ثبت نسبا واطلب ميراثا».

ويبدو لى أن مجال الحديث مع من يهاجمون النحو العربى ينبغى أن يأخذ منحى آخر، ففى نيتى إن شاء الله أن أسأل من يكتب عن النحو

الآن جملة من الأسئلة، فمثلا أقول له : ماذا تعرف عن نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة؟ ماذا قرأت من كتب النحو الأولى؟ وماذا فى مكتبتك الخاصة منها؟ ثم أسأله عن طائفة من المصطلحات النحوية التى تدور فى كتب القوم، وبعد ذلك أضع أمامه بعض أبيات من الشعر وقطعة من النثر، وأطلب إليه أن يقرأ هذا وذاك قراءة صحيحة أو مقاربة، فإن جاءت الإجابة على ذلك كله وفق المراد، قلت : أجل ونعمى عين، هات ما عندك، ومددت حبال الحديث بينى وبينه، وإن تعثر وكبا قلت: حسبك فقد سقطت مؤونة الكلام بينى وبينك، فأنت غريب المحل، ناء عن الديار.

★★★

ثم أزيدك عجبا أيها القارئ الكريم - ومن يعش ير عجبا، كما قالت العرب - أن النحو العربى الآن يهاجم أيضا من بعض الإسلاميين الذين يصرخون ليل نهار، دفاعا عن الإسلام وخوفا عليه، ولكن كيف يهاجم هؤلاء النحو؟ سمعت كبيرا منهم فى محفل عام يقول : «إن المسلمين الأوائل شغلوا بإعراب القرآن عن تطبيقه» وقد غفل هذا الغبى - نستغفر الله من فاحش القول - عن أن كثيرا من كلام ربنا عز وجل لايفهم ولا يطبق إلا إذا عرف وجهه النحوى الصحيح، والأمثلة من ذلك كثيرة لا أريد أن أطيل بذكرها، وقد ذكرت شيئا منها فى صدر كلمتى.

★★★

وما بقى إلا الإشارة إلى النفخ فى نار الهجوم على النحو العربى فى هذه الأيام، إنما خرج من كير الزميل العزيز الدكتور أحمد درويش، الذى كتب خمس مقالات بجريدة الأهرام أيضا، اختار لها عنوانا جذابا هو «أنقذوا اللغة من أيدى النحاة»، وفى هذا العنوان من الإثارة وفتح الشهية ما ترى. وأخطر ما فى كلام الزميل العزيز أنه استطال فيه بذكائه، واحتشد له بتلك المصطلحات والتراكيب التى تخطف بصر القارىء وتهزه هزا وتخيفه و(تخضه) على ما وصفت من كلام الأستاذ أحمد عبدالمعطى حجازى من قبل. وهو نمط من الكلام إن أعجب بعض الناس فإنه عند كثير منهم خفيف هين، كما قال الشاعر : «وخمر أبى الروقاء ليست تسكر».

وليس من همى هنا أن أنقض كلام الزميل العزيز أو أرده، فلذلك موضع آخر، لكنى أريد أن أذكره فقط بأن هذا النحو القديم الذى سخر منه ومن أعلامه، ثم دعا إلى إنقاذ اللغة منه ومنهم : هو الذى أنطق لسانه وفجر بيانه؛ فإن الزميل العزيز ممن ينتمون إلى جيل الحفظة : حفظة المتون، فقد التقى وهو فى طراءة الصبا ثم فى ميعة الشباب بالتحفة السنية شارحة الآجرومية، وتنقيح الأزهرية وقطر الندى وشذور الذهب وابن عقيل وأوضح المسالك، ولو أن زميلنا العزيز تعلم النحو بعيدا عن هذه الكتب، ووفق منهجه الذى يقترحه اليوم لما استقام له بيان، ولا نهضت له حجة.

وهذا الإعلال والإبدال الذى يهزأ به زميلنا العزيز : هو الذى أعانه على معرفة المعجم العربى، بمعرفة الزوائد والأصول فى الأبنية العربية، ولولا هذا الإعلال والإبدال لما عرف أن «تراث» من «ورث» وأن «ميناء» من «ونى»، وأن «تترى» من «وتر»... وهلم جرا. فهذا موضع المثل «أكلا وذما».

وما ينبغى أن يكون فى تسويغ الزميل العزيز لكلامه أنه يغار على النحو العربى، وأنه يريد له أن ينهض من كبوته، ويقوم من عثرته، لاينبغى أن يقول هذا؛ لأنه نقب نقبا وأباح حمى، فاتكأ بعض الناس على ما قاله فى مقالاته الخمس، واندفع يمينا وشمالا، يحارب بسيفه وينزع عن قوسه، فالزميل العزيز شريك فى هذه الحملة الشرسة على النحو العربى، شاء أم أبى، على ما قال الشاعر:

فإلا يكونوا قاتليه فإنه

سواء علينا ممسكاه وضاربه

ولو لم يكن إلا الوفاء لهذه السنوات التسع التى قضاها الأستاذ الدكتور أحمد درويش بالأزهر الشريف، فملأ شرايينه بدم العربية، وكست عظمه لحم الفصحى، كان فى ذلك ما يزعه عن الهجوم على النحو العربى، الذى هو ملاك العربية وسلطانها.

إن الأيام الأولى عزيزة علينا، نحرص عليها، ونذود عنها، ونفخر بها، أليس كذلك يا دكتور؟

ولشد ما يعجبنى ويؤنسنى كلام الأستاذ الشاعر محمد إبراهيم أبوسنة، الذى ما يفتأ يذكر فضل الأزهر عليه، وعلى لسانه، فيقول : «كانت دراستى فى الأزهر قد أمدتنى بفيض من الأبيات المتناثرة فى كتب النحو والبلاغة، وأصبح الشعر هم الليل والنهار» تجربتى مع الإبداع (الهلال يونيه ١٩٩٤م)، وأشار إلى مثل هذا أيضا فى الأهرام ١٩٩٦/٦/٢٥م.

★★★

وبعد...

فقد كتب الأستاذ الشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى كلامه هذا الذى أدرت عليه مقالتى، بجريدة الأهرام، يوم ١٩٩٦/٦/٢٦م، وتأخر ردى عليه إلى هذا الوقت، لأنى كنت أريد أن أمهد له العذر، لعله يستدرك ما فرط منه، أو يفسر ما أشكل على الناس من كلامه، ولم يفعل الأستاذ حجازى شيئا من ذلك، ولكنه على العكس حشد فى صفحته فى الأسابيع التى أعقبت مقالته، طائفة من كتابات القراء : رضا عما كتب، وحفاوة بما قال ! ولله الأمر من قبل ومن بعد .

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الرابع

كنوز عربية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دراسة فى مصادر الأدب

هذا كتاب جليل القدر ، غفلتُ عنه طويلا ، وأحسب أيضا أن كثيرا من الناس قد غفلوا عنه طويلا ، ولعل أحدا كتب عنه أو أشاد به لم يبلغنى خبره ، لكنى لم أجد له صدى عند أهل المذاكرة وأرباب المحاضرة .

«وحظوظ الكتب كحظوظ الناس ، يصيبها ما يصيبهم من ذيوع أو خمول »، وتلك كلمة كنت قلتها فى بعض ما كتبت منذ عشرين عاما ، ولازلت أجد صدقها إلى يوم الناس هذا ، لكن الأمر فى هذا الكتاب الجليل القدر لا يعود إلى الحظ وحده ، وإنما يعود أيضا إلى أن مصنفه الفاضل كان قد صرح فى خطبته «وهى التى يسميها أهل زماننا : المقدمة »، صرح بأنه صنعه لطلبة قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم ، فقضى على كتابه هذا الجليل بأن يجتويه الناس ويصدوا عنه صدودا ، إذْ صار عندهم «كتابا مدرسيا» وقد أصبح هذا الوصف فى زماننا علامة على الخفة والسهولة ، وصار أيضا مجلبة للتنقص والمعابة، وآية ذلك أنه لا يحسب فى موازين الترقيات العلمية ، ولا يقدم إلى الجوائز الأدبية ، وقد كتبت فى ذلك كلمة ، فى «الهلال - أكتوبر ١٩٩٤م. وانتهيت إلى أن الكتاب الجامعى - أو المدرسى - عمل علمى ، جيده جيد ، ورديئه ردىء ،

ومهما يكن من أمر فقد أدار المؤلف كتابه هذا على عشرة كتب ، هى : طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام الجمحى ، والبيان والتبيين . للجاحظ . والحيوان . له أيضا ، والكامل ، للمبرد ، والشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، والأغانى ، لأبى الفرج الأصبهانى ، والعقد الفريد ، لابن عبد ربه ، والفهرست ، لابن النديم ، والذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام ، ونفح الطيب للمقرى .

فهذه عشرة كتب كما ترى : سبعة منها فى الأدب العربى بمعناه العام ، وقد خرجت من المشرق العربى ، وكتابان اثنان خرجا من المغرب العربى ، وكتــاب واحد ، هو أقــدم ما عرفنا من علم الببلوجرافيا العربية .

على أن مما ينبغى التنبيه عليه أن المؤلف الفاضل حين جاء إلى كتاب «الحيوان» للجاحظ أنبأنا أن هذه دراسة كتبها المستشرق الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس ، ونشرها فى مجلة «إيزيسIsis » مايو ١٩٣٠ م ، العدد رقم ٤٣ . المجلد الرابع عشر ، ثم نشرت بعد وفاته فى أعماله المختارة ، المجلد الثانى الصفحات ٢٩- ٧٠ ، مدريد ١٩٤٨ م .

وقد نقل المؤلف دراسة بلاثيوس إلى كتابه ، وهذه أمانة العلماء .

وقد سلك المؤلف فى عرض هذه الكتب سبيلا راشدا ، واتبع منهجا محكما ، خرج بالكتاب من أن يكون للطالب المبتدىء الشادى ، إلى أن ينتفع به كل قارىء للعربية ، مبتدئا كان أو متوسطا أو منتهيا . وما ظنك بدراسة تعرض للكتاب فى مخطوطاته بوصفها والدلالة على أماكن

وجودها ، ومطبوعاته والفرق بين طبعات الكتاب : التجارية منها والمحققة ، ومنهج المؤلف فى كتابه ، ثم الإبانة عن مكان الكتاب فى الفكر العربى والإنسانى ، وذكر الدراسات التى قامت حوله قديما وحديثا: شرحا أو اختصارا أو نقدا ، وعرض نماذج كاشفة منه .

على أن المؤلف الفاضل قبل أن يدخل إلى موضوعه،الذى عقد له الكتاب ، وهو الحديث عن تلك الكتب العشرة ، قدم بمقدمتين نفيستين جدا ، شغلتا «١٥٣» صفحة من الطبعة السابعة للكتاب الصادرة عن دار المعارف سنة ١٩٩٣ م .

وتحدثت المقدمة الأولى عن تراثنا العربى من الرواية الشفوية إلى التدوين ، وقد عالج فى تلك المقدمة قضايا فى غاية الأهمية ، واستطاع بذكاء شديد وإحكام بالغ أن يجمع كل ما قيل عن نشأة الخط العربى ، والنقوش العربية التى وصلت إلينا وأقدم الكتابات الإسلامية وتطور الخط العربى وتاريخ النقط والإعجام ، وترتيب الأبجدية العربية عند المشارقة ، وعند الأندلسيين والمغاربة .

ثم عرض لعصر المخطوطات العربية ، وتلك القصة الطويلة من استخدام البردى إلى صناعة الورق ، ونشأة المدارس الإسلامية والمكتبات العامة والخاصة ، والإملاء والنسخ والوراقة ، ثم تطرق إلى قواعد النسخ واختلاف النسخ المخطوطة ، ومنازل النسخ ، وقواعد تحقيق المخطوطات .

ويعد ما ذكره المؤلف الفاضل حول قواعد النسخ والمقابلة ومنازل المخطوطات ، يعد ذلك كله إضافة جيدة لما كتب فى هذا الفن «فن

تحقيق المخطوطات» يوضع مع ما كتبه شيخنا عبد السلام هارون رحمه الله ؛ وما كتبه غيره فى هذا العلم .

ومن أنفس ما صنعه المؤلف هنا ما ذكره عن «طرق التدوين وشرائط النسخ» فقد أورد ما ذكره الخطيب البغدادى وابن جماعة والعلْموى ، وبدر الدين الغزى ، عن الضوابط والحدود التى يجب على النساخ التزامها ، فى تقييد العلم وكتابته ، وهى ضوابط وشروط صارمة جدا ، تؤكد فى مجملها الثقة بهذا العلم الذى انتهى إلينا محاطا بكل هذه الأسوار والحدود .

وهذه المقدمة التى شغلت تسعين صفحة من الكتاب ، من أنفع ما يقدم لطالب فى الدراسات العربية ، ولو كان لى من الأمر شىء لجعلتها مقررا واجبا على كل طالب فى جميع كلياتنا ومعاهدنا المعنية بالدراسات العربية والإسلامية ، ليس فى الدراسات العليا فقط ، ولا فى قسم الدراسات الأدبية فقط ، ولا فى كلية دار العلوم فقط .

وتأتى المقدمة الثانية للكتاب ، وقد جعلها المؤلف للحديث عن مصادر الشعر الأولى ، وعالج فيها جملة من القضايا حول جمع الشعر وتدوينه، فعرض لدواوين القبائل ، ودواوين الشعراء ، والمجاميع الشعرية ، كالمعلقات وشروحها ، والمجاميع المنسوبة لجامعيها ، مثل المفضليات والأصمعيات ، وجمهرة أشعار العرب للقرشى ، والحماسات والمختارات والأمالى ، كل ذلك ذكره وذكر أصحابه ، ومخطوطاته ومطبوعاته .

والكتاب فى جملته : سواء فى مقدمتيه أو فى حديثه عن الكتب العشرة ، من خير ما يقدم لطالب الدراسات العربية والإسلامية ، فهو

أولا قد سلم من تلك الثرثرة التى يخوض فيها بعض أساتذة الجامعة من الكلام فى المنهج العلمى ، والصعود والهبوط مع العموميات التى لا يعود الطالب منها بشىء ، ثم فى طعنهم فى التراث واستهانتهم بالعقل العربى وسخريتهم من علومه وأعلامه ، دون سند أو حجة إلا المتابعة والإخلاد إلى الراحة . والزعم بالانتصار للموضوعية والذود عن حماها ، وما هو إلا «ما أصاب حياتنا الثقافية من داء الطراوة والليونة والترهل والركود» كما قال المؤلف فى ص ١٥٨ من الكتاب .

والكتاب ثانيا ملىء بمواضع الفخر والاعتزاز بذلك التراث الذى انتهى إلينا خلال خمسة عشر قرنا ، وهى مواقف ثابتة ، لا سبيل إلى الطعن فيها ، أو الانتقاص منها ، لأنها صحيحة السند ، ليست وليدة تَنَفُّجٍ كاذب ، أو ادعاء ساذج .

فأول ما يلقى الطالب من كلام المؤلف هو قوله فى مستهل مقدمته :
«لا أظن أدبا معاصرا له من العمر ما للأدب العربى .

«إن أقدم نص أدبى ، فى أية لغة أوروبية معاصرة - مثلا - لا يتجاوز القرن الثانى عشر الميلادى بحال . وما قبله فآداب بلغات أخرى، اندثرت أو أصبحت تاريخا يدرس ، وحتى هذه الآداب الأوروبية تطورت لتصبح على ما هى عليه الآن ، تطورت فى الأصوات وفى الدلالة وفى التركيب ، فالإيطالى العادى ، والإسبانى غير المثقف ، والفرنسى غير المتخصص ، والألمانى الذى لا يهتم بالأدب ، سيجد من العسير عليه ، إذا عاد إلى أدب قومه فى القرن الثالث عشر الميلادى ، أن يقرأه فى سهولة ، وأن يفهمه فى وضوح .

« أما الأدب العربى فأقدم نص فيه يعود إلى مطلع النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى ، أى له من العمر ألف وخمسمائة عام كاملة، ولا يجد القارىء العادى صعوبة فى قراء ته ، أو عُسرا فى تمثل معناه ، فقواعده اللغوية هى التى نسير عليها ، وتركيب الجملة فيه هو نفس ما نحتذيه ، والغموض الذى يصاحب جانبا منه أحيانا مرده سبب آخر غير اللغة نفسها» .

ويعبر المؤلف عن حقيقة كنت أزداد اقتناعاً بها كلما توغلت فى التعامل مع تراثنا فى فنونه المختلفة . يقول فى ص ٨ : «وعبر ألف ونصف ألف من الأعوام ، لم يتوقف العقل العربى عن الإبداع ، حتى فى أحلك ساعات الأمة العربية ، وكانت حصيلة ذلك تراثا ثقافيا واسعا ، يعكس حقيقة مجتمعه ، فى سموه واحتضاره فى صعوده وتوقفه» .

وكنت قد قلت كلاما شبيها بهذا ، فى تقدمتى لرسالتى للدكتوراه عام ١٩٧٨ م ، وكان مما قلته : « .. وقد شمل هذا النشاط العالم الإسلامى كله ، مشرقه ومغربه ، ولم يَفْضل عصر أو مِصرٌ سواهما إلا ما يكون من بعض الفروق الهينة التى تفرضها طبائع الزمان والمكان . أما حركة العقل العربى من حيث هى ، فلم تخمد جذوتها ، ولم تسكن حدتها ، بتغير الحكام وتبدل الأيام ، وإن أردت أن تعرف صدق ما أقول فانظر إلى ما اشتمل عليه القرنان السادس والسابع الهجريان من كبار المفكرين والعلماء ، وأنت تعلم أن هذين القرنين قد شهدا أعنف هجوم

تعرضت له الأمة الإسلامية : الحروب الصليبية والغزوة التترية ، وقد كان هذا الهجوم الكاسح كفيلا بالقضاء على هذه الأمة الإسلامية لولا دفع الله وصيانته بما أودعه فى روح العقيدة الإسلامية من عوامل النماء والبقاء والازدهار .

« أما ما تسمعه الآن من ثرثرة حول الحروب ، وما تحدثه من احباط وانكسار ، فهو من التعلاّت الباطلة ، والكذب على النفس ، وكل أولئك مما يلجأ إليه الضعفة ويحتمى به الكسالى ، وإنما هو فساد الزمان وسقوط الهمم» .

وينبه المؤلف إلى المغيّب من تراثنا ، ويذكر أن ما نشر منه ليس كاشفا عن حقيقته ، وأن ذلك كان سبيلا إلى الطعن والمنقصة ، فيقول فى ص ١١ : «إن تراثنا العقلى مازال مطمورا . وما نشر منه ليس بأفضله دواما ، وغياب هذه النفائس شجع بعض النفوس الضعيفة ، على أن تتخذ من سب الأدب العربى والقائمين عليه وسيلة لمشاغبات تظهر بها ، والهدم أسهل من البناء ، والسلبية طريقها معبد ، والخلق الفنى محفوف دائما بالمكاره والصعاب» .

ويقول المؤلف الفاضل - فى ص ٥٦ - وهو يتحدث عن حركة التعليم العام والخاص فى المجتمع الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى : «وإلى جانب التعليم العام كانت الطبقات العالية فى المجتمع تُحضر لأبنائها معلمين خصوصيين ، يفقهونهم فى الدين والأدب . وفى الكثير من أجزاء الإمبراطورية الإسلامية بلغ التعليم الابتدائى قدرا عاليا من

الانتشار ، ويقرر المستشرق الهولندى رينهارت دوزى Dozy بأن «كل واحد تقريبا فى الاندلس كان يعرف القراء ة والكتابة» بينما كانت أوروبا المسيحية لا تعرف إلا أوليات المعارف ، وكان عرفانها ، لا يعدو طبقة قليلة معظمها من رجال الدين» .

الحضارة العربية

وحين يعرض المؤلف للحضارة العربية فى قرطبة الأندلسية فى أوائل القرن الثامن الميلادى يقول : «كانت الحملة الإسلامية فى شبه جزيرة أيبريا ، المدخل الجنوبى الغربى لأوروبا ، أروع عمل حربى عرفه تاريخ العصور الوسطى ، فما هى إلا سنوات سبع «٧١١ – ٧١٧م» حتى تم فتح شبه الجزيرة التى تعتبر من أجمل وأوسع الأقاليم فى أوروبا ، وقدر للحضارة العربية بعد نصر يبدو كأنه أسطورة ، أن تستقر هناك زمنا ، وأن يصبح لها بعد وقت ، طابعها الخاص المميز ، على الرغم من أصولها المشرقية ، وأن تصبح قرطبة – وقد جعل منها السَّمْح بن مالك الخولانى عاصمة – أعظم مركز للثقافة فى أوروبا ، وأن تنال شهرة عالمية تبعث الرهبة والاعجاب . لقد كان لها واحدة وعشرون ضاحية ، وفيها سبعون دارا للكتب ، مرصوفة الطرق ، مضاءة الشوارع ، زاخرة بالحمامات العامة ، فى الوقت الذى كانت فيه جامعة اكسفورد – مثلا – ترى الاستحمام عادة وثنية ... وكانت وسائل الثقافة متاحة للناس جميعا ، وعلى حين لم يكن فى بقية أوروبا من يعرف القراءة والكتابة ، باستثناء رجال الكهنوت ، كانت معرفتها أمرا عاديا وشائعا فى اسبانيا الإسلامية ، وقل فيها من كان أميا» . الكتاب ٢٧٩ .

ويقول عن محمد بن سلام صاحب كتاب طبقات فحول الشعراء – ص ١٦٣ – : «كان حديثه المفصل عن الانتحال المعالم الهادية لما قام به المستشرقون فى أواخر القرن الماضى ، وأوائل هذا القرن ، من دراسات عن صحة الشعر الجاهلى ، ومَن احتذى منهجهم وتبنى أفكارهم فى العالم العربى ، وكل الذين تحدثوا بعده فى هذا الأمر كانوا عالة عليه ، والفارق بين ابن سلام وبين العرب المعاصرين أن الرجل كان يقدر دور الكلمة فلم يتخفف من المسئولية ، ولم يتخذ الشطط مطية ، والشهرة غاية ، فجاء ت آراؤه ، وستبقى تشع جلالا وتواضعا وإخلاصا» .

فأين هذا الكلام الذى يحمل التوقير كله والإجلال لعلمائنا الأوائل ، من قول أستاذ جامعى عن الطبيب العربى الشهير ابن النفيس «إنه حلاق صحة» وقوله عن أبى حيان التوحيدى «إنه رجل صايع ولو رآه عسكرى يسير فى الشارع بالليل لأخذه تحرى» ؟ والعجيب أن هذا الاستاذ الجامعى يقول هذا الكلام على مسمع من الناس ، وهو عائد من حفلة عشاء فاخرة على ظهر باخرة نيلية ، فى ليلة من ليالى ، مهرجان أبى حيان التوحيدى الذى أقامه المجلس الأعلى للثقافة (طيب يا أخى خلِّى عندك شوية دم ، دانت لسه واكل على حساب الراجل ! ولقد كان من حق «جابر عصفور» أن يضع اصبعه فى حلقك لتقيء ما أكلته على حس أبى حيان) فهذا موضع المثل العربى الصادق «أكلا وذما» أى تأكلون أكلا وتذمون ذما ، أو كما قال عبد الله بن الزبير فى بعض الحروب لجنده : «أكلتم تمرى وعصيتم أمرى ، سلاحكم رث ، وحديثكم غث ، عيال فى الجدب ، أعداء فى الخصب » .

ويتحدث المؤلف الفاضل عن مكتبة الصاحب بن عباد ، فيذكر أن ما فيها من الكتب يُحمل على أربعمائة جمل أو أكثر ، وأن فهرس كتبه يقع في عشرة مجلدات « وهي أكثر من كل ما في مكتبات أوروبا العامة والخاصة مجتمعة في العصر الوسيط » ثم يعلق على هذه العبارة الأخيرة ، فيقول في حواشي ص ٦١ : « لكيلا ينزعج السادة المتأوربون ، فإن التعبير ليس لي ، وإنما هو للمستشرق الفرنسي جاك رسلير ، في كتابه «الحضارة العربية » ص ٩٢ .

ولا يفوت المؤلف أن يضع عيون الطلبة على وجه من وجوه الانصاف وحرية الفكر في تاريخنا الثقافي ، فيقول في ص ٦٧ : «وكانت الدولة تضع في المقام الأول من عنايتها نشر الآداب ، والعلوم والفنون ، ورعاية الكتاب والأدباء والمفكرين ، وكان هؤلاء يتمتعون - بصفة عامة - بحرية فكر غير محدودة ، ولقد درس الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» العقائد التي كانت سائدة في عصره ، في حياد دقيق لا يمكن أن تجد له مثيلا عند عالم غربي من علماء عصره» .

ثم ينقل عن ياقوت الحموي قصة ذات دلالة على حرية الفكر عند بعض العلماء العرب ، والقصة كما ذكرها ياقوت في ترجمة شيخه «المبارك بن المبارك بن سعيد بن الدهان ، المعروف بالوجيه النحوي» من معجم الأدباء ص ٢٢٦٦ ، قال ياقوت : «وحدثني محب الدين محمد بن النجار ، قال : حضر الوجيه النحوي بدار الكتب التي برباط المأمونية ، وخازنها يومئذ أبو المعالي أحمد بن هبة الله ، فجرى حديث المعري ،

فذمه الخازن وقال : كان عندى في الخزانة كتاب من تصانيفه ، فغسلته، فقال له الوجيه : وأى شيء كان هذا الكتاب ؟ قال : كان كتاب نقض القرآن ، فقال له : أخطأت في غسله ، فعجب الجماعة منه وتغامزوا عليه. واستشاط ابن هبة الله وقال له : مثلك ينهى عن مثل هذا ؟ قال : نعم ، لا يخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن أو خيرا منه أو دونه ، فإن كان مثله أو خيرا منه – وحاش لله أن يكون ذلك – فلا يجب أن يفرط في مثله ، وإن كان دونه – وذلك ما لا شك فيه – فتركه معجزة للقرآن فلا يجب التفريط فيه . فاستحسن الجماعة قوله ، ووافقه ابن هبة الله على الحق وسكت» .

فمثل هذا الكلام ، وتلك الأخبار التي ملأ بها المؤلف الفاضل كتابه ، مما يقوى ثقة أبنائنا بماضيهم وتراثهم ، ويبعث فيهم الاعتزاز به ، والحرص عليه ، والدفاع عنه .

مواضع للنقد

أما ما يندفع فيه بعض أساتذتنا وزملائنا الجامعيين ، من نقد لعلوم الأمة ومعارفها ، مع ما يصحب ذلك أحيانا من السخرية والاستهزاء ، فهو مما لا يصح ولا يستقيم . ونعم إن في تراثنا مواضع للنقد والتتبع، وهو منقود من داخله من قديم ، فقد اعتُرض على سيبويه إمام النحاة ونُقد واستُدرك عليه ، وكذلك تعرض البخارى للنقد والتصحيح ، وممن نبه على أوهامه الحافظ شرف الدين الدمياطي ، عبد المؤمن بن خلف المتوفي بالقاهرة سنة «٧٠٥هـ» وليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك

– على ما قاله يونس بن حبيب – ولكن هذه الأمور ينبغي أن تنحى عن طلبة العلم فى أول أيامهم ، وتؤجل إلى أن يشتد عودهم ويستحصد زرعهم ، حتى يستطيعوا أن يميزوا الخبيث من الطيب .

★★★

وقد زان هذه المعارف التى امتلأ بها الكتاب أسلوب مشرق ، وبيان عذب ، ارتفع بهما المؤلف عن هذا الجفاف ، وذلك العسر اللذين يشيعان فى كتابات كثير من الجامعيين الآن .

وقد استحيا المؤلف بعض الأبنية والتراكيب الفصيحة التى يتحاشاها كثير من الكتبة الآن ، استخفافا بها ، أو غفلة عنها ، فمن ذلك استعماله الفعل «كسَّر» بمعنى قسَّم وفصَّل ، وذلك قوله عن ابن النديم وكتابه الفهرست – ص ٣٠٠ – : «وقد كسر محمد بن اسحاق كتابه على عشر مقالات» ، وقوله عن المقرى وكتابه نفح الطيب – ص ٣٧٧ – : «وكسره على ثمانية أبواب» . واستعمل هذا الفعل الفصيح أيضا فى ص ١٤٥ ، فقال عن دراسة الدكتور حنا جميل حداد «شواهد النحو الشعرية» قال : «وكسرها على قسمين : درس فى الأول منهما المناهج والمصادر ، وجمع فى الثانى كل شواهد النحو» .

هذا وقد هُدي المؤلف الفاضل إلى تركيب قديم ضارب فى التراث بعروقه ، وهو ما ذكره فى حديثه عن الخط العربى – ص ٢٦ – قال : «ونحن نواجه قضية علمية لا بأس من اسقاط الروايات التى عجز أصحابها عن مواجهة المشكلة ، ولم يصبروا على محنة البحث ، فلاذوا بالأسطورة يجدون في رحابها التفسير والتعليل والرضا والراحة» .

فقوله : «ولم يصبروا على محنة البحث» من التراكيب الدقيقة البديعة، وكنت قد علقت شيئا شبيها به ، وقع لى فى كلام قديم ، عمره أكثر من ألف عام ، وذلك ما جاء فى كلام للإمام أبى سليمان الخطابى ، وهو أحد أعلام العربية فى القرن الرابع الهجرى ، ثم هو صاحب غريب الحديث ، وإعجاز القرآن ، وتوفي سنة «٣٨٨هـ» قال فى مقدمة كتابه غريب الحديث ١/٥٧ : «فحق على طالب الحديث أن يرفق فى تأمل مواضع الكلام ، ويحسن التأنى لمحنة اللفظ» .

وهكذا تحيا الألفاظ والتراكيب العربية الفصيحة ، وتنتقل من جيل إلى جيل ، كما تجول النُّطَفُ فى الأصلاب الكريمة ، وكما تنتقل الخصائص فى السلالات الزاكية ، ودَعْك من الذين يقولون بالأساليب التراثية ، والأساليب المعاصرة ، واستحداث المنافرة والمدابرة بينهما ، فإنما هو العجز ولا شىء غير العجز .

★ ★ ★

وبعد : فهذا عرض سريع للكتاب يغرى بقراءته ، ولا يحيط بمحاسنه، ولم يبق إلا الاستجابة لما قاله المؤلف فى خطبة كتابه من أنه سوف يكون سعيدا بأى ملاحظة لتقويم عمله وإصلاح ما قد يكون داخله من نقص أو خطأ .

قضايا مهمة بهذا الكتاب

فرغت من عرض هذا الكتاب الجليل ، وبيان فضله وجدواه على ناشئة هذا الجيل ، واستجابةً لرجاء المؤلف الفاضل فى قبول أى ملاحظة ؛ تَعيّن على تقويم عمله هذا ، وتصليح ما قد يكون قد داخله من نقص أو خطأ، فأقول وبالله الاستعانة :

أول ما يجب مناقشته من قضايا الكتاب ما ذكره المؤلف الفاضل فى ص ٤٣ عن تاريخ النُّقْط فى الحروف العربية ، قال : «وأول محاولة للنقط كان دافعها وهدفها ، كبقية العلوم الأخرى ، الحفاظ على دقة ضبط ألفاظ القرآن الكريم ، وكان الناس يقرأون فى مصاحف عثمان رحمه الله وهى غير منقوطة ولا معجمة فيخطئون القراءة ، فكلمة «تبلو» قرأها حفص بن سليمان بن المغيرة «تبلو» وقرأها عبد الله بن مسعود (تتلو) ، وكلمة (سسا) قرأها حفص (تثبيتا) وقرأها مجاهد بن جبر (تبيينا) ، والآية (جعل السقية (السقاية) فى رحل أخيه) قرأها رجل (جعل السفينة فى رجل أخيه) وأمثلة أخرى كثيرة ، وقف عليها حمزة الأصفهانى مؤلفا كاملا هو (التنبيه على حدوث التصحيف) . ومؤدى هذا الكلام ان الاختلاف فى القراءات القرآنية راجع إلى تجرد المصاحف من نقط الحروف ، وأن ذلك جعل كل انسان يقرأ بما يؤديه إليه اجتهاده .

وهذا خطأ محض ، ووهم غليظ - وليغفر لنا الاستاذ الكبير هذه الأوصاف ؛ لأن الأمر يتصل بكتاب ربنا عز وجل - ولعل أول من وقع في ذلك في عصرنا هو المستشرق المجرى جولدزيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١ م) . وذكره في كتابه «مذاهب التفسير الاسلامي» ثم ردده من بعده المستشرق الاسترالي الأصل أرثر جفرى ، وذكره في مقدمة تحقيقه لكتاب «المصاحف» لابن ابي داود الذي نشره بالمطبعة الرحمانية بمصر ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م ، وقد خُدِعَ بذلك الرأى بعض الباحثين العرب ، ومنهم الدكتور على عبد الواحد وافي ، رحمه الله ، وذكره في كتابه «فقه اللغة» في طبعته الأولى ، ولكنه عدل عنه في الطبعات التالية .

وقد رد هذا الرأى ودفعه الدكتور عبد الفتاح شلبى في كتابه «رسم المصحف العثماني» والشيخ عبد الفتاح القاضي ، في كتابه «القراءات في نظر المستشرقين والملحدين» .

السند المتصل

وخلاصة الأمر في هذه القضية : أن القراءات القرآنية كلها أساسها السند المتصل والرواية المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما نزل به جبريل عليه السلام ، فالقراءة سنة واتباع وأثر ، ولا دخل لرسم الحروف فيها ، ولا دخل كذلك للغة ولا للنحو . وعلماء اللغة والنحو يحتجون للقراءات ، أو يحتجون لها بعد ثبوتها بالرواية والسند الصحيح ، وقد أشرت إلى شيء من ذلك في مقالة سابقة بالهلال (سبتمبر ١٩٩٥م) فلا أعيد ما ذكرته هناك . لكنى أذكر هنا مثالين

لاختلاف القراءات تبعا لاختلاف الرواية فقط ، مع أن الرسم العثمانى واحد غير مختلف :

المثال الأول فى قوله تعالى فى فاتحة الكتاب ﴿**مالك يوم الدين**﴾ وقوله عز وجل ﴿**قل اللهم مالك الملك**﴾ آل عمران ٢٦ ، وقوله سبحانه فى سورة الناس ﴿**ملك الناس**﴾ فلو تأملت المواضع الثلاثة فى المصحف لوجدت الكلمة فيها هكذا (ملك) بالميم واللام والكاف ، ولكن حفصا يقرأ عن عاصم - وهى قراءتنا نحن المصريين - فى فاتحة الكتاب (مالك) بالألف بعد الميم ، وكذلك يقرأ آية آل عمران . أما فى سورة الناس فيقرأ (ملك) بدون الألف ، فلو كان حفص يقرأ وفق الرسم والشكل لقرأ الثلاثة (ملك) ولكنه يقرأ بالرواية المتواترة . وانظر تفصيلا أكثر فى كتاب الدكتور عبد الفتاح شلبى : رسم المصحف العثمانى ص ٢٣ .

والمثال الثانى : قوله تعالى ﴿**فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج**﴾ البقرة ١٩٧ ، وقوله تباركت أسماؤه : ﴿**لا بيع فيه ولا خلة**﴾ البقرة ٢٥٤ ، قرأ ابن كثير وأبو عمرو الآية الأولى ﴿**فلا رفثٌ ولا فسوقٌ**﴾ بالضم والتنوين ، وقرءا الآية الثانية ﴿**لا بيعَ فيه ولا خلةَ**﴾ بفتحة واحدة خفيفة .

ووجه قراءة الضم أن «لا» هنا تعمل عمل «ليس» فيرتفع الاسم بعدها على أنه اسمها ، ووجه قراءة الفتح أن «لا» هنا هى النافية

للجنس ، فالاسم بعدها يبنى على الفتح فى محل النصب ، ويقال : إنه اسم «لا» النافية للجنس ، التى تعمل عمل «إنّ» .

فلو كان ابن كثير وأبو عمرو يقرءان وفق الشكل أو الوجه النحوى لقرءا الآيتين قراءة واحدة ، إما بالضم فى الاثنتين ، أو بالفتح فيهما ، ولكنها الرواية والتلقى .

ولا أحب أن أغادر هذا المكان دون أن أناقش هذه القراءة التى أشار إليها الأستاذ الفاضل (جعل السفينة فى رجل أخيه) - وهى تصحيف لقوله تعالى من الآية ٧٠ من سورة يوسف ﴿**جعل السقاية في رحل أخيه**﴾ .

فهذه القراءة مما يتفكه به أهل زماننا ، وواضح أنها قراءة مصنوعة، كما صنعت أمثلة أخرى من التصحيف أريد بها التسلى أو الإضحاك ممن نسبت إليه. وهذه القراءة المصحفة تنسب الى «عثمان ابن أبى شيبة» المتوفى سنة ٢٣٩ هـ ويقولون إنه نبه على هذا التصحيف ، وأن صواب التلاوة ﴿**جعل السقاية في رحل أخيه**﴾ فقال : «أنا وأخى أبو بكر لا نقرأ لعاصم) ويعلق الحافظ الذهبى على ذلك فيقول : «فكأنه كان صاحب دعابة ، ولعله تاب وأناب» ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ٣٨/٣ ، ويقول الحافظ ابن كثير : «وما ينقله كثير من الناس ، عن عثمان بن ابي شيبة ، أنه كان يصحف قراءة القرآن، فغريب جدا ؛ لأن له كتابا فى التفسير ، وقد نقل عنه أشياء لا تصدر عن صبيان المكاتب» الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث

ص ١٧١ ، ومما يؤكد كلام ابن كثير هذا أن الأئمة أثنوا على «عثمان بن أبى شيبة» الذى تنسب اليه هذه القراءة المنكرة ، فقال عنه يحيى بن معين : «ثقة مأمون» ، وذكر الذهبى أن الإمام البخارى أكثر من الرواية عنه فى «صحيحه» .. أنظر سير أعلام النبلاء . ١٥٢/١١ ، ١٥٣، فقصة التصحف فى الآية مصنوعة مكذوبة ان شاء الله .

فهذه أخطر قضية يناقش فيها الاستاذ الكبير ، وهو مرجو ان شاء الله ان يبادر الى طبعة جديدة من الكتاب ، يصلح فيها هذا الخطأ الضخم .

ومما يناقش فيه المؤلف الفاضل أيضا ما ذكره فى ص ٢٣٠ ، وهو يتحدث عن خصائص ابى العباس المبرد الاسلوبية فى كتابه «الكامل» قال : «ومن لوازم المبرد ، فى الشرح ان يتبع قوله بكلمة «يا فتى» مما يوحى بأن الكتاب فى الأصل أمالٍ ألقاها على طلابه» .

وأقول : هذه العبارة «يا فتى» لا صلة لها بالأمالى ، وإنما هى كلمة كان المبرد يستعين بها رمزا للوصل ولبيان وتحقيق حركة الإعراب أو حركة البناء فى الكلمة التى تسبقها ، وقد نبه على هذا العلامة الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة ، فى تقدمته لكتاب المبرد «المقتضب» ص ١٠٠ وأشار الى أن سيبويه قد استعمل ذلك مرتين فى كتابه ، وكذلك ثعلب فى مجالسه .

قلت : وقد استعمل سيبويه «يا فتى» مرة أخرى فى الكتاب ٢٢٠/٣.

وهذا نمط من التركيب ، يلجأ إليه المصنفون قديما ، يأتون بكلمة ، قد تكون اسما وقد تكون فعلا ، بعد كلمة ، يريدون بيان آخر حرف منها، اعرابا أو بناء ، وقد استعمل ذلك سيبويه وثعلب ، كما ذكر الشيخ عضيمة .

وتختلف صيغة هذا التركيب من مؤلف لآخر ، فقد استعمل سيبويه «قبل» فقال – في غير ما ذكره الشيخ عضيمة – «ومررتم بجوارى قبل» واستعمل أبو عمرو الشيبانى «يا فتى» كما استعملها المبرد . فقال : «وما جئته قط يا فتى» كتاب الجيم ٣/٧٤ ، وكذلك ابو سعيد السيرافى، فقال : «هذه جوار يا فتى» ضرورة الشعر ص ٦٥ واستعمل يعقوب بن السكيت «يا هذا» فقال : «لعب الصبيان خراج يا هذا» اصلاح المنطق ص ٢٨٧ ، وفى كتابه حروف الممدود والمقصور ص ٧١، استعمل «فافهم» وذلك قوله «وتميم وقيس يقولون : القصيا فافهم» .

واستعمل أبو عمر الزاهد «يا هذا» فقال : «أى مرامى يا هذا» ياقوتة الصراط فى تفسير القرآن العظيم ص ٢١٧ ..

واستعمل الأزهرى أيضا «يا هذا» فقال : «هم النشأ يا هذا» تهذيب اللغة ١١/٤١٨ ، وكذلك ابن دريد، قال «فهو من اللبأ يا هذا» الاشتقاق ص ٣٢٥ ، وأبو حيان التوحيدى ، فقال فى جمع حصان «والجمع حصن يا هذا» البصائر والذخائر ١/٢٢ .

واستعمل سيبويه «كما ترى» قال : «وذلك قولك : جاء كما ترى» الكتاب ٤/٣٧٦ .

وكذلك استعملها ابو الحسن على بن الحسن الهنائى الملقب بكراع النمل» قال : «ويقال : هو شناج كما ترى» المنتخب من غريب كلام العرب ١/١٦٠ .

وقد خفى المراد من هذه الكلمة على مشيخة دار الكتب المصرية الذين قاموا على تصحيح ديوان كعب بن زهير رضي الله عنه ، فقد قال شارح الديوان ابو سعيد السكري ، يشرح عبارة «الاسود الضوارى : «الضوارى : اللواتى قد ضرين بأكل لحوم الناس ، الواحد : ضار كما ترى» ديوان كعب بن زهير ص ٢٨ .

قال مصححو دار الكتب المصرية فى الحاشية «هذه الجملة «كما ترى» لا لزوم لها فى الكلام» .

مناقشات مهمة

وتبقى جملة مناقشات أسوقها بحسب ورودها فى الكتاب :

ص ١٨ ضبط الفعل «ينميه» بضم الياء وفتح النون وتشديد الميم ، وهو ضبط غير صحيح فضلا عن أنه يكسر وزن البيت ، والصواب «ينميه» بفتح الياء وسكون النون وكسر الميم خفيفة ويقال : نماه الى أبيه ينميه نميا : أى نسبه .

ص ٢١ : ان بالشعب الى جنب سلع . والصواب : ان بالشعب الذى دون سلع .

ص ٢٤ : أبو عمر اسحاق . والصواب ابو عمرو ، وتكرر فى ص ٢٥.

وفى الصفحة نفسها ذكر من تلاميذ المفضل الضبى : ابن العربى وهذا من التطبيع ، والصحيح : ابن الاعرابى ، وسيأتى حديثه مرة أخرى .

ص ٤٣ ذكر ان كتاب التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الاصفهانى مخطوط بإيران ، وقد طبع الكتاب بمجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م بتحقيق محمد أسعد طلس ، ومراجعة اسماء الحمصى وعبد المعين الملوحى .

هذا ومما يحسن التنبيه عليه هنا أن عبارة المؤلف عن كتاب حمزة فى التصحيف توحي بأنه عقد كتابه كله للكلمات المصحفة فى القرآن الكريم ، فهو يقول بعد ذكر ثلاثة أمثلة من القرآن الكريم ، ويرى انها اختلفت قراءتها للتصحيف بخلوها من النقط - وقد دفعت ذلك بحمد الله - يقول : وأمثلة أخرى كثيرة وقف عليها حمزة الأصفهانى مؤلفا كاملا، هو التنبيه على حدوث التصحيف.

والحقيقة ان الكتاب يعالج قضية التصحيف بعامة ، فى الكلام المنثور والمنظوم ، ثم ان ما ذكره حمزة من ذلك فى القرآن الكريم انما شغل من الكتاب ست صفحات ليس غير ، من ص ١٥٤ الى ص ١٥٩، وهو الباب الرابع من الكتاب .

ص ٥٨ ذكر أن آخر من أملى من اللغويين أبو القاسم الزجاجى المتوفى (٣٣٩ هـ) لكنا رأينا بعد ذلك ابن الشجرى المتوفى (٥٤٣ هـ)

يملى «أماليه» الشهيرة ، وابن الحاجب المتوفى (٦٦٤ هـ) يملى «أماليه» المعروفة .

ص ٥٩ ذكر تاريخ وفاة الخطيب البغدادى (١٠٧١ م) والأولى ذكر التاريخ الهجرى (٤٦٣ هـ) وبعده يذكر التاريخ الميلادى ، وتكرر ذلك فى غير موضع من الكتاب .

ص ٦٧ اشار الى كتاب أبى العلاء المعرى فى نقد القرآن ، والصواب «نقض» بالضاد ، وليس «نقد» بالدال ، وقد ذكرت ذلك فى المقالة السابقة .

ص ٧١ ذكر المؤلف هنا كلاما جيدا عن «طرق التدوين وضوابط النسخ والمقابلة» مما يؤكد الثقة الكاملة بهذا التراث الذى وصل الينا ، وقد أورد المؤلف طائفة جيدة من مراجع هذا الموضوع ، وأحب أن أضيف الى ما ذكر هذه المراجع :

المحدِّث الفاصل بين الراوى والواعى، للحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزى المتوفى (٣٦٠ هـ) والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ، للخطيب البغدادى المتوفى (٤٦٣ هـ) والإلماع الى معرفة اصول الرواية وتقييد السماع ، لعياض بن موسى اليحصبى السبتى المتوفى (٥٤٤ هـ) ، وأدب الاملاء والاستملاء ، لعبد الكريم بن محمد بن منصور السمعانى المتوفى (٥٦٢ هـ) ، وكنت قد علقت من هذا الكتاب الاخير كلمة عالية عن الاصمعى ، تكتب بماء الذهب وهى قوله فى ص ١٤٥ :

﴿ من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً ﴾.

ص ٧٧ نقل عن كتاب «المقابسات» لأبى حيان التوحيدى ، قول ابراهيم الصابى : «رفع ما وهى يحتاج إلى تدبير» والصواب «رقع» بالقاف ، وليس «رفع» بالفاء ، ونقل أيضا قوله : «من جهة صاحبه الأول من كان أولى به ، وكان كالأبله» ، والصواب : «وكان كالأب له» فهما كلمتان لا كلمة ، وهذا النقل فى ص ١٥٤ من «المقابسات» تحقيق حسن السندوبى ١٣٤٧ هـ = ١٩٢٩ م ، ولم يذكر المؤلف الفاضل رقم الصفحة من المقابسات ، وكذلك فعل فى كثير من النقول ، يذكر النقل ، ولا يدل على موضعه من الكتاب المنقول منه ، فليته يستدرك ذلك فيما يستقبل من طبعات الكتاب .

وأشد من هذا ان ينقل كلاما لمؤلف كثير التأليف ، دون أن يذكر اسم كتابه الذى ينقل عنه ، فضلا عن أن يذكر رقم الصفحة ، ومن ذلك ما ذكره فى الصفحة ٧٧ نفسها ، قال : «وكان الجاحظ يرى أنه أسهل للمؤلف ان يسود عشر صفحات بالنثر الرفيع ، الملىء بالأفكار القيمة ، من أن يكتشف لمصنفه (فى المطبوع : مصنفه) اخطاء ارتكبها ، أو أمورا سها عنها» هكذا نقل عن الجاحظ ، ولم يذكر لنقله كتابا» ، والكلام فى كتاب الحيوان ٧٩/١ ، والمؤلف الفاضل تصرف فى كلام الجاحظ بعض تصرف ، وليته نقله كما هو !

ص ٧٨ ذكر ان ابن الأعرابى حفيد المفضل ، والصواب «ربيب المفضل» كانت أمه زوجة له ، كما ذكر الوزير القفطى فى انباه الرواة ١٣١/٣ .

ص ٨٧ ذكر أن المستشرق رودلف جاير حقق ديوان الأعشى ، والأدق : حقق ديوان الأعشى والأعشين ، وهذا العمل هو المنشور باسم: الصبح المنير فى شعر ابى بصير ميمون بن قيس بن جندل الأعشى والأعشين الآخرين . طبع بفيينا سنة ١٩٢٧ م .

(فائدة : الأعشين : هكذا بفتح الشين ، وليس : الأعشين بكسرها ، وهو جمع مذكر للأعشى في حالة الجر . ولو كان فى حالة الرفع لقلت : الأعشون بفتح الشين أيضا ، وهى ما تقتضيه قاعدة الاسم المقصور ، نحو مصطفى والأعلى ، نقول فى جمعهما ، في حالة الرفع : مصطفون والأعلون ، وفى حالتى النصب والجر : مصطفين والأعلين ، قال تعالى : ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون**﴾ سورة آل عمران ١٣٩ وقال سبحانه : ﴿**وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار**﴾ سورة ص ٤٧ . وقد نبهت على ذلك لأنى سمعت كثيرا من الناس يقولون : ديوان الأعشين بكسر الشين) .

ص ٩٤ ذكر ان مصادر نسخة السكرى من أشعار الهذليين تتمثل فى عالم مجهول ، اسمه «عبد الملك بن ابراهيم الجمحى» ، والحق ان جهالة هذا الرجل ليست مطلقة ، فهو - وان لم تعرف له ترجمة - كان معروفا للجاحظ وقد روى عنه خبرا فى الحيوان ٥/٥٨٧ ، وهو ذلك الخبر المشهور «ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان اذا رأى رجلا يضرب فى كلامه - أى يخلط - قال : أشهد أن الذى خلقك وخلق عمرو ابن العاص واحد» ، فهو معاصر للجاحظ . وانظر مصادر الشعر

الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد ص ٥٦٥ ، وذكر الأستاذ عبد الستار فراج رحمه الله ، فى مقدمة تحقيقه لشرح أشعار الهذليين ص ١١ ان «عبد الملك بن ابراهيم الجمحى» هذا كان فى طبقة ابن الأعرابى والأصمعى ، وذكر عن «الأغانى» رواية الزبير بن بكار عنه .

ثم أرجو من مؤلفنا الفاضل أن يغير عبارة «وأعاد سبكه – أى ديوان الهذليين – النحوى الرمانى» الى «ورواه الرمانى النحوى» ، فإن العبارة هكذا توشك ان تكون من تعبيرات المستشرقين ، وأحسب أن هناك فرقا بين «سبك» و«روى» ، فإن الرمانى روى شعر الهذليين عن أبى بكر احمد بن محمد بن عاصم الحلوانى ، عن ابى سعيد السكرى . ثم تصحح وفاة الرمانى لتصبح (٣٨٤ هـ) .

ص ١٣٩ ذكر من كتب الأمالى «بهجة الجالس وأنس المجالس» لابن عبد البر ، والكتاب صنفه مؤلفه تصنيفا ، ولم يمله إملاء ، فلا يعد من هذه البابة .

ص ١٤٠ ذكر أن «حواشى الصحاح» لابن دريد، والصواب : لابن برى ، وهى المسماة التنبيه والايضاح عما وقع في الصحاح ، وما عرف منها الا قطعة نشرها فى جزء ين مجمع اللغة العربية فى القاهرة ، بتحقيق الاستاذين مصطفى حجازى وعبد العليم الطحاوى .

وفى نفس الموضع ذكر «أمالى ابن برى» من مراجع لسان العرب ، وأمالى ابن برى هى حواشيه على الصحاح ، فلا تذكر فى العدد .

ص ١٤١ ذكر أن تاج العروس قريب فى قدره من لسان العرب. والمعروف أن التاج أوسع مادة من اللسان ، فمجموع جذور اللسان

(٩٢٧٣) جذرا ، ومجموع جذور التاج (١١٩٧٨) جذرا . راجع مقالتى عن المعاجم اللغوية (*الهلال* ، مايو ١٩٩٥م) .

ص ١٤٤ ذكر أن كتاب أبيات الاستشهاد لابن فارس لا يزال مخطوطا .. والكتاب نشره شيخنا عبد السلام هارون – بردّ الله مضجعه – فى المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات ١٣٧٠ هـ = ١٩٥١ م .

ص ١٥٠ ذكر أيضا أن كتاب من اسمه عمرو من الشعراء ، لابن الجراح لما يزل مخطوطا ، والكتاب طبع بتحقيق الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع ، بمطبعة المدنى بالقاهرة ١٤١٢ هـ = ١٩٩١ م .

ص ١٧٨ عرض للخلاف المعروف فى اسم كتاب الجاحظ ، وهل هو «*البيان والتبين*» بياء واحدة مشددة بعد الباء أو «*التبيين*» بياء ين اثنتين؟ وهو الخلاف الذى لم يحسم بعد ، لكنى أحب أن أضيف جديدا فى هذا الموضوع ، من واقع التجربة الخاصة :

أولا : زرت مكتبة القرويين بمدينة فاس بالمغرب الأقصى – حرسه الله – عام ١٩٧٥ م عضوا في بعثة معهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وهناك رأيت جزءا مخطوطا من كتاب الجاحظ ، هو الجزء الثالث ، وكتب على صدره في العنوان «البيان والتبين» بياء واحدة مشددة مضمومة واضحة جدا – وهذه المخطوطة مكتوبة على رق غزال – وذلك من سمات المخطوطات القديمة – بقلم أندلسى نفيس موغل فى القدم ، وجاء بآخر المخطوطة أنها معارضة

بثلاثة أصول صحيحة ، ذات حواش قيمة : أصل أبى الوليد الوقشى المتوفى (٤٨٩ هـ) وسيأتيك حديث آخر عنه - وأصل عبد الملك بن سراج المتوفى (٤٨٩ هـ) أيضا . وأصل عطاء بن الباذش - لم أعرف تاريخ وفاته - ولم ير شيخنا عبد السلام هارون هذا الجزء النفيس من الكتاب.

ثانيا : هذا التوثيق لكلمة «التبين» التى جاء ت فى صدر هذه المخطوطة العتيقة قد يعكر عليه ما قرأته فى كتاب العواصم من القواصم ، لأبى بكر بن العربى ، ص ٤٧٧ من الجزء الثانى ، تحقيق الدكتور عمار طالبى - وطبعته هى الطبعة الكاملة للكتاب ، ولا تغتر بتلك الطبعة التى تحمل اسم الشيخ الجليل محب الدين الخطيب ، فإنما هى جزء صغير من الكتاب ، خاص بتاريخ الصحابة - وقد نبه الشيخ محب الدين على ذلك - قرأت فى ذلك الموضع من الكتاب كلام ابن العربى عن الجاحظ ، فقد أشار فى سياق ذمه له الى أنه صاحب كتاب «الضلال والتضليل» ألا ترشح كلمة «التضليل» كلمة «التبيين» من حيث جاء ت على وزنها ؟

ثم تحدث المؤلف الفاضل عن مخطوطات كتاب البيان والتبيين ، ووصفها ودل على أماكنها ، ثم ذكر ان الاستاذ عبد السلام هارون نشر الكتاب مستخدما مخطوطات الكتاب، باستثناء مخطوطة مكتبة فيض الله أفندى باستانبول .

والحق أن ذلك كان من شيخنا فى الطبعة الأولى للكتاب ، أما فى الطبعة الثانية الصادرة عام ١٣٨٠ هـ = ١٩٦٠ م فقد رجع إلى تلك

المخطوطة ، ونص على ذلك فى صدر عنوان الكتاب ، فكتب هذه العبارة: «الطبعة الثانية تمتاز بمقابلتها على نسخة مكتبة فيض الله» .

ص ٢٢٠ ذكر من كتب المبرد التى لا تزال مخطوطة : المذكر والمؤنث والتعازى والمراثى ، وقد طبع الكتابان : الأول عن دار الكتب المصرية عام ١٩٧٠ م بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ، والدكتور صلاح الدين الهادى. والثانى عن مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٧٦ م بتحقيق الاستاذ محمد الديباجى .

ص ٢٣١ ذكر ان كتاب التنبيهات على أغاليط الرواة ، لعلى بن حمزة ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، والكتاب طبع بدار المعارف بمصر ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م ، مع كتاب المنقوص والممدود للفراء ، بتحقيق العلامة عبد العزيز الميمنى الراجكوتى .

★★★

ص ٢٣٢ ذكر المؤلف الفاضل من شروح الأندلسيين على الكامل للمبرد : شرح ابى الوليد الوقشى المتوفى (٤٨٩ هـ) ، ويسمى «نكت الكامل» وشرح ابن السيد البطليوسى المتوفى (٥٢١ هـ) ، وذكر ان هذين الشرحين مفقودان إلى الآن ، وإن كان السيوطى (٩١١ هـ) والبغدادى (١٠٩٣ هـ) قد أشارا إليهما ونقلا عنهما .

قلت : وهذان الكتابان وان كانا قد فقدا الى الآن ، فقد حفظهما عالم أندلسى قريب من عصرهما هو : أبو الحسن على بن ابراهيم المعروف بابن سعد الخير الإنصارى البلنسى المتوفى (٥٧١ هـ) فقد جمع بين شرحى الوقشى والبطليوسى ، وسمى ذلك كتاب «القرط على

كامل المبرد» . وقد سَلِمَ من هذا «القرط» نسختان مخطوطتان ، إحداهما بمكتبة اسماعيل صائب افندى بأنقرة بتركيا ، وتاريخ نسخها (٦٥٨ هـ) والنسخة الثانية وجدت فى الزاوية الحمزاوية بصحراء تمجروت من المغرب الأقصى – حفظه الله – ثم نقلت الى الخزانة العامة بمدينة الرباط ، وتاريخ نسخها مجهول لوجود بتر فى آخرها ، لكنها جيدة الخط .

وعن نسخة تركيا فقد قام باحث باكستانى هو «ظهور احمد مظهر» بتحقيق الكتاب ، وحصل به على درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة البنجاب ، ثم نشره بالمطبعة العربية بلاهور سنة ١٤٠١ هـ = ١٩٨٠ م .

وجاء بعده باحث من أهل الطائف بالمملكة العربية السعودية هو «حمد عبد الله أحمد الزائدى» وقدم دراسة الكتاب وتحقيقه الى كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى ، وحصل بذلك على درجة الدكتوراه سنة ١٤٠٧ = ١٩٨٧ م . وقد استفاد هذا الباحث من مخطوطة المغرب التى لم يرها الباحث الباكستانى .

ويلاحظ أن البلنسى يسمى شرحى الوقشى والبطليوسى : الطرر والحواشى على كتاب الكامل .

وتأمل أيها القارىء العزيز : كيف ضاعت كتب وحفظتها كتب : فهذا عمل الوقشى والبطليوسى يضيع ، لكن البلنسى يحفظه فى عمل يجمعهما ، وقد عرفت هذه الظاهرة فى غير كتاب من تراثنا ، وهذا من حفظ الله وكلاء ته لعلوم الأمة ومعارفها .

ص ٢٣٤ تحدث عن طبعات الكامل للمبرد ، وأحب أن أضيف ان أصح طبعاته الى الآن هى طبعة مؤسسة الرسالة ببيروت ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م ، بتحقيق الدكتور محمد أحمد الدالى .

ص ٢٢١ ذكر من مؤلفات المبرد كتابه «الفاضل والمفضول»، والكتاب مطبوع بدار الكتب المصرية ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٦ م ، بتحقيق العلامة عبد العزيز الميمنى الراجكوتى بعنوان «الفاضل» فقط ، وقد رجح الاستاذ محمد ابو الفضل ابراهيم ، في تقديمه للكتاب ، والاستاذ الميمنى في خاتمته ، أن صواب العنوان «الفاضل» ليس غير .

ص ٢٦١ ذكر أن كتاب مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الاصبهانى طبع بالقاهرة منذ أعوام غير بعيدة ، وهو يريد تلك الطبعة التى أذاعها شيخنا السيد أحمد صقر رحمه الله ، بمطبعة عيسى البابى الحلبى ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م . والحق أن الكتاب طبع قبل ذلك طبعتين : الأولى فى طهران سنة ١٣٠٧ هـ ، والثانية فى النجف الاشرف بالعراق سنة ١٣٥٣ هـ .

ص ٢٦٦ فى تحليله لمنهج أبى الفرج فى الأغانى أنه كان يعمد لشرح الألفاظ الغامضة فيما يورده من شواهد ، وأحب أن أشير هنا إلى عمل نافع جدا ، قام به الدكتور حسن محسن ، فقد استخرج شروح أبى الفرج هذا من أجزاء كتاب الأغانى - على ضخامتها - وجمعها مرتبة فى كتاب سماه «معجم الألفاظ المفسرة فى كتاب الأغانى» ونشرته وزارة الاعلام بالكويت ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م فأسدى

الجامع وأسدت الوزارة بذلك يداً جليلة الى تراثنا اللغوى والأدبى ، ويمثل هذه الأعمال يستفيد «المعجم الكبير» الذى يضطلع به مجمع اللغة العربية بالقاهرة فليست اللغة في المعاجم فقط .

ص ٢٦٩ ذكر أن الطبعة الثانية من كتاب الأغانى قام بها الحاج محمد الساسى ، والصواب : المغربى . وقد كتبت عنه فى كتاب الهلال (الكتاب المطبوع فى مصر فى القرن التاسع عشر ، عدد أغسطس ١٩٩٦ م) فى الصفحات ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٥٤ .

ص ٣٦٠ ذكر ان كتاب رايات المبرزين لابن سعيد الأندلسى نشره المستشرق الإسبانى غرسيه غومث بمدريد عام ١٩٤٢ م ، وأضيف : أن الكتاب أعيد نشره نشرة علمية محررة ، بتحقيق الدكتور النعمان القاضى ، وصدر عن المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م ، ورحم الله ذلك المحقق «النعمان القاضى» فقد كان من أفاضل الناس .

ص ٣٧٦ أشار الى الأجزاء الثلاثة التى طبعت بالقاهرة من كتاب أزهار الرياض فى أخبار عياض ، في الأعوام ١٩٣٩م ، ١٩٤٠م ، ١٩٤٢ م، بتحقيق الاساتذة مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى ، ثم ذكر أن بقية الكتاب لا تزال مخطوطة ، وأبشر الاستاذ الكريم بأن هذه البقية قد طبعت فى جزء ين بالمغرب العزيز بدعم من صندوق احياء التراث الاسلامى المشترك بين المملكة المغربية ودولة الامارات العربية المتحدة ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م . بتحقيق الاساتذة

سعيد أعراب ومحمد بن تاويت وعبد السلام الهراس مع إعادة الأجزاء الثلاثة المطبوعة بالقاهرة بالتصوير ، مع استدراكات وتصويبات عليها .

وبعد : فلم يبق إلا تقديم أصدق التحية والشكر للأستاذ الكبير الدكتور الطاهر أحمد مكى ، على هذا العمل الجليل الذى هو خير ما يقدم لأبنائنا فى هذه المرحلة من العمر ، وان كانت مادة الكتاب مما يفيد منها كل قارىء للعربية ، ثم أعود إلى ما اقترحته فى صدر كلمتى من أن يكون هذا الكتاب - وبخاصة المائة صفحة الأولى - فرض عين على كل طالب علم فى كلياتنا ومعاهدنا المعنية بالدراسات العربية والإسلامية ، لا أستثنى معهدا أو كلية . والله الهادى الى سواء السبيل.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الكتب الصفراء والحضارة العربية

كتب الشاعر الأستاذ أحمد عبدالمعطى حجازى ، كلمة فى جريدة الأهرام بتاريخ ٢٦/٨/ ١٩٩٢م قدم فيها كتاب الأستاذ الكبير النبيل الدكتور مصطفى ناصف «صوت الشاعر القديم» .

وقد ذكر الأستاذ حجازى فى صدر كلمته أنه مدين لثلاثة أساتذة بما يعرفه من الشعر الجاهلى : أولهم مفتش لغة عربية رآه أيام الدراسة، وقد دخل عليهم الفصل ، وكان أستاذ اللغة العربية يشرح شيئا من شعر الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، فلم ترق طريقة المدرس فى شرح شعر الأعشى ذلك المفتش ، فأخذ الكلام من المدرس ، واندفع فى شرح بلغ من الأستاذ حجازى مبلغا كبيرا من الرضى والارتياح ، ثم غاب ذلك المفتش ، ولم يره الأستاذ حجازى ، ولم يسمع به بعد ذلك. ولا نعتقد أن مثل هذه اللحظة الخاطفة فى حصة دراسية محدودة ، أخذ فيها ذلك المفتش فى شرح بيتين اثنين من شعر الأعشى على نحو مطرب معجب ، تضع هذا المفتش - حَذْوَ القُذَّة بالقُذّة - مع عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، والأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف،

وتجعل الأستاذ حجازى مدينا لهؤلاء الثلاثة بما يعرفه عن الشعر الجاهلى ! غاية ما يقال عن ذلك المفتش الحاذق اللَّبق أنه حبب إلى ذلك الفتى الصغير الشعر الجاهلى ومهد لأنغامه الشجية أن تنصب إلى سمعه وتتولج فى قلبه .

على أنى أظن ظنـًا أن الأستاذ حجازى قد غبَن نفسه ، وحجَّر عليها واسعا حين حصر طريق معرفته بالشعر الجاهلى فى هؤلاء الثلاثة ؛ فإنى ألمح فى شعره وفى كتاباته الأخيرة رصيدا طيبا من القراءة المتعددة المصادر والموارد .

والعميد الدكتور طه حسين - على جلالة قدره ونباوة محله - لم يكن وحده فى ساحة الشعر الجاهلى ، فقد سبقه سابقون ، وعاصره معاصرون ، ولحقه لاحقون ، بذلوا لذلك الشعر الجاهلى من صفاء نفوسهم ونقاء أذواقهم ، وذكاء ألسنتهم ، ونصاعة أقلامهم ، ما كشف هذا الشعر ، ودل على أنه أنبل كلام العرب وأشرفه ، وأنه مستودع أسرار العربى ومستراحه ، ومَجلّى مواجعه وأشواقه .

أما الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف فما فتىء يصرِّح بأن الشأو بعيد ، والمدى أوسع مما يحيط به بصر ، بل كثيرا ما يحدثنى كفاحا ومشافهة ليس بينى وبينه أحد ، عن صعوبة طريق الشعر ، ثم يقول لى بلهجته العذبة الودود : «يا مولانا المسألة ما هش كده ، احنا محناش واخدين بالنا ، لازم نقرأ ونقرأ» ثم يثنى على فلان ، ويحيل على فلان من السابقين الأوّلين .

ومهما يكن من أمر فإن الذى يعنينى من مقالة الأستاذ حجازى هنا قوله عن الدكتور طه حسين : إنه يدين له «بهذا المنهج الذى أخرج به الشعر الجاهليّ من سلطان النحاة والشُّرّاح وسَدنَة الكتب الصفراء» . وهكذا يرسل الأستاذ حجازى الكلام إرسالا وكأن ذلك من الحقائق المؤكدة التى استقرت عند الناس ، ولم يبق لأحد فيها مقال .

وسنؤخر الحديث عن «سلطان النحاة» إلى حين «وأحبب إلينا أن تكون المقدَّما» . ونأخذ فى الحديث عن «سدنة الكتب الصفراء» ولنفرغ أولا من «سَدَنة» هذه على طريقة «تحرير المصطلح قبل الأخذ فى المناقشة» و«سدنة» من الكلمات التى يتساهل بعض الكتاب فيها ، فيستعملونها فى غير ما وضعت له . وهى جمع «سادن» وهو خادم الكعبة خاصةً ، وخادم الأصنام فى الجاهلية ، والفعل منه سَدَنَ يَسْدُن ، من باب قَتَل يَقْتُل . قال ابن فارس فى مقاييس اللغة : «السين والدال والنون أصل واحد لشئ مخصوص . يقال : إن السدانة : الحِجابة ، وسدنة البيت «حَجَبَتُهُ» انتهى كلامه . وقوله : «لشئ مخصوص» قطع به طريق المجاز ، وأراد أن العرب لم تستعمله فى غير هذا المعنى ، وأن مثل ذلك لا ينقل إلى غير معناه الخاص إلا بسماع صحيح ممن يوثق بعربيته . فبطل إذن - بحمد الله - استعمال «سَدَنة» هنا .

ولم يبق إلا «الكتب الصفراء» وهو وصف عجيب ، كنا نسمعه قديما ونحن شَبَبَةٌ صغار ، فنفتتن به افتتانا ، كما كنا نفتتن بمثل «الشعر

المهموس» و«الدَّفْقة الشعورية» و«تراسُل الحواس» و«المنولوج الداخلى» فلما أفقنا من الغَشْية ، وعرفنا الطريق ، أدركنا أن ذلك كله مما لا غناء فيه ، ولا طائل تحته ، وأنه كما قال ابن قتيبة : «ترجمةٌ تروقُ بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم» ، أو كما قال ابن الشجرى : «تهاويلُ فارغةٌ من الحقيقة» .

وقد اختفى هذا الوصف «الكتب الصفراء» زمانا ، ثم عاد مرة أخرى ، وإذا كنا لا نحفل به إذا جاء فى كلام من لا يُؤْبَهُ له ، ولا يُعاجُ به من صغار الكتّاب ، فإن الأمر يختلف إذا ورد فى كلام شاعر كبير مثل الأستاذ أحمد عبدالمعطى حجازى ، له قراء ومحبون ، وأستاذ جامعى مثل الأستاذ الدكتور عاطف العراقى ، له تلاميذ ومريدون ، وذلك فى كلمة له قريبة فى الأهرام أيضا .

وواضح أن ورود هـذا الوصف فـى كـلام الأستاذ حجازى والدكتور العراقى ، ومن لَفَّ لَفَّهُـما ، إنما هـو فى مـقام الذّمّ والسّخرية، بحيث صار استعمال هذا الوصف مرادفا للأدب الغثّ والفكر الهزيل المتخلف .

وإذا كنا لا نرضى لأنفسنا أن نتغلغل إلى المطوىّ فى ضمائر الناس ؛ لأن ذلك عند علام الغيوب ، وإذا كان الأستاذ حجازى والدكتور العراقى ، وكل من استعمل هذا الوصف ، لم يقدموا لنا نماذج محدَّدة من أسماء هذه الكتب الصفراء ، وما تشتمل عليه من ألوان

الفكر وضروب الأدب، إذا كان ذلك كذلك ، فإن من حقّنا أن نقف عند الدِّلالة المجردة لهذا الوصف ، فنقول ببداهة العقل وبمطلق الدِّلالة : إن كل فكر جاء فى كتب صفراء مرفوض ومُطَّرَح ؛ لأن الوصف إذا جاء بغير قيد أو استثناء دخل تحته كل أفراد جنسه . ومعنى هذا ببداهة العقل أيضا ، وبمطلق الدِّلالة أن ديوان الأستاذ حجازى «مدينة بلا قلب» إذا جاءنا فى ورق أصفر اجتويناه ورفضناه ، وبمفهوم المخالفة : إذا جاءنا هذا الديوان على ورق كوشيه فاخر ، كان ذلك رافعا لخَسيستِه - إن كانت فيه خسيسة - لا قدر الله ولا قضى .

ونحن نقولها بكل سلامة الصدر ، وبكل خلوص النية لكل من عنده خبر عن حقيقة هذا الوصف : نبِّئنا بتأويله .

وبكل سلامة الصدر أيضا وخلوص النية نسأل الأستاذ حجازى ، نعم نسأله ، تَهَكُّماً لا تَعنُّتاً : ما معنى قولك : إن الدكتور طه حسين أخرج الشعر الجاهلى من سدنة الكتب الصفراء ؟ فمن هم هؤلاء السدنة - إن قَبِلْنا هذا الاستعمال ؟ ما هى أسماؤهم ، ثم ما هى أزمانهم ؟ ثم ما هذه الكتب الصفراء التى جاء فيها شرح الشعر الجاهلى مُحَرَّفاً ومُزالا عن جهته ، حتى جاء عميد الأدب العربى فنفخ فيه مِن رُوحه حتى نهض قائما على سوقه ؟

إن الشعر الجاهلى قد جاءنا موثَّقا مضبوطا فى دواوين أصحابه التى صنَّفها علماء الصدر الأول ، مثل ابن السكِّيت وابن حبيب وثعلب

والسكّرى ، وفى الشروح الكبرى ، مثل شرح المفضليات لأبى محمد الانبارى ، وشرح القصائد السبع لابنه أبى بكر ، وشرح القصائد التسع لأبى جعفر النحاس ، وجاءنا أيضا فى المجاميع والمختارات الأدبية التى صنَّفها فحول العلماء فى الصدر الأول أيضا كالمفضليات والأصمعيات والحماسات والمختارات ، وجاءنا أيضا منثوراً ومفرَّقاً فى كتب الأمالى والمجالس ودواوين الأدب ومعاجم اللغة ، بل وفى كتب التاريخ والبلدانيّات (الجغرافيا) .

وحين ظهرت المطبعة ، وتصدى علماء البعث والإحياء لشرح الشعر الجاهلى ، قرأناه فى مؤلفات جِلَّة العلماء ، من أمثال الشيخ حسين بن أحمد المرصفى ، والشيخ سيد بن على المرصفى ، والشيخ حمزة فتح الله . ثم جاءت طبقة تلاميذهم من قرّاء الشعر الجاهلى وشرّاحه ، مثل الاستاذ محمود محمد شاكر ، والدكتور طه حسين ، والطبقة التى جاءت بعدهما مثل الدكتور نجيب محمد البَهْبِيتى ، والدكتور عبدالله الطيب المجذوب ... وهلمَّ جرّاً إلى أساتذة الأدب ودارسيه بالجامعات وغير الجامعات .

فأنت ترى أن الشعر الجاهلى تنقل فى أصلابٍ كريمة ، ووعتْه صدورٌ حافظة ، وحملتْه أيدٍ بارَّة ، وأدَّتْه ألسُنٌ ذكيَّة . وهؤلاء العلماء المحْدَثون الذين ذكرتهم إنما قرأوا الشعر الجاهلى وغير الجاهلى فى الكتب الصفراء .

فإذا تركنا حديث الشعر الجاهلى ونظرنا فى تراثنا كله المطبوع فى مطبعة بولاق والمطابع الأهلية الأخرى بمصر وسائر بلاد الدنيا ، وجدناه كلّه - وبخاصة أواخر القرن الماضى والربع الأول من القرن الحالى - قد جاءنا فى الورق الأصفر ، فقد قرأنا تفاسير القرآن الكريم ودواوين السنة المطهرة فى الورق الأصفر ، وكذلك كتاب الأم للشافعى ، وكتاب سيبويه ، والأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ، وتاريخ الطبرى وابن الأثير ومقدمة ابن خلدون ، والفتوحات المكية لابن عربى ، ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية ، ووفيات الأعيان لابن خِلِّكان ، ونفح الطيب للمِقّرى ، وألف ليلة وليلة .. وسائر كتب الحضارة العربية والإسلامية ، وكذلك الكتب المترجمة يومئذ إلى العربية فى أنواع العلوم ، كالطب ، والهندسة، والفلك، والرياضيات ، والعلوم الحربية . وكذلك كان الشأن فى كثير من مطبوعات أوروبا من الكتاب العربى وغيره . يقول العلاّمة الدكتور عبدالله الطيب المجذوب ، صاحب الكتاب العظيم «المرشد إلى فهم أشعار العرب» فى محاضرة ألقاها بنادى ناصر الثقافى بالخرطوم : «وأشهد على نفسى أنى عندما كنت أدرس فى الخارج - يعنى لندن - كنا ندرس بعض القطع المسرحية لشيكسبير ، فكان التلاميذ معنا يُسَمِّع بعضهم لبعض القطع عن ظهر قلب ، حتى أمثال «يدخل يطارده القتلة» أو «يخرج يطارده سبع» وكانت لهذه المسرحيات القديمة شروح ، قد تكون الأبيات أربعة أسطر فى أعلى الصحيفة بخط كبير ، وسائر الصحيفة بخط دقيق شرح لما فوق ، ويُقبل التلاميذ على ذلك ولاينفرون،

فإذا قُدّم لهم شئٌ يشبه ذلك بالعربية نفروا منه نفورا شديدا . ومن عجب الأمر أن الكتب التى كنا ندرسها بالانجليزية كان ورقها أصفر . والورق الأصفر لعله ألين على عين القارئ من الورق الناصع الأبيض» انتهى كلامه ، ويؤكّده أن مصابيح الإضاءة فى شوارع وميادين المدن الكبرى غلب عليها الآن اللون الأصفر .

وقد شهدنا فى الكتب الصفراء ظاهرةً طباعية عجيبة ، لم نشهدها فى الكتب البيضاء ، وهى ظاهرة طبع كتاب أو كتابين بهامش الكتاب الأصلى ، أو بآخره إذا كان له صلة بالكتاب الأصلى . والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ، لا داعى للتطويل بذكرها ، على أن أعجب ما فى هذه الظاهرة أن نرى خمسة كتب مطبوعة فى كتاب . وفى صفحة واحدة اجتمعت الكتب الخمسة ، فى الصُّلب والهامش ، مفصولة بجداول ، دون أن يختلط بعضها ببعض ، أو يبغى بعضها على بعض . وذلك : كتاب شروح التلخيص فى علوم البلاغة ، ويشتمل على :

١ – شرح سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى .

٢ – مواهب الفتّاح فى شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربى .

٣ – عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح ، لبهاء الدين السُّبكى.

٤ – الإيضاح للخطيب القزوينى .

٥ – حاشية الدسوقى على شرح السعد .

والثلاثة الأولى طبعت في صلب الكتاب ، والاثنان الباقيان بهامشه وكانت الطبعة الأولى للكتاب بمطبعة بولاق - على الورق الأصفر - سنة ١٣١٧هـ ، أى منذ نحو مائة عام . وكانت هذه الطبعة على نفقة مصطفى أفندى المكّاوى ، المحامى بمدينة الفيوم ، والشيخ فرج الله زكى الكردى ، وكيل الشركة الخيرية لنشر الكتب العالمية الإسلامية ، من طلبة العلم بالأزهر الشريف ، وعبدالحميد أفندى الصمدانى .

وقِفْ أيها القارئ الكريم عند اسم «مصطفى أفندى المكّاوى المحامى» وانظر إلى همم الرجال واهتماماتهم فى تلك الأيام ! رجل من رجال القانون ينهض للمشاركة فى نشر أصول من كتب البلاغة ! وأدَعُ لك أيها القارئ العزيز التدبُّر فى هذا الذى كان ، وما نحن عليه الآن !

وظاهرة طبع الكتب بهامش كتب أخرى ، ظاهرة عجيبة فريدة ، وهى دالَّةٌ بوضوح على أن القوم كانوا فى سباق لنشر العلم وإذاعته . وما أعلم أن هذه الظاهرة عُرِفَت فى غير مطابع مصر واستانبول ، فى بداية الطباعة العربية على الأقل .

هذا وقد ارتبط الورق الأصفر عند عارفى الكتب وجامعيها ، بجودة التصحيح وكمال الإخراج - وتلك حقبة غالية من تاريخ الطباعة فى مصر - فقلَّ أن تجد تصحيفا أو تحريفا ، وجاءت النصوص كاملة موفورة ، لا سَقْطَ فيها ولا خَلَلَ ، وذلك لأن القائمين على تصحيح الكتب

الصفراء فى ذلك الزمان كانوا طبقة من فضلا العلماء ، وكانوا يقومون بعملهم هذا فى أمانة تامة وحرص شديد . ويذكر التاريخ من أسماء هؤلاء المصححين العلماء : نصر الهورينى ، ومحمد بن عبدالرحمن ، المعروف بقُطّة العدوى ، ومحمد الحسينى ، وطه محمود ، ومحمد عبدالرسول ، ومحمد قاسم ، ومحمد الزهرى الغمراوى ، وعبدالغنى محمود .

وكان كثير من أساتذتنا الذين يجمعون الكتب يركضون خلف الطبعة الصفراء ، ويسمحون فيها بأغلى الثَّمن ، فإذا جئت أحدهم بطبعة من الكتاب القديم على ورق أبيض ، نفر منها نفورا شديدا ، فإذا زينتها له بأن فيها أوائل فقرات ، وعلامات ترقيم ، لَجَّ فى إعراضه ، وقال : «بِطينه ولا غَسيل البرَك» .

وإن تعجب فعجب : أن الورق الأصفر قد عاد إلى الطباعة مرَّةً أخرى . وأمامى الآن طبعة جيدة جدا من «القاموس المحيط» للفيروزابادى ، على ورق أصفر . وتقع هذه الطبعة فى (١٧٥٠) صفحة، وقد أصدرتها مؤسسة الرسالة ببيروت – الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م. ثم طبعة محقَّقَة من كتاب «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصبهانى . على ورق أبيض ، ولكنه بياض خفيف يميل كُلَّ الميل إلى الأصفر . وهذه الطبعة من منشورات دار القلم بدمشق ، والدار الشامية ببيروت . الطبعة الأولى ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م .

هذا ولن تزول حيرتى ، ولن ينقضى عجبى من حديث «الكتب الصفراء» والحطّ عليها ، إلا إذا جاءنى كاتب بكلام محدّد مُبين موثق ، بأسماء هذه الكتب الصفراء ، والفنون التى عالجتها ، والدلالة على مواضع الذم منها . وليس لى إلا شرط واحد : أن يرفُقَ بى الكاتب ، فلا يهجم بى على دهاليز المنهجية والموضوعية والإشكالية ، وحركة التاريخ ، والحتمية الحضارية ، وأن يأتينى الكلام واضحا قاطعا ، لا ترى فيه عِوَجاً ولا أمْتاً ؛ فإن كثيرا مما نقرأه ونسمعه فى هذه الأيام مما ينطبق عليه قول ذلك الأعرابى وقد حضر مجلس الأخفش فسمع كلاما لم يفهمه، فحار وعجب ، فقال له الأخفش : ما تسمع يا أخا العرب ؟ فقال : «أراكم تتكلمون بكلامنا فى كلامنا بما ليس من كلامنا» ...

نعم ... إن كثيرا مما نقرأه ونسمعه الآن مما يدير الرأس ويجعل الأعلى أسفل والأسفل أعلى ، وكأنك فى مدينة ملاهٍ ، أمام تلك الصناديق التى يجلس فيها الصغار : تعلو بهم ثم تهبط ، ثم تعلو ثم تهبط ، إلى أن يدركهم الدُّوار ، أو يُنْزِلَ اللّهُ عليهم النُّعاس أمَنَةً منه .. والملجأُ الله .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الجامعة المصرية إلى أين ؟

الكتاب الجامعى والطريق الصحيح

ذات يوم ضمّنا مجلس علمى لقسم اللغة العربية بإحدى الكليات ، وطرح رئيس المجلس قضية محالة على القسم من عميد الكلية ، توصى بأخذ رأى الطالب فى تقييم عمل الأستاذ وترقيته . ولم يكد رئيس القسم ينتهى من قراءة هذه التوصية حتى هبت عاصفة كادت تدمر كل شىء ، ومادت بنا الأرض، وعلا ضجيج ، واختلطت أصوات ، وجحظت عيون ، وانطلقت ألسن تدفع الضيم وترد الحيف عن الأستاذ الجامعى ، وتريد أن ترفعه إلى مكان علىٍّ لا ينال ولا يُطال ، وكأنه ذلك النبى المرسل المصطفى المختار من عباد الله ، المؤيَّد بالوحى ، الذى لا ينطق عن الهوى ، المعصوم من الخطأ ، المبرأ من الهوى ، أو كأنه تلك الصخرة التى شبه بها سفيح بن رباح الفرزدق ، فى قوله :

إن الفرزدق صخرة ململومةٌ
طالت فليس تنالها الأوعالا

(وانتصاب الأوعال بطالت : أىِ طالت هذه الصخرة المشبَّهُ بها الفرزدق الأوعال . وإنما قال هذا ، لأن مأوى الوعل أعالى الجبال . والوعل : هو التيس الجبلى) ، وسمعنا فى هذه الجلسة كلاما ضخما فخما عن كرامة العلم وهيبة الجامعة . أما ذلك الطالب المسكين فقد

جاءه الذم من كل مكان ، ونال حظه موفورا من التنقُّص والمعابة ، وسوء الرأى وضعف التدبير .

وتركت القوم حتى سكنت فورتهم ، وهدأت ثائرتهم ، ثم قلت لهم : على رِسْلِكُم يا قوم ، اربعوا على أنفسكم ، ولا تغضبوا ولا تفزعوا ، وتعالوا إلى كلمة سواء : أليس الطالب هو أساس العمل الجامعى كله ؟ أليس هو قطب الرَّحى وعمود الصورة ؟ فلماذا نحقر شأنه وإنما نحن أساتذة به ؟ ونحن حين نعلمه ونخرجه إنما نتعلم العلم معه مرة أخرى ، ولولاه لصدئَت عقولنا وتقصفت أقلامنا . والطالب النابه - ولا زال موجودا بجامعاتنا ومعاهدنا والحمد لله - يستخرج من أستاذه علما خبيئا حين يدارسه ويفاتشه ، وقد يفتح عليه أبوابا من النظر والعلم كانت موصدة دونه لولا مذاكرة ذلك الطالب ومدارسته ، وفى موروثنا الثقافى كان التلميذ النابه يُسمَّى صاحبا لشيخه : فأبو يوسف ومحمد ابن الحسن الشيبانى صاحبا أبى حنيفة . والربيع بن سليمان صاحب الشافعى ، وهو ناسخ كتابه العظيم «الرسالة» ، وكان الشافعى يقول له: «أنت راوية كتبى» . وابن جنى صاحب أبى على الفارسى. بل قد تتوثق العلاقة وتشتد الآصرة فيصير التلميذ غلاما لشيخه ، كما ترى فى أبى عمر الزاهد غلام ثعلب . فالتلاميذ أصحابٌ لشيوخهم ، وتأمل عبارة الشافعى فى الليث بن سعد رضى الله عنهما : «الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به» . فينبغى أن يُنظر إلى الطالب على أنه صاحب ومشارك ؛ لأن العالم لا يكون عالما إلا بمتعلم ، وينبغى أيضا أن

نحتشد لهذا الطالب احتشادا ، وأن نحبِّر له الكلام تحبيرا ؛ تأليفا ومحاضرات ، وقد أدركنا جيلا من الأساتذة والأشياخ - فى مراحل تعليمنا كلها - كانوا يلقوننا بكثير من الجد والإسماح . ومنهم من كان يدور بعينيه علينا واحداً واحداً ، فى أثناء المحاضرة يعطى كلاً منا حظه من العناية والنظر ، وكأنه يلتمس أمارات الرضا عما يقول ، ومواقع القبول لما يلقي . بل إن منهم من كان يصرح فيقول : إيه رأيكم يا ولاد؟ كلام حلو ؟ عليه نور ؟ وكان أستاذنا عباس حسن رحمه الله إذا خاطب أحدنا فى المحاضرة قال : « يا حضرة الأستاذ» مع أنه كان صاحب كِبْرٍ ويَأْوٍ ، مع كثير من زملائه ، كما كنا نرى - ولا تَحْتَجَّنَّ علينا بقلة عدد الطلبة آنذاك ، وكثرتهم الآن ، فلو ظفر طلاب الصفوف الأولى فى المدرجات الآن بهذه العناية لكفى .

الرأى الجمعى

على أن قضية أخذ رأى الطالب فى تقييم عمل الأستاذ وترقيته لا ينبغى أن تؤخذ على ظاهرها هذا السهل الساذج ، فنحن لا نتوجه إلى الطلبة واحداً واحداً ، نسألهم رأيهم فى أستاذهم ، على طريقة قوائم الاستبيان المعروفة ، فذلك أمر مرفوض ومُطَّرَح . ولكن المسألة أبعد من هذا . ولعل أقرب صورة لتحقيق هذه الغاية هى الرأى الجمعى للطلاب ، فحين نرى إجماعا أو شبه إجماع من الطلبة على حضور محاضرات ذلك الأستاذ فهذه شهادة له ، وحين نلمس حرص الطالب على كتاب أستاذه وحفاوته به واحترامه له ، فذلك إقرار بعلم ذلك الأستاذ - ودعك

من مسألة الاستلطاف أو الارتياح الشخصى بتأثير خفة ظل الأستاذ أو تودده إلى طلبته بحلو الكلام ومعسوله ، أو سخاوته فى درجات الامتحان ، على قاعدة «إنما يمدح السوق من ربح» - فهذه أمور إن دامت أسبوعاً فلن تدوم شهرا ، وإن تجاوزت الشهر فلن تبلغ العام ، ودعك أيضا من الوشايات والإشاعات والسعايات لرفع خسيس أو وضع عال فهذه كلها أمور مكشوفة مفضوحة ، ولا يصح إلا الصحيح . وحين نرى إعراضا من الطالب عن محاضرات أستاذ ، واستخفافه بما يكتب، وزهده فيما يقول فذلك إيذان بضعف ذلك الأستاذ .

والعجيب أن ذلك كله - مدحاً وذماً وإقبالاً وإعراضاً - لا يخفى على عمداء الكليات ورؤساء الأقسام بها ، بل لا يخفى على الزملاء أنفسهم ، ولكنها المداراة والمصانعة . وفى آخر الأمر فإن الطالب النابه هو شاهد الصدق على علم الأستاذ وإخلاصه ؛ لأنه يبدى رأيه فى أستاذه وهو سليم الصدر ، منزه عن الغرض ، برىء من الشبهة ، ولا يجد الهوى إلى نفسه سبيلا . فينبغى أن يصار إلى رأى ذلك الطالب : شهادة تزكية إلى جانب تقرير اللجان العلمية التى يقول عنها بعض الناس ما يقولون ، وربك يعلم ما تُكِنُّ صدورهم وما يعلنون .

★★★

وهذا الذى قرأته أيها القارىء الكريم إنما هو مقدمة ومدخل لأمر جلل وشأن عظيم ، وهو الكتاب الجامعى : منهجاً وإخراجا . إن الكتاب الجامعى هو حامل العلم إلى الطالب ، وهو الصورة الماثلة الثابتة

للأستاذ أمام الطالب ، فإما أن يحرص على هذه الصورة ، يستصحبها معه ويتمثلها فى مستقبل أيامه . وإما أن يستهين بها ، ويتخلص منها ساعة فراغه من حاجته إليها .

إن الأصل فى الكتاب الجامعى أنه يقدم علما قائما على منهج ، وهذا المنهج وضعه بعناية أساتذة كبار منذ اليوم الأول لقيام الجامعات والمعاهد العليا ، وفى داخل هذا المنهج مفردات ومقررات تغطى على مدار سنوات الطلب أصول كل علم ، وهذه المفردات والمقررات وضعها هؤلاء الكبار أيضاً . وقد طرأت على هذه المناهج بعض التغييرات والإضافات نتيجة لتقدم بعض فروع العلم ، باستحداث مواد لم تكن موجودة ، أو تطوير بعض ما هو قائم ، لكن هذه التغييرات أو الإضافات لم تمس أصول ذلك المنهج القائم على تزويد الطالب بأصول العلم وجوهر المعرفة ، ويظل الأستاذ الجامعى مهما علا شأنه وارتفع قدره مشدودا إلى هذا المنهج ملتزما بمفرداته ومقرراته ، دائرا فى مراجعه ومصادره ، فإذا حاد عنه رُد إليه رداً جميلاً أو غير جميل ، من رئيس قسمه أو عميد كليته .

هكذا كانت الأمور ، وهكذا مضت وفى ذلك الطريق تخرجت أجيال من الجامعيين مؤسسة على العلم الصحيح . ويداول الله الأيام بين الناس ، فتحدث أمور تفضى إلى أمور ، ويترخص الناس فيما لا يُترخص فيه ، وتقل المرجعية فى العلم ، ويتصرف بعض المعلمين من عند أنفسهم استبداداً واستقلالاً ، فتضيع المعالم ويختلط المرعىُّ

بالهمل، وتتداخل النوايا والمقاصد ، «وبعض السَّجايا ينتسبن إلى بعض» على ما قال ابن الرومى .

وكان ما كان مما لست أذكره ، وإذا نحن بين يوم وليلة أمام بعض الكتب الجامعية لبعض الأساتذة الذين أباحوا لأنفسهم أن يبتعدوا قليلا أو كثيرا عما كان مستقرا وثابتا فى أصول المنهج ومفرداته التى درجت عليها الأجيال ، بل إن بعض مفردات هذه المناهج قد اختفت فعلا لتحل محلها بحوث الأساتذة التى حصلوا بها على شهاداتهم العليا (الماچستير والدكتوراه) ثم ما قدموه من بحوث للترقيات العلمية ، وبعض ذلك يقدم بعنواناته الأصلية ، وبعضه يغير ويوضع تحت مسميات جديدة ، ويقدم كل ذلك للطالب ويطلب منه تحصيله وفهمه وأداء الامتحان فيه . لقد أصبح محتوى المقرر الدراسىِ خاضعاً لمشيئة المدرس ومزاجه . وفضلا عن وعورة هذا المسلك وجهد المشقة فيه ، فإن الطالب لن يعود منه بشىء ذى بال ، فى هذه المرحلة من العمر ، ولن يفيده فى معرفة أصول العلم وقواعده ، وخذ مثلا علم النحو ، وهو علم التراكيب الذى لا غنى عنه لطالب العربية فى أى فرع من فروعها ، هذا العلم يقوم على التعريفات والقواعد والشواهد - وقد قيل بحق : النحو شاهد ومثل - فكل جهد يبذل فيه فى السنوات الجامعية الأربع ينبغى أن يدور حول هذه الأركان الثلاثة ، لا يتجاوزها ولا يتعداها إلى غيرها من النظر فى أصول النحو ، من قياس وسماع وعلة بل يؤجل ذلك كله إلى ما بعد المرحلة الجامعية الأولى لمن أراد أن يُتم الطريق ، ولكن

الأمر قد جرى على غير هذا – وبخاصة فى العقدين الأخيرين – وليت الأمر قد وقف عند هذا الحد ، فإن بعض زملائنا يفتح على الطلبة أبواباً من النظر فى فلسفة النحو تضرهم ولا تنفعهم ؛ لأنها تورثهم الشك والحيرة . جاء نى يوما أحد الطلبة يسألنى : يا دكتور ، ما الفرق بين الموقع الإعرابى والحالة الإعرابية ؟ فقلت له : من أنبأك هذا ؟ قال : الدكتور الفلانى فى الكتاب الفلانى ، فقلت له : يا بنى ، هذا الدكتور رجل من أهل العلم ، وكلامه هذا للكبار من أهل العلم ، أما أنت فلا زلت فى أول الطريق ، وقد جئت إلى هذه الكلية تدرس فيما تدرس علم النحو، لكى تقرأ قراءة صحيحة وتكتب كتابة صحيحة ، فاشتغل بذلك ودع ما سواه .

ومن أخطر الأمور أيضا ما يقوم به بعض زملائنا من نقد للفكر اللغوى والنحوى أمام هؤلاء الشباب ، ويحدثنا بعض الطلبة أن أستاذا يخصص نصف المحاضرة لعرض القاعدة النحوية ، ثم يصرف النصف الآخر لنقدها ونقضها ، وبعضهم يبدأ حديثه عن المعاجم العربية بذكر عيوب المعجم العربى ، من تكرار المادة وتشويشها وتضارب النقول فيها، ثم يأتى حديثه عن مناهج هذه المعاجم ومدارسها وطريقة التعامل معها ، خافتا ضعيفا فى آخر الكلام .

الحاجة الملحة للمعلم

لقد تحول كثير من الأساتذة الآن إلى منظّرين وفلاسفة ، وبعضهم يستخدم مصطلحات وتراكيب لامعة براقة ، تأسر الطالب أسْراً ،

وتجعله دائم التطلع إليها والتشبث بها ، يريد أن يحاكيها ، وقد يصده ذلك عن التماس العلم الحقيقى . إن الطالب فى حاجة إلى مُرَبٍ ومُعلمٍ ، لا إلى منظّرٍ وفيلسوفٍ ، فكل ما يلقى على الطلبة فى هذه المرحلة الجامعية الأولى ، وكل ما يكتب لهم ينبغى أن يقوم على أساس ثابت من أصول العلم وحقائقه ، وما فوق ذلك من نقد وتحليل وتتبع ينبغى أن يؤجل إلى مرحلة الدراسات العليا ، كما قلت . فمناهج تدريس النحو والصرف واللغة والبلاغة والأدب يجب أن تدور فى فلك القاعدة والشاهد، ولا بأس من الإلمام بشىء من النقد والتحليل ، يُشْرِفُ ولا يتوغل ، ويحوم ولا يواقع ، لأنه لا يصح بحال أن نكشف لصغار الطلبة فى هذه المرحلة الجامعية الأولى ، عن أبواب النقد هذه وأن ندلهم عليها ، فإن مداركهم تقصر عن إدراك تلك المرامى البعيدة ، فضلا عما يحدثه ذلك فى نفوسهم من زلزلة وبلبلة قد تزهدهم فى العلم كله ، وقد نبه أهل العلم إلى ذلك من قديم ؛ فقد ذكر أبو داود فى رسالته إلى أهل مكة : «أنه ضرر على العامة أن يكشف لهم كل ما كان من هذا الباب فيما مضى من عيوب الحديث ؛ لأن علم العامة يقصر عن مثل هذا» . قال الحافظ ابن رجب الحنبلى : «وهذا كما قال أبو داود ؛ فإن العامة تقصر أفهامهم عن مثل ذلك » . وربما ساء ظنهم بالحديث جملة إذا سمعوا ذلك » شرح علل الترمذى ص ٥٣٤ . وروى أبو سعد السمعانى بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : «إن الرجل ليُحَدِّثُ بالحديث فيسمعه من لا يبلغ عقله فهم ذلك الحديث فيكون عليهم فتنة»

أدب الإملاء والاستملاء ص ٥٩ ، ٦٠ . وروى ابن عبد البرّ عن هشام ابن عروة بن الزبير بن العوام ، قال «قال : لى أبى : ما حدَّثتُ أحداً بشىء من العلم قط لم يبلغه علمه إلا كان ضلالا عليه» . جامع بيان العلم وفضله ١/١٣٤ . وقال بدر الدين بن جماعة ، فيما يجب على المعلم نحو طلبته : «وكذلك لا يلقى إليه ما لم يتأهل له ؛ لأن ذلك يبدد ذهنه ويفرق فهمه ، فإن سأله الطالب شيئا من ذلك لم يجبه ، ويعرفه أن ذلك يضره ولا ينفعه ، وأنَّ مَنْعَه إياه منه لشفقة عليه وعطف به ، لا بُخْلاً عليه ، ثم يرغبه عند ذلك فى الاجتهاد والتحصيل ، ليتأهل لذلك وغيره . وقد روى فى تفسير «الرَّبانى» أنه الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره ، وقال أيضا : «ولا يشير على الطالب بتعليم ما لا يحتمله فهمه أو سِنُّهُ ، ولا بكتاب يقصر ذهنه عن فهمه» . تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم ص ٥١ ، ٥٢ . وذكر جلال الدين السيوطى من أدب الرواية والتعليم ، قال : «ومن آدابهما الإخلاص ، وأن يقصد بذلك نشر العلم وإحياءه ، والصدق فى الرواية ، والتحرى والنصح فى التعليم والاقتصار على القدر الذى تحمله طاقة المتعلم» . المزهر ٢/٣٣٠ .

★★★

على أن بعض الأساتذة قد هُدِيَ إلى صراط مستقيم ، فوضع بين يدى طلبته ذلك الكتاب الجامعى القائم على الكشف عن أصول العلم ، وعرض القاعدة مؤيدة بالنصوص والشواهد ، دون إغراق فى النقد والتحليل ، لكنه كان من المؤسف والمحزن حقا أن ينظر إلى مثل ذلك

العمل على أنه كتاب مدرسى ، وصار هذا الوصف «الكتاب المدرسى» علامة على الخِفّة والسهولة، وصار مجلبة للتنقص وطريقا إلى المعابة. بل بلغت الجرأة مداها أن يصف بعضهم ما كتبه أحد أعلامنا الكبار - متعه الله بالصحة والعافية - فى تاريخ الأدب العربى فى عصوره المختلفة، بأنه عمل مدرسى ، غايته الجمع والتبويب ، وأنه خالٍ من التحليل والموازنة والنقد. ومعنى هذا أنه إذا جاءك أحدهم بعمل قائم على الثرثرة بتلك المصطلحات الخادعة : التحليل - الموازنة - النقد ، ثم قَمَشَ علماً من هنا وسَلَخَ علما من هناك ، واختار عنوانا أخاذاً براقاً ، أقول : معنى هذا أن ذلك العمل يفوق أعمال هذا الأستاذ الكبير ، الذى قدم أعمالا ضخمة فى تاريخ الأدب العربى وعصوره ، أفنى فيها عمره ، وأطاب بها ذكره .

إن مصطلح «التحليل» وما أثير حوله من صخب وطنطنة قد عطل علماً كثيراً، ودفع إلى كثير من التهويل والتضخيم، وغَمَط فضلا كثيراً . ولقد ذكرنى هذا الحديث بكتابين عظيمين التقيت بهما فى أوائل الستينات، إذ كنت طالبا بكلية دار العلوم، أولهما كتاب «أسس النقد الأدبى عند العرب» للدكتور أحمد أحمد بدوى رحمه الله ، وثانيهما: كتاب «البيان العربى » للدكتور بدوى أحمد طبانة ، أطال الله فى عمره . وهذان الكتابان مشحونان بالتعريفات والنصوص ، لأعلام النقد والبلاغة، كالجاحظ وابن قتيبة وأبى هلال العسكرى، والآمدى ، والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى، والشيخ عبد القاهر الجرجانى،

وابن سنان الخفاجى، وابن طباطبا العلوى ، وضياء الدين بن الأثير. وأذكر أننا كنا شديدى الضيق بهذين الكتابين، وكنا نشكو منهما كل الشكوى . ولعل مما أغرانا بالضيق والشكوى من هـذا اللون من التأليف : ظهور جيل جديد من صغار النقاد، بدأوا يثرثرون من خلال المقاهى الأدبية التى كانت فى تلك الأيام، مثل مقهى الإنديانا بميدان الدقى، ومقهى ريش بشارع طلعت حرب ، وكنا صغارا قليلى الخبرة، ولم يتح لنا أن نعيش أيام «رسالة الزيات» و«ثقافة أحمد أمين » ؛ فكان يسهل خداعنا بمثل هاتيك المصطلحات : الوحدة الموضوعية، والمعاناة ، والتجربة الشعورية، وتراسل الحواس ، والمونولوج الداخلى، والدفقة الشعورية، والتعبير بالصورة، والألفاظ الموحية، والشعر المهموس. وكانت هذه الكلمات الضخمة تهزنا هزا، فإذا رحنا نلتمسها فى كلام الجاحظ وابن قتيبة والآمدى لم نجدها، فيشتد ضيقنا بكتابى الدكتورين الفاضلين ، ونذم زماننا ، ونلعن حظوظنا، ونود لو ضرب بيننا وبين أمثال هذه الكتب بِسُورٍ ليس له باب . ولقد بلغت السفاهة ببعضنا أن ذهب إلى ناقد ناشئ فى تلك الأيام وحرضه على كتاب الدكتور أحمد بدوى ، ثم استكتبه مقالة طائشة بجريدة الجمهورية، تطاول فيها تطاولا فارغا على الكتاب، فكانت كما قالت العرب فى أمثالها : «أوسعتهم سبّا وأوْدَوْا بالإبل» وهو مثل يُضرب لمن لم يكن عنده إلا الكلام . والآن وبعد مضى هذا الزمان أستغفر الله مما كان منى من طيش وزلل فى حق ذلك الكتاب ، فقد كنت أيضا من الساخرين العابثين ، وإنما هى غفلة الصبا وغرارة الشباب ، ولا أملك الآن إلا أن أنشد قول الشاعر:

رُبَّ يومٍ بكيتُ منه مراراً ∴ ثم لمّا مضى بكيتُ عليه

وقول الآخر:

فليت أنَّ زمانا مرّ دام لنا ∴ وليت أن زمانا دام لم يَدُمِ

وقول الثالث:

عَتَبْتُ على سلْمٍ فلمَّا فقدتهُ ∴ وجَرَّبْتُ أقواماً بكيتُ على سَلْمِ

رجعتُ إليه بعد تجريب غيره ∴ فكان كَبُرْءٍ بعد طُولٍ من السّقْم

وأعتقد أن كتاب الدكتور أحمد بدوى قد خرجت منه رسائل جامعية كثيرة ، وكذلك كتاب الدكتور بدوى طبانة، فكانا أيضا كما قالت العرب فى أمثالها : « أكلاً وذمّا » .

ومرة أخرى : لابد من إعادة النظر فى هذا المصطلح « الكتاب المدرسى » وإعادة التوقير له والهيبة . إن متون النحو الأولى مثل الموجز لابن السراج ، والإيضاح لأبى على الفارسى ، واللمع لابن جنى ، وإعراب ثلاثين سورة لابن خالويه ، والفصول الخمسون لابن معطى، والأجرومية، وقطر الندى لابن هشام ، كلها تآليف صغيرة ، عُملت للمبتدئين فى دراسة النحو، فهى كتب مدرسية ، ولكنها علامات بارزة فى طريق العلم ، ونازعة بالثقة فى أصحابها واحترامهم وإنزالهم المنزلة العالية . ولم يقتعد ابن جنى هذه الذروة الضخمة بكتابه الفذ «الخصائص» وحده ، بل كان إلى جانبه كتبه الصغار المدرسية ، مثل «اللمع» الذى ذكرته ، والكتاب « الملوكى فى التصريف » .

ومن جناية هذا الوصف «الكتاب المدرسى» أن ذلك الكتاب القائم على أصول العلم وحدها دون اغراق فى التحليل والتفلسف يرفض من أبحاث الترقيات ويستبعد من الجوائز الأدبية ؛ لأنه كتاب مدرسى عُمل للطلبة ليس غير، وهذا خُلْف من القول ، وخطأ فى الحكم . والكتاب المدرسى عملٌ من الأعمال العلمية : جيّده جيّد، ورديئه ردئ ، فلا يصح أن يُستبعد جيده من أبحاث الترقيات، بل إنى أتوق إلى اليوم الذى أرى فيه ترقية علمية يقصد بها الطالب قصدا ، فإن بعض أبحاث الترقيات تدور غالبا فى فلك بعيد عن الطالب، بل إن منها لما يشقق فيخرج منه كلام مفصل تفصيلا على أعضاء لجان الترقيات ، من حيث السير فى طريقهم ، والاستكثار من الرجوع إلى مؤلفاتهم بحق وبغير حق .

إن هذه النظرة المستخفة إلى الكتاب المدرسى قد دفعت كثيرا من الأساتذة المجيدين إلى شىء من الملل ، فلم يعطوا الكتاب الجامعى حظه من الإجادة والإتقان ، وكأن هذا الذى يقدم للطالب حُسْوَة الطائر أو قَبسة العَجلان ، لا تروى غليلا ولا تضىء ظلاما ، ولا تنضج طعاما ، فجاء الكتاب الجامعي الآن - أو قل الكثير منه - فى صورة مهلهلة : طباعة سيئة وورق ردىء ، فضلا عن المادة العلمية الخفيفة . وتنظر الى هذه الكتب الجامعية والمذكرات على أبواب لجان الامتحانات ، وقد ألقاها الطلبة إلقاء على الأرض بعد أن نظروا فيها النظرة الأخيرة ، فتراها وقد تحولت إلى شىء مكور مستدير كالذى يتقاذفه الأطفال بأرجلهم شبيها بالكرة التى يسمونها «الكرة

الشـراب » ، وابك – ما شاء الله لك أن تبكى – علـى هذا العلم الملقى على الأرض ، على ما قال الشاعر :

ويُفَتُّ المِسْكُ فى التُّرْ ب فيُوطا ويُداسُ

إن أزمتنا الحقيقية أن الملل يسيطر على حياتنا الجامعية كلها. وإن أضعف جوانب الأستاذ الجامعى الآن هو ما يظهر للطالب فى أثناء المحاضرة ومن خلال الكتاب الجامعى ، أما الجوانب المضيئة لذلك الأستاذ فهى مُدَّخَرة ومصونة ليوم تشخص فيه الأبصار ، وهو يوم المؤتمرات والندوات والحلقات .

إن الجامعة ينبغى أن تتدخل – ممثلة فى عمداء الكليات ورؤساء الأقسام – بالنظر فى المادة التى يضمها الكتاب الجامعى ، وفى الصورة التى يخرج بها ذلك الكتاب ، وفى هذا الطريق ينبغى أن يكون لرؤساء الاقسام الهيمنة الكاملة على ما يقدم للطلبة ، وليس فقط النظر في تلك الأعمال الإدارية النمطية المعروفة ، ولا يَعْتَصِمَنَّ أحد بكرامة الأستاذ الجامعى ، وهيبة الاستاذ الجامعى ، فهذه الكرامة وتلك الهيبة تثبتان للأستاذ ما لزم الجادَّة واستوى على الطريق ، فإذا زاغ أو مال سقطت الكرامة وضاعت الهيبة ، على ما قال القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم

ولو عَظَّمُوهُ فى النفوس لَعُظِّما

إن الهيبة التى تمنحها الجامعة للأستاذ ليست حقا إلاهيّاً لا ينازَع صاحبه فيه ولا يغلب عليه . إن الهيبة الجامعية تبقى ما بقيت دواعيها ، فإذا سقطت الدواعى تبعتها الهيبة ، على ما قال ابن زريق فى عينيّته الشهيرة :

أُعْطِيتَ مُلْكاً فلم تُحسن سياسته وكلُّ من لا يَسُوسُ المُلك يُخْلَعُهُ

والسعيد من عصمه الله .

وعوداً على بدء ، أقول : إن الطالب هو أساس العمل الجامعى كله ، فهو قطب الرحى وعمود الصورة ، فيجب أن نحتشد له ؛ تأليفا ومحاضرات ، وأن يكون هو المقصد والغاية ، ثم يكون حظ الاستاذ من التقدير والترقية والاحترام قائما على ما يقدمه للطالب ورفعة شأنه .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الكتاب والتواصل العلمى

تلقيت فى بريدى مجموعة مختارة من مطبوعات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، وقد زان هذه المجموعة رسالةٌ رقيقة من المدير العام للمنظمة الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجرى، ولم أشرف بمعرفة هذا الرجل من قبل، وما دله علىّ إلا تلك المقالات التى أنشرها بالهلال، كما ذكر فى رسالته الطيبة الزكية، التى فاضت بالثناء المستطاب علىّ والرضا الكامل عما أكتب، وهذه نعمة أحمد الله عليها، وأشكر من أسداها، ثم أنشده قول أبى نُخيْلة السّعدى:

شكرتك إن الشكر حبلٌ من التقى   وما كلُّ من أوليته نعمـــة يقضى
ونوَّهْتَ من ذِكرى وما كان خاملاً   ولكنَّ بعضَ الذكر أَنْبَهُ من بعض

وكان الأولى بى الإمساك عن ذكر هذا البيت الثانى، لولا حلاوة هذا الشعر، وقوة الأصرة بين البيتين، وإن أردتَ الكلمة كلها فاطلبها فى أمالى أبى على القالى ١/٣٠، وانظر ما استخرجه منها الشيخ عبد القاهر الجرجانى من دلائل الإعجاز ٤٨٤، ثم اقرأ أخبار أبى نخيلة فى الأغانى ٢٠/٣٩٠ (تنبيه : العرب تطلق الكلمة على القصيدة ، وهو شائع مستفيض فى كتبهم) .

ثم أما بعد : فلنقف قليلا عند هذه الرسالة التى شرفنى بها المدير العام للمنظمة الإسلامية ، وهى رسالة غريبة فى زماننا هذا ذى

التعاجيب، فهذا مدير مؤسسة علمية مقرّها الرباط عاصمة المغرب الأقصى ، يتابع ما يكتبه كاتب فى مجلة الهلال بالقاهرة، ويرى فى هذا الذى يكتب ما يوجب تحية كاتبه وإهداءه شيئا من مطبوعات المنظمة، وما أظن هذا المدير القارئ المتابع قد آثرنى وحدى من بين الكاتبين بهذا الفضل، فلا شك أنه يقرأ لى ولغيرى فى الهلال، وفى سائر المجلات الثقافية، ليكون فى ذلك عون له على أداء رسالته وإنجاح عمل المنظمة التى يتولى إدارتها ، ولولا ما جاء فى رسالته من ثناء بالغ على كتاباتى، لوضعت رسالته كلها هنا ؛ ليرى القارئ الكريم كيف يكون مدير المؤسسة الثقافية، على ما قال أبو زياد الأعرابى:

ولم يك أكثر الفتيان مالاً　　　ولكن كان أرحبهم ذراعا

فقد أتى على مؤسساتنا الثقافية حين من الدهر كانت مناصبها العليا توزَّع على أساس من التوازنات السياسية، وإرضاء جميع الأطراف، ولا ينبِّئك مثل خبير، فقد عملت بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم خمس عشرة سنة، ورأيت أنماطا غريبة من أصحاب هذه المناصب العليا، وبعضهم لا صلة له بالثقافة، لا من قريب ولا من بعيد، حتى إنه كتب ذات يوم «لقد حضرت فوجت الباب مغلق» هكذا كتب «وجت» وهو يريد «وجدت» وكأنه يكتبها كتابة صوتية، يكتب كما ينطق، وما رأيت هذا المدير إلا وأنشدت قول البحترى :

الآن أيقنتُ أن الرزق أقسام　　　لمّا تقلّد أمْرَ البُرْد حَجّامُ

«البرد: جمع البريد، والحجام : هو الذى يتولى الحجامة، وهى المعالجة بفصد الدم ، أو امتصاصه بالمحجمة. وكان معروفا ومستعملا إلى عهد قريب » ، وهذا كما ترى أحد مصائبنا الكبرى : أن يُوسَّد الأمر إلى غير أهله، ولو تتبعت مراكزنا العلمية ومنظماتنا الثقافية لوجدت فيها من هـذه النماذج الكثير ، على ما قالت العرب فى أمثالها « وفى كل وادٍ بنو سعد » .

ومهما يكن من أمر، فهذه المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة التى يديرها ذلك المدير المثقف المتابع، أنشئت فى ٣ مايو ١٩٨٢ م ، واتخذت الرباط عاصمة المملكة المغربية مقراً لها . والمغرب الأقصى - حرسه الله - ثغر من ثغور العربية والإسلام ، ومازالت طائفة من أهله قائمة على حراسة موروثها من علوم الإسلام : حفاظا على مخطوطاتها، وتحقيقا لنفائسها ، وهذا إلى فضلهم القديم فى شرح آثار المشارقة والعناية بها . فاتخاذ الرباط مقرا لهذه المنظمة الإسلامية ، عمل صالح، إن شاء الله ، على ما قال الزاهد الكبير يوسف بن أسباط رضى الله عنه : « وإنما يطيب الموضع بأهله » . كما كان من العمل الصالح أيضا اتخاذ منظمة المؤتمر الاسلامى مدينة استانبول مقرا لمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية . ولاستانبول فى تاريخ الإسلام أيام بيض وصفحات مضيئة ، ذكرت شيئا منها فى الهلال (ديسمبر ١٩٩٤) فى كلمة عنوانها « تركيا والمخطوطات العربية » .

التعريف بالتراث الإسلامي

وتعلن هذه المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة عن غاياتها وأهدافها التى تحرص على صيانة التراث الإسلامى ورعايته والتعريف به ، كما تعمل على دعم الثقافة الإسلامية الأصيلة وحماية استقلال الفكر الإسلامى من عوامل الغزو الثقافى والمسخ والتشويه . ولتحقيق هذه الغايات تقوم المنظمة بعقد الندوات التى تتناول موضوعات بعينها ، أو شخصيات بخصوصها، ثم تقوم بطبع حصيلة هذه الندوات فى كتب يقرأها الناس على مكث ، وبجانب هذه المطبوعات الخاصة تقوم المنظمة بتحقيق ونشر ما تراه صالحا ومفيدا من عيون المخطوطات العربية . ومن هذا وذاك وصل إلىَّ من مطبوعات المنظمة :

١- الإمام الطبرى فى ذكرى مرور أحد عشر قرنا على وفاته (فقيها ومؤرخاً ومفسرا) جزءان .

٢- الإمام الشافعى، الاحتفاء بمرور اثنى عشر قرنا على وفاته .

٣- أحمد بابا التمبكتى ، بمناسبة مرور أربعة قرون ونصف قرن على ولادته.

٤- الأحكام الصغرى ، لأبى بكر بن العربى المتوفى سنة ٥٤٣هـ، وهو مختصر كتابه أحكام القرآن الذى نشر بمطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ م بتحقيق الأستاذ على محمد البجاوى ، رحمه الله .

٥- التقسيم والتبيين فى حكم أموال المستغرقين - من الظلمة والغاصبين - لأبى زكريا الشبلى ، من علماء القرن الثامن الهجرى . وهذا الكتاب خاص بوجوه الأموال الحرام، وطرق الكسب غير المشروع - كما يقال فى أيامنا - من التعدى على الأموال ، والغصب والإكراه، والربا والرشوة، والشركات الفاسدة، وكذلك ظلم أصحاب الوظائف العامة وغيرهم من أصحاب القوة والنفوذ والسلطان، مما يدخل فى أحكام القانون المدنى الإسلامى، أو أحكام القانون الدولى الإسلامى.

٦- المهذّب فى الكحل المجرّب ، لعلىّ بن أبى الحزم القَرْشى المعروف بابن النفيس، المتوفى سنة ٦٨٧ هـ (والقَرْشى هنا تضبط وتقرأ بفتح القاف وسكون الراء نسبة إلى «قَرْش» اسم بلد فيما وراء النهر، نهر جيحون، المسمى نهر أموداريا، بوسط آسيا)، وبعض الناس ينطقه «القُرشى» بضم القاف وفتح الراء ، يظنه نسبة إلى «قريش» وهو ما أسمّيه أخطاء الإلف والعادة .

٧- الكافى فى الكحل ، لخليفة بن أبى المحاسن الحلبى ، من علماء القرن السابع الهجرى ، وقد ذكر محققا الكتاب أن من أهم ما يميز هذا الكتاب :

(أ) أنه أول كتاب يضم رسما توضيحيا لتشريح الدماغ ، وعلاقة العينين به ، والطريق الذى يسلكه البصر بين العينين والدماغ .

(ب) أنه أول كتاب يضع رسوما للأدوات الجراحية المستعملة ، فى جداول أنيقة .

(جـ) أنه أول كتاب يضع جداول منظمة أنيقة لأمراض الأجفان والعينين وآلية الإبصار.

(د) أنه أول كتاب يفرد فصلا خاصا عن المكاييل والأوزان والمقاييس المستعملة فى الطب آنذاك، وتعتبر هذه المقادير التى ذكرها أوفى من تلك المقادير التى ذكرها ابن سينا فى آخر كتابه « القانون » .

(هـ) أنه أول كتاب يفرد فصلا خاصا عن الفَصْد، ويعتبر ما ذكره المؤلف عن الفَصْد ، أوفى مما كتبه عنه ابن سينا فى الجزء الأول من كتابه « القانون » .

وهذا الكتاب ، والذى سبقه ، من تراث العرب العلمى ، وهو من الفنون التى لا يقبل عليها الناشرون كثير ؛ لأن جمهورها قليل ، فلا تحقق لهم عائدا ماديا مجزيا أو غير مُجزٍ ، فلم يبق إلا هذه المنظمات الكبرى ، والهيئات العلمية التى قامت فى السنوات الأخيرة فى أكثر دول الخليج، تابعة للجامعات هناك ، أو مستقلة عنها . وقد أحسنت هذه المنظمات والهيئات فى نشر طائفة كبرى من عيون التراث العربى ، فى مختلف العلوم والفنون ، وبعض هذا التراث المنشور ذو أجزاء كبيرة ، مما لا يقبل عليه الناشرون أيضا

وقد ضمت مكتبتى معظم هذه المطبوعات ؛ لعلاقات خاصة بينى وبين القائمين على تلك المنظمات والهيئات ، أو لأخذ رأيى أحيانا فيما ينشر ، وأذكر من هذه الهيئات : مركز البحث العلمى وإحياء التراث

الإسلامى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، والمجلس العلمى لإحياء التراث الإسلامى بالمدينة النبوية . وبدولة الكويت : وزارة الإعلام ، ووزارة الأوقاف وقسم التراث العربى بالمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ومؤسسة الكويت للتقدم العلمى ، ومركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبى ، وهو مركز نشط جدا ، والقائمون عليه يعملون وفق خطة محكمة ، ومنهج رشيد ، وحماسة بالغة .

وإذا كانت هذه المطبوعات العظيمة لتلك المؤسسات والهيئات تتاح لى ولغيرى – وهم قلة – ممن لهم صلات مشاركة وتوجيه أو صداقة مع هذه المؤسسات ، فما هو حظ القارئ العربى وغير العربى من هذه المطبوعات ؟

إن الكتاب المطبوع هو أساس التواصل العلمى ، والأصل فيه أن يكون متاحا لكل قارىء ، إما بالشراء وإما بالإهداء وإما بالإيداع فى دور الكتب العامة .

أما الشراء فليس متاحا لكل الناس لأمرين : الأمر الأول أن بعض هذه الهيئات لا تصرح مطبوعاتها للبيع ، والأمر الثانى أن بعض هذه المطبوعات ذات أجزاء كبيرة ، قد يصل بعضها إلى عشرة أجزاء ، فلو عُرض للبيع لَشقّ ثمنه على كثير من أهل العلم .

وأما الإهداء فدائرته محدودة جدا، على أن فى هذا الإهداء بعض الآفات ، وهو أنه يوجه أحيانا لمن لا يعرف قدره أو لا يدرك وجه النفع

منه، وأعرف بعض من يهدى إليهم كانوا يتركونه فى الفندق ؛ استثقالا لحمله ، أو فرارا من مؤونة الوزن الزائد وتكاليفه في شركات الطيران.

أهمية إيداع المطبوعات

فلم يبق إلا الوجه الثالث ؛ وهو إيداع المطبوعات فى المكتبات العامة، وهذه المكتبات العامة ينبغى أن ينظر إليها على أنها : إما أن تكون مكتبات الدولة القومية ، مثل دار الكتب المصرية ، والخزانة العامة بالرباط ، وإما أن تكون مكتبات الجامعات (مكتبة الجامعة نفسها ، ومكتبات كلياتها ومعاهدها العليا) .

فواجب على المنظمات والهيئات العلمية التى تعنى بطبع الكتاب العربي، أن تتيحه لهذه المكتبات العامة ، واجبا حتما ونصيبا مفروضا ، لا مسامحة فيه ، ولا معذرة عنه . وكنت زمان عملي بمعهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، أرى قوائم ثابتة بالمعهد للجامعات والمراكز العلمية ، تهدى إلى هذه وتلك جميع مطبوعات المعهد ، دون انتظار لطلب أو استهداء .

وعلى الجانب الآخر ينبغى أن يكون بمكتبات الجامعات والكليات متابعة دائمة يقظة لجهات النشر والطبع شرقا وغربا ، مما يعرف فى علم الكتاب بقسم التزويد . وهذا فى رأيى جانب أساسى من عمل مدير المكتبة الجامعية أو أمينها : أن يتابع ما يُنشر ، ويستهدى جهات النشر، فليس عمله فقط هو استقبال الكتب وتصنيفها وتوزيعها على الأرفف ، وفق نظام « ديوى » أو تنظيم القراءة أو الإعارة بالمكتبة .

ومما يقترح هنا أن تقوم بكل كلية لجنة دائمة ، يختارها عميد الكلية بترشيح من رؤساء الأقسام ، وتكون مهمة هذه اللجنة معاونة مدير مكتبة الكلية فى متابعة ما ينشر ، واستهداء المراكز والهيئات العلمية . وأقترح أيضا أن يكون جمهور هذه اللجنة من المعيدين والمدرسين المساعدين لأن هؤلاء وهؤلاء أقرب إلى الكتاب ، وأكثر حاجةً له .

ومن وراء الإهداء والاستهداء تبقى قضية بالغة الأهمية ، وهى غياب مطبوعات هذه المنظمات والهيئات العلمية عن وسائل الإعلام ، ففى كل صحيفة ومجلة من صحفنا ومجلاتنا صفحات للأدب والثقافة ، وترى فيها أبوابا ثابتة عن « الإصدارات الجديدة » ؛ لكنك لا تطالع من هذه الإصدارات إلا المجموعة القصصية لفلان ، والديوان الشعرى لفلان ، وكأن دنيا العلم والمعرفة قد خلت إلاّ من هذه القصص وتلك الأشعار ، على ما فى بعض هذه وتلك من برد وغثاثة .

ويبدو أن هذه الإصدارات إنما يسعى بها أصحابها إلى صفحات الجرائد والمجلات لتصنع لهم شهرة لا تقدم فى طريق العلم أو الفن شيئا .

ولو كانت الأمور تجرى على وجهها الصحيح لكان المشرفون على هذه الصفحات الأدبية هم الذين يسعون بأنفسهم إلى جهات النشر، ويتابعون نشاط المطابع فى كل مكان وفى كل علم . وأذكِّر هنا بما كان يصنعه الشاعر المحقق حسن كامل الصيرفى ، رحمه الله ، فى مجلة «الكتاب العربى» ، التى كانت تصدرها الدار المصرية للتأليف والترجمة

فى منتصف الستينات ، فقد كان – وهو مدير تحرير هذه المجلة – يحرر بابا عنوانه : (أخبار الكتاب العربى فى العالم) وكان يبذل فيه جهدا طيبا فى ملاحقة أخبار الكتاب شرقا وغربا .

ولو كانت الأمور تجرى على وجهها الصحيح أيضا لكان مندوبو الصحف فى عواصم العالم هم الذين يزودون صحفهم بالنشاط الفكرى والطباعى فى البلدان التى يقيمون بها ، فما ينبغى أن يكون عمل مندوب الجريدة فى الخارج هو متابعة أخبار السياسة ، ليس غير . وبذلك كله يكون الكتاب هو الرافد الصحيح للتواصل العلمى بين الأفراد والجماعات .

ولم يبق إلا تقديم أصدق التحية إلى الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجرى ، المدير العام – المثقف المتابع – للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، الذى فتح لنا هذه الأبواب من القول .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

البيان والتبيين للجاحظ

الكتب كالبشر ، منها ما تعرفه ثم لا تُطيقه فتلفظه ، ومنها ما تأنس به ساعة من نهار ، وقد تؤمل فيه خيرا فتستبقيه في ركن من نفسك ، علك تعود إليه يوما ، لكنك تكتشف من قريب أنه ليس بذاك فتُعرِض عنه . ومنها ما يخطف بصرك ويعلق بقلبك فإذا أنت منجذب إليه ومعقود به ، لا تكاد تدير وجهك عنه ، وكأنه «سالم» ذلك الذى يقول فيه أبوه عبدالله بن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنهم:

يُديروننى عن سالمٍ وأُدِيرهُمْ

وجِلْدَةُ بين العين والأنف سالم

وكُتب أبى عثمان الجاحظ من هذه الطائفة الثالثة . وقد عرفت الجاحظ أيام الطلب ، وكان أساتذتنا رضوان الله عليهم يعرّفوننا بأعلام تراثنا ويقدمونهم إلينا فى صورة محفوفة بالجلال ملفّقة بالمهابة ، وكان تعريفهم لنا بهؤلاء الأعلام مقرونا بنصوص من كلامهم ، يقرأونها علينا ويخوضون بنا لججها ، ويكشفون لنا عن أسرارها ، فعرفنا العربية صافية قبل أن تكدرها الدّلاء ، فلم يكن الدرس الأدبى واللغوى فى أيامنا غارقاً فى ضباب المصطلح والنظرية ، وتقويم الفكر العربى ، وسائر تلك التهاويل الفارغة والدعاوى العريضة التى فتحت الباب للصغار يعبثون بتاريخهم وعلومهم !

ما علينا . عرفت في ذلك الزمان الجاحظ ، مع من عرفت من أعلام النقد العربي : أبو الهلال العسكري ، وأبو الحسن الآمدي ، والقاضي على بن عبدالعزيز الجرجاني ، والشيخ عبدالقاهر الجرجاني

ثم كان من صنع الله لي توفيقه إيّاي أن تخلُص أيامي للتراث العربي في فنونه المختلفة : ناسخاً للمخطوطات ومفهرساً لها ومحققا لنصوصها ، ثم كان من فضل الله وإنعامه عليَّ أيضا أن أتصل بأعلام التراث وناشريه : محمود محمد شاكر وعبدالسلام هارون والسيد أحمد صقر ومحمد أبو الفضل إبراهيم وحسن كامل الصيرفي ، وهؤلاء جميعا فتحوا لي أبواباً من النظر ، ودلُّوني على فوائد من الكتب ، ما كنت لأقف عليها وحدي . وهذه ثمار مجالسة أهل العلم والرواية عنهم وهذا مما حرم منه شباب هذه الأيام .

ولقد كان من وصاة شيخنا محمود محمد شاكر - عليه رحمة الله - أن نقرأ الكتب كاملة ، وألاّ نتعامل معها تعامل المراجع والمصادر ، نأخذ حاجتنا ونمضي ، كالطائر العجل يَحْسُو من الماء حُسْوةً ثم ينطلق في فضاء الله . وكان من وصاته لنا أيضا أن نقرأ كتب الأدب التي تعني باللغة والنحو ، مثل الكتاب الكامل للمبرد ، وأمالي أبي على القالي وشرح الحماسة للمرزوقي ، ولكنه - رحمه الله - لم يكن يتحمس للجاحظ كثيرا ، مع إجلاله له وحفاوته به ، لأنه يرى أن الجاحظ يستطيل على الناس بذكائه ، ويخدعهم بتصرفه في القول والبيان ، ولعل الذي زهَّد شيخنا في الجاحظ هو ميوله الاعتزالية ، والشيخ كما هو معروف من أهل السنة والأثر . ولكني خالفت الشيخ رأيه في

الجاحظ ، ولعل هذه هى المرّة الأولى التى أخالف فيها عن أمره ، ألم أنشدك من قبل :

يديروننى عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم

أسس حضارة فتية

وُلد الجاحظ عام ١٦٠ هـ بالبصرة ، وتوفى بها عام ٢٥٥ هـ ، فهذه خمسة وتسعون عاما ملأها الجاحظ بالقراءة والنظر والتأليف ، ولم يُشغَل عن ذلك كله بزوجة ولا ولد ، وقد ساعدته على ذلك نفس طُلَعة ، راغبة فى المزيد ، لا تقنع بما حصلت ، ولا تقف عند ما قاله الأوائل . روي عنه أنه قال : «إذا سمعت الرجل يقول : ما ترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح» . وتروى عنه حكايات كثيرة فى شغفه بالعلم والتحصيل . . يقول أبو رهفان: «لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين (باعة الكتب) ويبيت فيها للنظر» . وقد استغرقته القراءة حتى أنسته ما لا ينسى . روي عنه أنه قال : «نسيت كنيتى ثلاثة أيام حتى أتيت أهلى فقلت لهم : بم أكنى؟ قالوا: بأبى عثمان» . (وهذا شبيه بما نقوله فى أيامنا ، فى مقام التوعد والتهديد: والله أنسيك اسمك) .

عاش الجاحظ النصف الثانى من القرن الثانى ، والنصف الأول من القرن الثالث ، وفى ذلك العصر بالتحديد والقطع – عصر هارون

الرشيد وابنه المأمون – وُضعت أصول العلوم العربية ، فالبصرة والكوفة وبغداد ومصر ودمشق وقرطبة وسائر عواصم الإسلام تغلى وتموج بالرواية الشفوية والسماع والتلقى والتدوين ، وقد تم نقط المصحف الشريف ، وثبتت قراءاته المتواترة عن رسول الله المنزل عليه ، صلى الله عليه وسلم ، وعلماء الحديث يجمعونه ، ويؤسسون فيه هذا العلم الشامخ «الجَرْح والتعديل» ، وهو أساس القبول والرّد ، ويأتى البخارى ومسلم وبقية الستة من أصحاب الجوامع والمسانيد ، وفى ذلك الوقت أيضا يظهر الأئمة الأربعة ، ويدّونون الفقه الإسلامى: مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل ، وينفرد الشافعى من بينهم بتأسيس علم أصول الفقه ، ويضع فيه مؤلفه الشهير «الرسالة» ، ثم يقيم الخليل ابن أحمد أساس أول معجم عربى «العين» ، ثم يهتدى إلى ضبط أنغام الشعر وبحوره ، ويؤسّس فيه علماً لم يسبق إليه ، وهو «علم العَرُوض» الذى يسميه بعض أهل زماننا «موسيقى الشعر» ، وما هى إلا «العروض» فلا تُسَمّه بغير هذا !

وينهض تلميذ الخليل : سيبويه ، فيضع «الكتاب» فى علم النحو .

وينشط الإخباريون بتدوين ما وصل إليهم من أخبار الأمم الماضية ، والسيرة النبوية وأخبار الصحابة والتابعين ، مثل وهب بن منبه وعبيد ابن شرية – وهذان كانا فى عصر بنى أمية – والواقدى وكاتبه محمد بن إسحاق ، وعبدالملك بن هشام ، ومحمد بن حبيب ، وأبى الحسن المدائنى، والزبير بن بكار .

ويأتى جامعو اللغة والشعر وشُرّاحه ونقّاده : يونس بن حبيب ، وأبو عمرو بن العلاء ، وأبو عمرو الشيبانى ، ومحمد بن سلام الجمحى ، وأبو عبيدة ، والأصمعى ، وأبو زيد الأنصارى: بحار علم جاشت أمواجها وأزبدت وتدفقت .

ويتألق فرسان الترجمة من اليونانية : جبريل بن بختيشوع ، ويوحنا بن ماسويه ، ويوحنا البطريق ، وحنين بن إسحاق ، وثابت بن قُرّة ، ومعظم هؤلاء قد ولي الترجمة فى أيام الرشيد والمأمون ، وقد كانت صلتهم بالعربية قوية ، فيُروى أن حنين بن إسحاق – وكان فصيحاً جداً فى اليونانية – لزم الخليل بن أحمد حتى برع فى لسان العرب ، وهو الذى أدخل كتاب «العين» بغداد ، كما يقول ابن جلجل فى طبقات الأطباء والحكماء . . .

فهذه أسس حضارة كاملة ، قامت ماتعة فتية فى نحو مائة وخمسين عاماً ، فأى زمن هذا ؟ وأى أمة هذه . . .؟

عاش الجاحظ ذلك العصر كلّه . وقرأ آثاره كلها ، وروى عن رجاله وأعلامه ، واستوعب حصاه كله ، وأتاه حقّه فأودعه جميعه فى مؤلفاته الكثيرة ، التى يقول عنها المسعودى «لا يُعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه » . وقد أحصى ياقوت الحموى من مؤلفات الجاحظ مائة وثمانية وعشرين مصنفاً ، طبع منها: الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء والعثمانية والبرصان والعرجان والعميان والحولان . والرسائل الثلاثة والتاج فى أخلاق الملوك (المنسوب إليه) .

التصاق الفن بالنفس

وأنت حين تقرأ كتب الجاحظ هذه إنما تقرأ ثقافة القرون الثلاثة كلها – رواية وتدوينا – وهذا شأن الكاتب الكبير ، يفتح منفذا يُفضى إلى منافذ ، ويشق بابا يدل على أبواب .

وأحسب أنى لو تركت القلم يسترسل فى وصف علم الجاحظ وأدبه لما انتهيت إلى غاية ، فحسبى هنا أن أنقل كلام ذلك العالم الجليل المجهول القدر الدكتور طه الحاجرى ، رحمه الله ، يقول فى مقدمة تحقيقه لكتاب البخلاء : «كان الجاحظ إماماً من أئمة الكلام ، وزعيماً من زعماء المعتزلة ، وصاحب نِحلَة من نِحَلِهم ، وكان عالماً محيطا بمعارف عصره ، لا يكاد يفوته شيء منها سواء فى ذلك أصيلها ودخيلها ، وسواء منها ما كان إلى العلم والتحقيق ، وما كان إلى الأخبار والأساطير . وكان راوية من رواة اللغة وآدابها وأخبارها ، غابرها ومعاصرها ، واسع الرواية ، دقيق المعرفة ، قوى الملكة فى نقد الآثار وتمييزها ، ولكنه كان فوق هذا كله كاتباً أديباً بكل ما تتضمنه هذه الصفة من رهافة فى الحس ، وخصوبة فى الخيال ، وقوة فى الملاحظة ، ودقة فى الإدراك ، وقدرة على التغلغل فى دقائق الموجودات ، واستشفاف الحركات النفسية المختلفة ، وتمكن من العبارة الحيّة النابضة ، والتصوير الكاشف البارع الذى يبرز الصورة بشتى ملامحها وظلالها ، فى بساطة ودقة وجمال» .

وهذه النزعة الفنية التى غلبت على الجاحظ ، ووسمت أعماله كلها ، ترجع كما يقول الدكتور الحاجرى إلى «طبيعة الفن الجميل ، من شدة لصوقه بالنفس وتأثيره فى الوجدان ، وقدرته على مغالبة تقلبات الرأى

ومذاهب الحياة ، وترجع إلى قوة المزاج الفنى وغلبة النزعة الفنية عند الجاحظ» . انتهى كلام الدكتور الحاجرى .

وهذه النزعة الفنية هى التى خففت من جفاف تلك المباحث الكلامية التى شحن بها الجاحظ مؤلفاته ، وكذلك ما حشده من المعارف والنظريات العلمية السائدة فى عصره .

يقول أبو الحسن المسعودى : «وكتب الجاحظ - مع انحرافه المشهور - (يريد ما كان عليه من الاعتزال وعداوة الشيعة ، وكان المسعودى شيعياً) : تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوّف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جِد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة» مروج الذهب ١٩٥/٤ .

ويبرز من بين مؤلفات الجاحظ كتابه «البيان والتبيين» مَعلماً ضخماً من معالم كتب العربية ، وباباً واسعاً من أبواب الفكر العربى . ولهذا الكتاب فى حياتى أثر ضخم ، فهو الذى قادنى إلى كتب الجاحظ الأخرى ، فقرأتها كلمة كلمة ، ولم أتعامل معها تعامل المراجع الخاطفة ، ثم هو الذى جذبنى إلى كتب العربية الأخرى ، ومن قبل ذلك ومن بعده فهو الذى أذاقنى حلاوة البيان العربىّ ، وهو الذى هدانى إلى هذه الأنغام الجليلة الفخمة المترقرقة من مختار الكلام شعراً موزوناً معقوداً بقواف محكمة ، ونثراً مصقولاً مسنوناً يتهادى بالحرف العربى مشرقاً

وضيئاً متسقاً لينصَبَّ فى السمع ، ويتولج فى القلب فيحدث تلك النشوة الغامرة ، ويمتع بذلك الطرب المؤنس الودود .

ترك الاستاذ على جهله

والكتاب فى وصف بعض الأقدمين ، يصنَّف ضمن علوم البلاغة بمعناها الواسع ، لا بمعناها الذى حُصر فيما بعد بالمعانى والبيان والبديع . يقول أبو هلال العسكرى : «وكان أكبرها وأشهرها – يعنى كتب البلاغة – كتاب البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو لعمرى كثير الفوائد ، جم المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفِقَر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبَّه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة ، وغير ذلك من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة» الصناعتين ص٥ . ويقول ابن رشيق القيروانى – وهو يعرِّف علم البيان – «وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ – وهو علاَّمة وقته – الجهد ، وصنع كتاباً لا يُبلَغُ جودةً وفضلاً ، ثم ما ادعى الإحاطة بهذا الفن لكثرته ، وأنه كلام الناس وأنفاسهم ، لا يحيط به إلا الله عز وجل» العمدة ٤٤١/١ .

ويقول المسعودى – وهو يعدِّد كتب الجاحظ – «منها كتاب البيان التبيين ، وهو أشرفها ، لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به» مروج الذهب ١٩٦/٤ .

وقد وضعه ابن خلدون ضمن علوم الأدب بمعناه الواسع أيضا ، فقال قولته السائرة : «وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر – يعنى الأمالى – لأبى على القالى البغدادى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها» مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٣ .

والكتاب بذلك الوصف دائر على مباحث فى البيان والبلاغة والخطابة والشعر والأسجاع ، مع ما يصحب ذلك كله من عرضه لنماذج من الوصايا والرسائل وطائفة من كلام النساك والقصاص وكلام الحمقى ونوادرهم ، ثم بعض الاختيارات البلاغية من الكلام الموثق المنسوب .

وأخشى أن يسرع بك الظن أيها القارىء المبتدىء فتظن أن ذلك الكتاب من كتب الأسمار والتسلية والنوادر وإزجاء الفراغ ، وأنه صورة من صور اهتمام أدباء العرب بالجزئى دون الكلى ، كما يزعم الزاعمون وليس الطريق هنالك . إن الجاحظ مفكر قبل أن يكون أديباً . حكى شمس الدين بن خلكان ، عن أبى القاسم الشيرافى ، قال : «حضرنا مجلس الأستاذ أبى الفضل بن العميد الوزير ، فجرى ذكر الجاحظ ، فغض منه بعض الحاضرين ، وأزرى به ، وسكت الوزير عنه . فلما خرج الرجل قلت له : سكتّ أيها الأستاذ عن هذا الرجل فى قوله مع عادتك فى الرد على أمثاله ! فقال : لم أجد فى مقابلته أبلغ من تركه على جهله ، ولو واقفته (جاء فى وفيات الأعيان : وافقته ، بتقديم الفاء على القاف ، وهو خطأ ، وصوابه بتقديم القاف على الفاء) وبينت له لنظر فى كتبه وصار بذلك إنسانا يا أبا القاسم ؛ فكتب الجاحظ تعلم

العقـــل أولاً والأدب ثانياً ، فلم أستصلحه لذلك » وفيات الأعيان ٤٧٢/٣ .

وهذا كلام عال نفيس ، فكتب الجاحظ تعلم العقل قبل الأدب ، وقد أخذ من ذلك الأستاذ شفيق جبرى عنوان كتابه : «الجاحظ معلم العقل والأدب» . وكذلك تعلم العقل كتب أصحاب البيان الآخرين ، مثل أبى حيان التوحيدى ، الذى يقول عنه الدكتور زكى نجيب محمود : إنه يعمق بالفكرة ويزخرف باللفظ ، ولكن كثيراً من نقادنا المحدثين قد اصطنعوا فجوة بين الفكر والبيان ، وأقاموا حجازاً عالياً بين قضايا العقل والإحسان فى تأدية المعانى والإبانة عنها ، وقد تسلل هذا الفصل إلى عقول الناشئة فيما يقدم إليهم من الفرق بين الأسلوب العلمى والأسلوب الأدبى ومن ثم فقد حكم هؤلاء النقاد على مصطفى صادق الرافعى ومحمود محمد شاكر وابراهيم عبد القادر المازنى ، ومن إليهم من المحسنين فى الأداء ، المجيدين فى طرائق الكلام ، بأنهم بمعزل عن الفكر ، وأن بضاعتهم لا تخرج عن الزخرف من القول ، والموشى من الكلام ، ولعل هذا أحد أسباب الغموض والظلام الذى يشيع فى كتابات بعض الأدباء الآن . وقد امتد هذا البلاء إلى مجال الغناء والطرب ، فأصبحنا نسمع عن الفرق بين «المؤدى» و«المطرب» وإعلاء شأن المؤدى ، والإزراء بالمطرب ، لأن المؤدى هو الذى يلتزم باللحن ، ولو كان صوته خشناً غليظاً منكراً ، وأن المطرب مردد ، ولو ظفر من حلاوة الصوت بأوفر الحظ والنصيب ! وبالله تُستَدفع البلايا ! (انتوا عاوزين تعملوا فينا ايه يا جماعة ؟ حرمتونا من حلاوة الكلام ، والآن تحرموننا من حلاوة الصوت) .

وقد عرض الجاحظ في كتابه لقضايا من اللغة ، فتحدث عن مخارج الحروف ، وأثر اكتمال الأسنان أو نقصها في البيان ، وأثر لحم اللثة في النطق ، وذكر الحروف التي تدخلها اللثغة ، وأي اللثغة أشنع وأيها أظرف ، وذكر لكل ذلك المثل والمثلين . وقد أشار إلى طريف من لغة الأطفال ، فقال : «والميم والباء أو ما يتهيأ في أفواه الأطفال ، كقولهم : «ماما وبابا» البيان والتبيين ٦٢/١ .

وقد صار ما أورده الجاحظ من كلام الفصحاء والخطباء ، وما أنشده للشعراء المقلّين والمكثرين ، مدداً لجامعي اللغة وأصحاب المعاجم، فهو قريب عصر بالرواية ، مع حافظة واعية تجمع كل شاذة وفاذة .

كتاب شامل للحضارة العربية

وقد اتسع كتاب البيان والتبيين أيضا لكثير من أوجه الحضارة العربية ، مثل نُظم العرب الاجتماعية والسياسية والمالية والخلقية والتعليمية .

وكنت على أن أنكر لك أيها القارىء الكريم شيئا من حلاوة الكلام في كتابنا هذا : البيان والتبيين ، لكنى رأيت المقام لا يتسع له ، فحسبي أن أنقل لك هنا فاتحته وخاتمته وحسبك بهما دليلا على حسن البيان ، وجمال الأداء . يقول الجاحظ : «اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ بك من العُجْب بما نحسن ، ونعوذ بك من السلاطة والهذر ، كما نعوذ بك من العِيِّ والحَصْر ، وقديما ما تعوذوا بالله من شرهما ، وتضرَّعوا إلى الله في السلامة منهما» .

ثم يقول فى خاتمته : «وهذا أبقاك الله آخر ما ألفناه من كتاب «البيان والتبيُن» (هكذا بياء واحدة مشددة . وراجع ما كتبته فى عدد الهلال ، أغسطس ١٩٩٧ م .) ونرجو أن نكون غير مقصرين فيما اخترناه من صنعته ، وأردناه من تأليفه . فإن وقع على الحال التى أردنا ، وبالمنزلة التى أمّلنا ، فذلك بتوفيق الله وحسن تأييده ، وإن وقع بخلافها ، فما قصَّرنا فى الاجتهاد ولكن حُرِمنا التوفيق . والله سبحانه وتعالى أعلم » .

هذا ، ولقد كان من فضل الله وإنعامه أن يَسّر لكتب الجاحظ علَمين من أعلام العصر ، وقفا على تراث الجاحظ ، وأعطياه حظه من النظر والفقه والصبر ، وبذلا غاية الوُسع والطاقة فى تحريره وتحقيقه والتعليق عليه ، ثم ألبساه حلّة العصر بذلك الإخراج المعجب الأنيق ، والفهارس الفنية الكاشفة : عنيت أستاذى العلامة عبد السلام محمد هارون ، والأستاذ الجليل الدكتور طه الحاجرى ، برّد الله مضاجعهما ، وأنزلهما منازل الأبرار . وقد نشر الأول من تراث الجاحظ : الحيوان (ثمانية مجلدات) ، والبيان والتبيين (أربعة مجلدات) ، والرسائل (أربعة مجلدات ، تشتمل على ٤٥ كتاباً ورسالة) والعثمانية ، والبرصان ، والعرجان . ونشر الثانى : البخلاء بمقدمة نفيسة جداً عن النزعة الفنية عند الجاحظ ، ثم أبرز الخصائص الفنية فى كتاب البخلاء.

★★★

وبعد : فلم يبق إلا هذا الرجاء الصادق ، أسوقه لزملائنا مدرسى العربية فى كليات الجامعات ومعاهدها : أن يلتفتوا التفاتة جادة إلى أدب الجاحظ ، وبخاصة ذلك الكتاب : البيان والتبيين ، وأن يجعلوا من نصوصه نصيباً مفروضاً على تلاميذهم ، فقد استقامت بهذا الكتاب ألسنة، وارتقت عليه أذواق ، واستوت به ملكات ، وكفانا إعراضاً وتجافياً عن موروثنا العظيم . وإنما يغفل الناس عن تراثهم بتلك الغشية التى تصيب الأمم فى فترات ضعفها ، فتذهل عن ماضيها ، ثم لا تقنع بذلك الذهول حتى تضم إليه السخرية منه والتحقير له .. وإنما يأتى ذلك كله من الاستخذاء والشعور بالدونية والقهر والغلبة والمسخ والتشويه . وربنا كاشف كل كرب وبلية .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تركيا والمخطوطات العربية

زرت تركيا مرتين : الأولى فى شتاء عام ١٩٧١م ، والثانية فى صيف هذا العام ١٩٩٤ م ، ويا بعد ما بين اليومين فى حياة الكاتب ، وفي عالم المخطوطات :

ففى المرة الأولى كنت عضوا صغيرا فى بعثة معهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم غداة إنشائها ، وكان هذا المعهد من قبل تابعا للأمانة العامة لجامعة الدول العربية منذ قيامها سنة ١٩٤٥م . وفى هذه المرة الثانية كنت مدعوا من قبل مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ، التى يرعاها ويدعمها معالى الشيخ احمد زكى يمانى ، وزير البترول والثروة المعدنية السابق بالمملكة العربية السعودية ، وذلك لإلقاء محاضرات عملية فى الدورة التدريبية الثانية على تصنيف وفهرسة المخطوطات الإسلامية ، وقد دُعي الى حضور هذه الدورة نفر من الشباب المشتغلين بالمكتبات والاستشراق ، من تركيا وألبانيا وبلغاريا وزغرب والبوسنة والهرسك ، وكاشغر (الصين الشعبية) وبعض جمهوريات آسيا الوسطى : أذربيجان وأوزبكستان ، وقازقستان وطاجكستان ، وشارك فى إلقاء المحاضرات طائفة من العلماء المشتغلين بعلم المخطوطات ، كان منهم من مصر : الدكتور عبد الستار الحلوجى ، والأستاذ نصر الله مبشر الطرازى .

وكذلك اختلف حال المخطوطات اليوم عن حالها بالأمس اختلافاً كبيراً ، وبخاصة فى ديارنا المصرية ، ففى ذلك الزمان كانت المخطوطات في مصر مصونة متاحة ، وكان القائمون عليها والمتصرفون فيها أولى علم وبَصَر ، يعرفون أسماء المخطوطات فى كل علم وفن ، كما يعرف الناس آباءهم . وكانت لديهم القدرة على قراءة العَسِر المُعَمَّى من المخطوطات وتمييز الصحيح من الزائف والعتيق من المحدث، الى معارف اخرى تتصل بهذا العلم ، كالمخطوط النادر ومقاييس هذه النـدرة : من خطوط المؤلفين أنفسهم وحظوظ بعض الكتب من كثرة مخطوطاتها أو قلتها ، ومعرفة مظان المخطوطات وأماكن وجودها . وقد ذهب هذا كله إلا بقية خافتة الصوت ضعيفة الاثر . ويشتد بى العجب - وقد قضيت مع هذا العلم خمسة وثلاثين عاما : ناسخا ومفهرسا ومحققا ودارسا - حين أقرأ لبعض الناس الآن كلاما أخاذا براقا عالي النبرة عن المخطوطات وسرقتها والغيرة عليها ، مع يقينى الذى لا يداخله الشك أنهم لم يعانوا هذا العلم ولم يعرفوا شيئا عن أسراره وخباياه فضلا عن أنهم لم يجالسوا شيوخه وأعلامه . وأساس العلم التلقى والمشافهة ، فهى حماسة كاذبة وولاء مدخول :

وكُلٌّ يدَّعي وصلاً بليلى ... وليلى لا تُقِرُّ لهم بِذاكا

وهذا الحديث مما يطول جدا فلنتركه إلى حين ، ولنعد إلى تركيا هذا الجزء العزيز من العالم الإسلامى ، وحديث المخطوطات فيها ، وهو حديث غريب عجيب .

وقبل أن نتكلم عن فضل الاتراك العثمانيين على هذ التراث الإسلامي ، بجمعه وحفظه وصيانته ، لابد من التذكير بفضلهم فى نشر الإسلام بأوروبا ، لأن هذا من ذاك ، ومعلوم أن كلمة «تركى» كانت فى وقت من الأوقات مرادفة لكلمة «مسلم» فى أذهان الاوروبيين الغربيين ، وكان زحف الاتراك العثمانيين على بلاد البلقان وتوغلهم فيها ، ثم اتجاههم الى قلب اوروبا ودخول محمد الفاتح القسطنطينية وفتحها سنة ٨٥٧هـ =١٤٥٣م . كان ذلك كله بمثابة الضربة الثانية للمسلمين فى أوروبا ، وكانت الاولى يوم أن عبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد بوغاز جبل طارق سنة ٩٢هـ-٧١٠م . يقول الدكتور عبد العزيز الشناوى فى كتابه القيم «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها » ص ٤٣ : «وقد نظرت اوروبا الى الفتوح العثمانية على أنها فتوح إسلامية ، وكان الاتراك العثمانيون فى تقدير أوروبا – هم الرمز الحى المجسد للإسلام ، واختلط الأمر على الاوروبيين فى ذلك الوقت ، فكانوا يطلقون على المسلم لفظ تركى» . وانظر بقية كلامه ، فإنه عال نفيس ثم انظر الدوى الهائل الذى احدثه فتح السلطان محمد الفاتح للقسطنطينة فى كتاب شيخنا أبى فهر محمود محمد شاكر رسالة فى الطريق الى ثقافتنا ، واقرأ أيضا ما كتبه المستشرق الروسى كراتشكوفسكى فى كتابه «تاريخ الادب الجغرافى العربى» ص ٤٥١ ، عن أثر فتح السلطان سليم العثمانى لمصر سنة ٩٢٣هـ ، وأن استانبول أخذت منذ ذلك الحين تجتذب اليها بشكل مطرد أنظار العرب الذين أخذت أوطانهم تدور فى

فلك الدولة العثمانية بطريق مباشر أو غير مباشر . وفى ذلك الوقت بالتحديد بحث البابا ليون العاشر الايطالى مع فرانسوا الأول ملك فرنسا ، فى عام ١٥١٥م ، مشروع حملة صليبية ضد الترك العثمانيين لوقف زحفهم وتوغلهم . ثم اقرأ ايضا ما قاله المؤرخ ابن العماد الحنبلى ، فى كتابه شذرات الذهب ١٤٣/٨ فى ترجمة السلطان سليم العثماني هذا ، يقول : «هو من بيت رفع الله على قواعده فسطاط السلطنة الإسلامية ، ومن قوم أبرز الله تعالى لهم ما ادخره من الاستيلاء على المدائن الايمانية ، رفعوا عماد الاسلام وأعلوا مناره وتواصوا باتباع السنة المطهرة ، وعرفوا للشرع مقداره» . ويلاحظ ان ابن العماد قائل هذا الكلام توفي سنة ١٠٨٩هـ ، فهو قريب العهد بأحداث زمان دخول السلطان سليم مصر ، وأنه ولد بدمشق وأقام بالقاهرة مدة طويلة ، ومات بمكة ، فلم يكن عثمانياً يميل بهواه الى أبناء جلدته ، ولم يدخل بلاد الروم - استانبول وما حولها - حتى يكون له فيها حظ من جاه ، أو نصيب من نفع ، يحملانه على الثناء والمدح - فاقرأ هذا كله وتدبره ودع عنك ما يقال عن الغزو العثمانى لمصر أو الاحتلال العثمانى لمصر ، فهذا كله من حديث السياسة ، وللسياسة دروب ومضايق ، يضيع فيها الحق ، ويضل معها الحكيم ، وهذه كلها من آفات المتابعة وعدم التحرى على ما قال الجاحظ : «وإنما يُؤتى الناس من ترك التثبت وقلة المحاسبة» ، ولقد قال الناس وأكثروا عن أخذ السلطان سليم للصناع والمهرة من مصر ، وسلب المخطوطات ،

ولقد - والله - رأيت هذه المخطوطات بعينى بالمكتبة السليمية الوطنية فى « ادرنه » بشمال تركيا ، حيث مات ودفن السلطان سليم ، فرأيتها محفوظة مصونة ، لم تمس بسوء .

نشاط علمى وثقافى

ومهما يكن من أمر فقد واكب نشاط سلاطين آل عثمان فى الجهاد والفتوح ، نشاط آخر فى العلم والكتب ، وآية ذلك أن كل سلطان أو صدر أعظم كان يحرص على أن يبنى بجوار المسجد مدرسة ومكتبة تابعتين له وملحقتين به ، ولما كان الناس على دين ملوكهم ، فقد اقتدى بالسلاطين في ذلك الوزراء ومشايخ الإسلام ، وعلى ذلك فمجموعات المخطوطات فى تركيا تنسب الى ثلاث طوائف : السلاطين ، مثل مكتبة السلطان سليم الاول - وهى المكتبة السليمية بأدرنه التى حدثتك عنها - ومكتبات السلطان محمد الفاتح والسلطان بايزيد والسلطان احمد الثالث والمكتبة السليمانية نسبة الى السلطان سليمان القانونى - أو المُشَرِّع - وكلها باستانبول .

والطائفة الثانية : الوزراء ، مثل راغب باشا ، وشهيد على باشا ، وكوبريلى باشا ، والمكتبات الثلاث باستانبول . وكوبريلى باشا هذا ، هو الوزير الفاضل أحمد بن محمد ، وهو من كبار الرجال فى الدولة العثمانية . يقول عنه المحبى فى (خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ٣٥٣/١) «ولم يكن فى الوزراء من يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله ، صعباً شديداً فى أمور الشرع ، سهلاً فى أمور

الدنيا ، وكان حاذقاً مدبراً للمُلك ، قائماً بضبطه . وملك من نفائس الكتب وعجائب الذخائر ما لا يدخل تحت الحصر ، ولا يُضبط بالاحصاء» .

قلت : وممن اتصل به من العلماء : العلامة عبد القادر بن عمر البغدادى ، صاحب «خزانة الادب» فأكرمه وحظي عنده بمكانة رفيعة ، وقد أهدى له البغدادى مؤلفه «حاشية على شرح بانت سعاد» .

والطائفة الثالثة : مشايخ الاسلام مثل : أسعد أفندى ، وعاشر أفندى وولى الدين أفندى ، وعاطف أفندى» وفيض الله أفندى ، وعلى أميرى أفندى ووهبى أفندى ، وشيخ مرادأفندى - ومكتبته غير مكتبة مراد مُلاًّ - وكل هذه المكتبات باستانبول ، واسماعيل صائب أفندى ومكتبته بأنقرة .

ومع هذه الطوائف الثلاث ظهرت طائفة النساء اللائى عنين بجمع المخطوطات ، فأنشأن لها مكتبات نسبت إليهن ، مثل مكتبة طرخان ، وصالحة خاتون ، وأسما خان ، وجلنوش ، ويرتونيال ، وكثير من المكتبات التى تسمى «والدة باشا» ثم تضاف الى ابنها السلطان .

حفظ العلم

ولعل هذا التنافس فى جمع المخطوطات وإنشاء المكتبات بهذا الحشد الكبير فى استانبول كان مبعثه رغبة سلاطين آل عثمان والوزراء ومشايخ الاسلام والوجهاء أن يكون لاستانبول تلك المكانة التى كانت

لدمشق عاصمة الامويين ، وبغداد عاصمة العباسيين ، ومصر عاصمة الفاطميين والأيوبيين والمماليك . هكذا يقول بعض الدارسين والمحللين ، أما أنا فإنى أرى أن هذا كله من تسخير الله بعض عباده لحفظ العلم وبقاء الكتب . ولعل كثيرا من الذين جمعوا المخطوطات وأنشأوا لها الخزائن والمكتبات لم يخطر ببالهم عاصمة كذا وعاصمة كذا . وهل نظن أن امرأة تركية من الفضليات اللائى جمعن المخطوطات وأنشأن المكتبات كانت تفكر فى مثل هذا الذى يذكره المحللون ؟ إنها عناية الله وتسخير الله ، وكلٌ ميسر لما خُلق له ، ألست ترى بعض الكتاب الآن يكتبون فى موضوعات غاية فى الخصوصية ، ويعكفون على تحقيقات وبحوث لا تحقق شهرة ، ولا تجلب مالا ولكنه التسخير الإلهى ، ولله فى خلقه شئون .

على أن اللافت للنظر حقا أن المخطوطات العربية ليست توجد فى استانبول وحدها - العاصمة القديمة لتركيا - كما هو الشأن فى المخطوطات التى تقتنيها الدول ، أن تكون فى عواصمها فقط ، فإنك واجد مخطوطات كثيرة فى غير استانبول ، من أنحاء تركيا كلها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . وقد أورد الأستاذ أحمد آتش فى مقالة له بمجلة معهد المخطوطات العربية (المجلد الرابع - الجزء الاول) بعنوان «المخطوطات العربية فى مكتبات الأناضول» أورد إحصائية عن المكتبات الكائنة خارج استانبول . قال بعد أن أشار الى المؤسسات العلمية فى أنحاء تركيا : «ولما اضطرت الدولة العثمانية بعد القرن السابع عشر

الميلادى الى مدافعة قسم كبير من العالم الاسلامى ضد عدوان أوروبا طرأ على هذه المؤسسات العلمية نوع من الإهمال ومع ذلك فإنه قد بذل بعد منتصف القرن الماضى على عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ – ١٩٠٩ م) مجهود عظيم لإحياء هذه المؤسسات العلمية . وحسب إحصاء سنة ١٣١١–١٣١٢ هـ) المطبوع فى استانبول من قبل وزارة المعارف فى سنة ١٣١٨ هـ . فقد ثبت أنه كان موجودا فى المملكة العثمانية ما عدا استانبول ٢٧٢ مكتبة ، تحتوى على ٧٧٣و٧٦ نسخة مخطوطة» . ثم ذكر أسماء هذه المكتبات ومكانها من بلدان تركيا ، وعدد المخطوطات بها . ثم ذكر أنه يوجد الآن فى الأناضول وضواحيها ٥٩ مكتبة ، أوردها بأسمائها وبلدانها وعدد المخطوطات بها .

وقد زرت أنا من هذه المدن ورأيت مخطوطاتها : أدرنه – بورسة – إسكى شهر – كوتاهية – أماسية – قيسارية – سمسون – قونية ، وهى بلد الصوفى الكبير جلال الدين الرومى ، صاحب «المثنوى» وبها قبره ، وبها أيضا قبر صدر الدين القونوى الفقيه الشافعى الصوفى .

وعلى ذلك فَقَلَّ أن تجد مدينة من بلاد تركيا المتراحبة الواسعة ليس بها مكتبة مخطوطات ، وهذا فرق ما بين تركيا وبين سائر الدول التى تضم مخطوطات فى عواصمها فقط ، أو مدنها الشهيرة ، كما ذكرت من قبل . ونستطيع أن نقول باطمئنان إن تركيا تعد أول دولة من حيث تجميع المخطوطات وعددها . ولئن كان كثير من المشتغلين بعلم

المخطوطات يقدرون عدد المخطوطات فى مكتبات العالم بنحو ثلاثة ملايين مخطوط ، فإنى أرجح أن ما تضمه تركيا يبلغ نحو ثلث هذا العدد .

ومن بين مدن تركيا على امتدادها واتساعها تنفرد مدينة اسطانبول بثلثى التراث المخطوط فى تركيا ؛ فهى بحق مدينة المآذن والمخطوطات: وقد حدثتك من قبل عن مكتباتها المنسوبة الى السلاطين والوزراء ومشايخ الاسلام ، وهناك مكتبات أخرى غير هذه المكتبات المنسوبة ، مثل طوبقبوسراى ، ونور عثمانية ، ومراد ملا ، والبلدية ، وجامعة استانبول ، وملت كتبخانة ، وسليم أغا بأسكودار ، فى البر الأسيوى من استانبول ، ويوصل اليها بالباخرة من أمينون فى قلب استانبول ، أمام مسجدينى جامع ، الى مكتبات اخرى ضمت الى المكتبة السليمانية ، وتعد هذه المكتبة اضخم مكتبات استانبول ، وقد أمر بإنشائها السلطان سليمان القانونى أو المُشَرِّع – ابن السلطان سليم الاول فاتح مصر ، وقد قام بتصميمها وبنائها ، معمار سنان ، وهو ذلك المعمارى الشهير الذى بنى عشرات المساجد والتكايا والحمامات ، وقد انتهى من بناء المكتبة سنة ٩٦٤هـ – ١٥٥٧م . وتقع هذه المكتبة العريقة بالقرب من مسجد السليمانية ، وتتوسط المكتبة حديقة صغيرة مزدانة بالورد والزنابق ، وتظللها شجرة صنوبر ضخمة تغطى الحديقة كلها بأغصانها المتناسقة . وفى جانب من المكتبة – وفى القسم الثانى منها – كُتبت لوحة تقول : «أنشأ هذه المكتبة المعمار سنان بين سنوات ١٥٤٩–١٥٥٧ ميلادى ، بأمر السلطان سليمان القانونى ابن السلطان سليم الأول . . يوجد اليوم فى مكتبتنا ١٠١ خزانة كتب . أما

المخطوطات الموجودة فى مكتبتنا فهى ٦٣٩٤٧ مجلدا ، والمطبوع ٣٨٥٠٠ مجلد فقط ، منها المخطوطات التركية ١١٤٥١ مجلدا ، المخطوطات العربية ٤٨٨٥٤ مجلدا ، المخطوطات الفارسية ٣٦٤١ مجلد ، ويبلغ مجموع عدد المخطوطات الموجودة فى المكتبة أكثر من ١٠٠،٠٠٠ كتاب ورسالة» .

وتضم المكتبة أقسام التصوير والفهرسة ، وتعقيم المخطوطات وترميمها وتجليدها ، ثم تسجيلها على الكمبيوتر . ويشيع فى هذه المكتبة جو من السكينة والجلال لم أحسهما فى مكتبة من مكتبات المخطوطات شرقاً وغرباً .

أما الخدمة المكتبية فى هذه المكتبة فشىء معجب حقاً . تطلب المخطوط فتأتيك به الموظفة تحمله بين يديها فى حنوٍّ وحَدَب وإشفاق ؛ وكأنه وليد طال انتظاره ، على ما قال ساعدة بن جُويَّةَ الهذلى :

أتاها على هون وقد شاب رأسها   وحين تصدى للهوان عشيرها

ثم تظل عيناها معلقة بك وبه ، فإذا رأت منك جَفَاءً مع المخطوط ؛ كاتّكاءٍ بيدك عليه ، أو بَلٍّ إصبعك لتقليب صفحة من صفحاته ، أو اتخاذه سناداً لما تكتب ، رَدَّتْك عن ذلك ردا جميلا ، ولهذا ترى كثيرا من المخطوطات محتفظة برونقها وجمالها ، وكأنها خرجت من يد النساخ للتو واللحظة .

وتوشك هذه المكتبة السليمانية أن تكون المكتبة المركزية العامة للمخطوطات ، فإن وزارة الثقافة التركية تعمل على نقل المخطوطات اليها من الأقاليم البعيدة لتكون قريبة من الباحثين .

★★★

وإذا كانت تركيا تملك أكبر قدر من المخطوطات فى العالم ، فإنها كذلك تحتفظ بأكبر قدر من النفائس والنوادر . وللنفاسة والندرة فى عالم المخطوطات معايير كثيرة من أبرزها وأظهرها قدم المخطوط ، ونجد فى مخطوطات تركيا كتبا ذوات عدد يرجع تاريخ نسخها الى القرون المتقدمة : كالثالث والرابع والخامس والسادس ، فضلا عن المخطوطات التى كتبت بأقلام مؤلِّفيها أو تلاميذهم . والمخطوطات الفريدة التى لا تُعرف لها نسخ أخرى في مكتبات العالم . كل ذلك وأشباهه مما تغص به مكتبات تركيا ، فمن نماذج القدم والعتاقة هذه المخطوطات :

المأثور عن أبى العُميثل الأعرابى ، فى اللغة ، المتوفى سنة ٢٤٠ ، نسخ سنة ٢٨٠ ، بخط نَسْخ مشكول بالحركات شكلاً جيداً ، وهذا يفيد فى معرفة تاريخ الشكل بالحركات ، كيف كان فى ذلك الزمان المتقدم . والنسخة بمكتبة ولى الدين باستانبول - دستور ثابت بن قُرَّة المتوفى سنة ٢٨٨ - وهو كتاب فى آلات الساعات ، نسخ سنة ٢٧٠ ، مكتبة كوبريلى باستانبول . رسالة مدح الكتب والحث على جمعها ، للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ ، بخط على بن البواب الخطاط الشهير ، سنة ٤١٢ ، متحف الاوقاف باستانبول . تحديد نهايات الأماكن

لتصحيح مسافات المساكن ، للبيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ ، نسخ سنة ٤١٦ ، (أى فى حياة المؤلف) مكتبة الفاتح باستانبول ، شــرح كتاب أرسـطوطاليس ، للفـارابى المتوفى سنة ٣٣٩ ، نسخ سنة ٥٣٨ – مكتبة أحمد الثالث باستانبول .

وليست النفائس والنوادر فى مكتبات استانبول وحدها ، بل هى فى سائر المكتبات التركية ، ومما رأيته بعينى من تلك النفائس : نسخة من جامع معمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٣ ، وكتابه هذا فى الحديث ، وهو أقدم من «موطأ مالك» كما يقول ابن سمرة فى طبقات فقهاء اليمن، ص ٦٦ ، والنسخة بخط مغربى على رقّ غزال سنة ٣٦٤ ، وقد رأيتها فى مجموعة اسماعيل صائب أفندى بمكتبة كلية الاداب بجامعة أنقرة ، ومجموعة اسماعيل صائب هذه تحتوى على كثير من النفائس ، لأن جامعها هذا كان يعمل مديرا لمكتبة با يزيد باستانبول ، وقد جمع هذه المكتبة لنفسه خاصة لتحمل اسمه ، وقد ظلت هذه المجموعة حبيسة الصناديق نحو عشرين عاماً ولهذا لم تتضمنها موسوعة «تاريخ الادب العربي» للمستشرق الالمانى كارل بروكلمان . ومن نفائسها أيضا كتاب «حلية الفقهاء » لابن فارس ، المتوفى سنة ٣٩٥ ، نسخ سنة ٥٨٩ ، وترجع نفاسة هذه النسخة – مع قدم نسخها – إلى أنها النسخة الوحيدة فى العالم الى الآن . وعنها كانت نشرة الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى وزير الدعوة والشئون الاسلامية بالمملكة العربية السعودية .

ومن النفائس التى رأيتها بمكتبة قونية : نسخة من « المقصور والممدود » لابن ولاد ، المتوفى سنة ٣٣٢ ، ونسخة من «المذكر والمؤنث» لأبى حاتم السجستانى ، المتوفى سنة ٢٥٥ ، وكلتا النسختين من خطوط القرن الرابع . ثم رأيت فى قونية أيضا نسخة من «غريب القرآن» لابن قتيبة ، المتوفى سنة ٢٧٦ ، من خطوط القرن السادس ، ولم ير أستاذنا السيد أحمد صقر رحمه الله ، هذه النسخة عند نشره للكتاب سنة ١٣٧٨هـ = ١٩٥٨م ، وإنما كان تعويله على نسخة وحيدة كانت صورتها فى مكتبة المحدث الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر .

ومما رأيت من النفائس مجموعة شعرية كتبت بخط نسخى جيد من خطوط القرن السابع تقديراً تشتمل على أشعار بشر بن أبى خازم ، وتميم بن أُبَىّ بن مقبل ، والطرماح بن حكيم . وهذه المجموعة الشعرية محفوظة فى مدينة صغيرة تسمى «جوروم» تقع فى هضاب الأناضول فى الوسط ، إلى الشمال الشرقى من أنقرة العاصمة ، ومن هذه المجموعة نشر الدكتور عِزّة حسن دواوين الشعراء الثلاثة بدمشق .

أما نسخ المصاحف القرآنية ، والمخطوطات الخزائنية - وهى التى جُودت وزُينت لخزائن السلاطين والملوك ، والمخطوطات المزوّقة ، فشىء بالغ الكثرة .

وهكذا امتلأت خزائن تركيا بالمخطوطات العربية التى تَنافَس فى جمعها السلاطين والوزراء ومشايخ الإسلام ، ووجهاء الناس حتى النساء ، جمعوها من البلاد التى طالها حكمهم ثم حفظوها وصانوها ،

كما يصون كرام الأبناء ودائع الآباء . وهذا الحفظ وتلك الصيانة قامت بهما تركيا العثمانية (الخلافة) وتركيا العلمانية (الجمهورية) سواء بسواء .

★★★

وليس فضل الأتراك العثمانيين على اللسان العربى ، وعلى الفكر العربى ، محصوراً فقط فى هذا القدر الكبير من المخطوطات العربية التى جمعوها وحفظوها بل قد جاء نا منهم خير كثير :

جاء نا منهم أعظم وأجمع ما كتب فى علم أحوال الكتب أو قوائم الكتب (الببليوجرافيا العربية) ؛ وهو كتاب «كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون» لمصطفى بن عبدالله كاتب چلبى ، المعروف بالحاج خليفة ، أو : حاجى خليفة ، المولود باستانبول سنة ١٠١٧هـ = ١٦٠٩م ، والمتوفى بها سنة ١٠٦٧هـ = ١٦٥٧م ، وهذا الكتاب «من أوسع ما بأيدى الباحثين اليوم من الكتب المؤلفة فى استقصاء ذكر المؤلفات فى الاسلام وأنفعها فى بيان أحوال الكتب » كما يقول بَلَديُّه العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، وكيل المشيخة الإسلامية فى دار الخلافة العثمانية ، والمتوفى بمصر سنة ١٣٧١هـ - فى كتابه مقالات الكوثرى ، ص ٤٧٨ .

ولهذا الكتاب - كشف الظنون - قيمة كبرى فى رصد حركة التأليف العربي وتتبع مساره منذ بداية التدوين حتى القرن الحادى عشر الهجرى . ومادته العلمية غريزة جداً ؛ فقد ذكر نحو (٢٠٠) علم وفن ، ونحو (١٥٠٠٠) عنوان كتاب ، ونحو (٩٥٠٠) مؤلِّف .

وجاء نا من تركيا العثمانية أيضاً « الخط العربى » هذا الفن الجميل الذى يعد مَعْلماً بارزاً من معالم الإبداع الفنى عند المسلمين، وخاصية حضارية ينفردون بها عن سائر الشعوب .

وإذا كان تاريخنا يذكر أسماء عظيمة كان لها أثر واضح فى تزيين الخط العربى والإبداع فيه ، مثل ابن مقلة الوزير الشاعر البغدادى (٣٢٨هـ) ، وابن البواب البغدادى (٤٢٣ هـ) ، – وقد هَذَّب طريقة ابن مقلة وكساها رونقاً وبهاءً ، ويقال إنه كتب القرآن بيده ٦٤ مرة ، ومن حسن حظنا أن يبقى من خطه أثر وهو «شعر سلامة بن جندل» فى مخطوطة كتبها بقلمه الجميل سنة ٤٠٨ هـ ، وهى محفوظة بمكتبة بغداد كشك باستانبول . وكذلك بقى من خطه رسالة «مدح الكتب والحث على جمعها » للجاحظ ، وقد ذكرتها من قبل . وياقوت المستعصى الرومي (٦٨٩هـ) وآثار هذا الخطاط كثيرة ، فى تركيا وفى غيرها ، وبخاصة المصاحف الشريفة . وفى مكتبة السليمانية وحدها نسختان من المصحف الشريف بخطه . أقول : إذا كان تاريخنا قد سجل هذه الأسماء التى أبدعت وجوّدت في الخط العربى ، فإن الخطاطين الأتراك العثمانيين قد ارتقوا بهذا الفن الى أعلى درجاته ، وتألقت أقلامهم وأبدعت تشكيلات هى الغاية والمنتهى ، وسيظل تاريخ الخط العربى يردد أسماء الخطاطين الأتراك العثمانيين ، مثل الحافظ عثمان ، وأسعد اليسارى ، وقاضى العسكر مصطفى عزت ، والحاج حسن رضا ، وحقى ، وسامى ، وخلوصى ، وعثمان اوزجاى ، ومحمد

أوزجاى ، وقنوى ، وحمد الله المعروف بابن الشيخ ، وأحمد كامل المعروف برئيس الخطاطين ، ثم العلم الكبير : حامد الآمدى . وقلّ أن تجد واحداً من هؤلاء لم يكتب المصحف الشريف ، فكان كلام ربنا عز وجل مجلى فن هؤلاء الخطاطين ، الذين أجادوا فى كتابته غاية الإجادة، ما بين كتابته كاملاً ، أو كتابة بعض آياته ، حتى قيل بحق : «إن القرآن الكريم نزل بمكة ، وقُرِىء فى مصر ، وكتب فى استانبول » .

وهذا الإبداع فى فن الخط العربى ليس فى المسطور بين دَفَّتى كتاب فقط ، فأنت تراه أيضاً يزين جدران وقباب المساجد كلها ، صغارها وكبارها ، بأقلام الخط الستة المعروفة ، وإن كان أكثر ما رأيته فى المساجد : الثلث والفارسى . ومن المألوف فى أكثر المساجد أن تجد مكتوبا : الله جل جلاله - محمد صلى الله عليه وسلم - الصحابة الأربعة الراشدون - ثم الحسن والحسين ، وأحيانا الصحابة الستة الذين تتم بهم العشرة المبشرون بالجنة ، ومن أنفس وأبدع المجموعات الخطية ما رأيته فى مسجد السليمانية باستانبول ، والمسجد الكبير بمدينة بورسة ، وهو المسمى «أولو جامع» ، فالخطوط فى هذين المسجدين من وراء الوصف ؛ فهى من الاشياء التى تحيط بها المعرفة ولا تدركها الصفة . ولست أدرى كيف كتب ذلك الخطاط التركى العظيم تلك القافات الثلث فى مدخل جامع بورسة ، فقد كتب بها سورة العلق : «قافات كبيرة جدا على شكل دائرة ثم وصل بينها ببقية الآيات بالحرف الصغير ، وكذلك صنع بالسينات التى تنتهى بها سورة الناس .

لفظ الجلالة

على أن أبدع وأجمل ما رأيته فى كتابة لفظ الجلالة «الله» و «محمد» صلى الله عليه وسلم ، ما رأيته فى صدر كنيسة آيا صوفيا التى حولها السلطان محمد الفاتح الى مسجد ، وقد تحول هذا المسجد الآن إلى متحف ، وقد راعنى ما رأيت : قباب عالية تملؤها خطوط تخطف البصر بجمالها ، وعلى جانبى الكنيسة آثار إسلامية مستحدثة على هذا البناء الكنسى العتيق ، وفى مكان الهيكل وبعيداً عنه شيئاً ما أقيم المحراب ، وعن يمينه نهض منبر فخم ، ومن وراء المحراب بقيت صورة السيدة مريم عليها السلام فى صدر الهيكل . ومما يلفت النظر فى هذه الكنيسة أن الآثار المسيحية لم تمح فبقيت كما هى ، ثم استحدثت أبنية إسلامية كبعض الإيوانات ومصلى النساء .

ومما ينبغى التنبه له والتنبيه عليه أن عناية الأتراك بالخط العربى وتحسينه لازالت باقية الى الآن فى تركيا (الجمهورية) . ومن الخطاطين الأتراك المعاصرين : داود بكتاش ، وإيدين أركون ، وعثمان أونال ، وأفضل الدين فيلج ، وعلى طوى ، وتحسين قورت ، وأى تكين أرسلان ، ثم يتقدم هؤلاء كبيرهم الأستاذ حسن چلبى خطاط الجمهورية . . فما برح النهر يجرى متدفقاً زَخَّاراً .

ورغم أن لمصر تاريخاً فى فن الخط العربى ، فإن أثر الخطاطين الأتراك كان واضحاً على هذا الفن فى مصر . وحين أنشأ الملك فؤاد مدرسة تحسين الخطوط الملكية عام ١٩٢٠م – ومقرها كان ولا يزال

بمدرسة خليل أغا الثانوية بشارع الجيش - قام بالتدريس فيها الخطاطون المصريون المعروفون آنذاك : الشيخ على بدوى ، والشيخ محمود رضوان ، ومحمد إبراهيم ، ونجيب هواوينى ، وهو سورى عاش ومات فى القاهرة ، ثم استقدم الملك فؤاد خطاطا تركياً كبيراً من استانبول هو « الشيخ محمد عبد العزيز الرفاعى » الذى يوقع أحياناً على خطوطه باسم « عزيز » ، وهو من تلاميذ الخطاط الحاج أحمد العارف الفلبوى ، والخطاط حسن حسنى القرين آبادى ، كما ذكر هو فى بعض لوحاته .

وقد أثر الشيخ عبد العزيز تأثيراً كبيراً فى تلاميذه الذين درسوا على يديه ، وارتقى به فن الخط فى مصر ارتقاءً عظيماً ، وظهر أثره واضحاً فى سيد إبراهيم ، وبخاصة فى خط الثلث ، وفى محمد حسنى ، وبخاصة فى الخط الفارسى .

وقد جُمعت روائع الشيخ عبد العزيز الرفاعى فى كتالوج فخم جداً ، وفيه ترجمة لحياته وأسفاره ، وطبع هذا الكتالوج فى استانبول ١٩٨٨م، وفيه صورة رسالة بخط الشيخ عبد العزيز الرفاعى إلى شيخ الأزهر ، وهى وثيقة مفيدة ، فى تاريخ نزوله بمصر ومحل إقامته . وهذه صورة الوثيقة :

« حضرة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر الشريف . أعرض لفضيلتكم أنى دعيت من الآستانة العلية لكتابة المصحف الشريف لحضرة مولانا صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول ، وقد كتبت نموذجاً

لطلبة المدارس والأزهر ، وها هو مرفق طيه للاطلاع عليه حتى إذا حاز القبول يكرم باعتماد تقريره بالأزهر ، وإنى مستعد لتقديم الكمية اللازمة ، وفي الختام تفضلوا بقبول فائق الاحترام - فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٢٣م الشيخ محمد عبد العزيز الرفاعى الخطاط المقيم بتكيّة المولوية بشارع السيوفية نمرة ٣١ قسم الخليفة » .

توفى الشيخ عبد العزيز ودفن فى استانبول يوم ١٦ من أغسطس سنة ١٩٣٤ م وقبره قريب من مسجد الفاتح . وهو أكبر خطاط فى هذا الجيل ، وترى نماذج من خطه في عنوانات بعض الكتب التى طبعتها دار الكتب المصرية : الأغانى للأصفهانى ، وذيل الأمالى والنوادر لأبى على القالى ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، ونهاية الأرب للنويرى . ورأيت فى الستينات بعض لوحات بخطه فى قاعة المعارض بدار الكتب المصرية ، لا أعرف مصيرها الآن .

وإلى جانب هذا الكتالوج الخاص بالشيخ عبد العزيز الرفاعى ، رأينا عملاً رائعاً آخر أصدره مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامى ، وهو كتاب «فن الخط» وهو ثمرة جهود طويلة قام بها فريق من الباحثين تحت إشراف الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلى ، مدير عام المركز ، ويضم الكتاب مقدمة تاريخية حول نشأة الكتابة العربية وأعلام الخطاطين القدامى ، إلى أن يصل إلى الخطاطين العثمانيين . ويحتوى الكتاب على ١٩٢ لوحة وصورة بالألوان

ويقوم هذا المركز بجهود عظيمة فى مجال التاريخ والفنون الإسلامية. ومن صور نشاطه إقامة مسابقات دولية لفن الخط العربى توجه منها الدعوة لخطاطى العالم كله ، ومن إصداراته الجيدة «فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلى» فى ثلاثة مجلدات ضخام - استانبول ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م . وفهرس مخطوطات الطب الاسلامى باللغات العربية والتركية والفارسية فى مكتبات تركيا ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م . ويدير هذا المركز ويوجه نشاطه شاب مثقف يتوقد ذكاء ويتوهج حماسة، هو الاستاذ الدكتور «أكمل الدين إحسان أوغلى » ، وهو تركى ، ولكنه مصرى المولد والنشأة والتعليم ، تخرج في كلية العلوم ، وعين معيداً بجامعة الأزهر فى أول سنى التطوير ، ثم أكمل تعليمه العالى فى لندن ، وعاد إلى موطنه تركيا . ووالده الشيخ « إحسان » من علماء الأتراك الذين نزلوا مصر واتخذوها داراً ومقاماً ، وكان رئيس قسم الفهارس الشرقية بدار الكتب المصرية الى أوائل الستينات . رأيته شيخاً مهيب الطلعة ، حسن السمت . صالح الوجه .

★★★

ولا يبقى إلا أن نلتفت التفاتة جادة الى تجربة الأتراك فى حفظ المخطوطات وصيانتها ، وأن ننقلها الى ديارنا ، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنَّى وجدها . وكذلك ينبغى أن نستفيد من جهودهم فى فن الخط العربى ، جمعاً لروائعه ونشراً لها ، وإنى أدعو ورثة الخطاطين المصريين الكبار ، من أمثال سيد ابراهيم ومحمد حسنى ومحمد

ابراهيم ويوسف أحمد ، والخطاطين الأحياء أمثال محمد عبد القادر وحسين أمين ومن اليهما ، أدعو هؤلاء جميعا إلى جمع ما لديهم من خطوط ونشرها بين دفتى كتاب يحفظها ، أثرا يبقى ونموذجا يحتذى . بل إننا لو جمعنا فقط عنوانات الكتب التى خطها سيد ابراهيم ومحمد حسنى لأظهرنا كنزاً من الفن العالى ، ولأحيينا تاريخاً عزيزاً كاد يضيع بتأثير الكمبيوتر وتشكيلاته المستحدثة التى لا تقوم على قواعد ، ولا تستند الى أصول كما ذكر الاستاذ حامد العويضى فى مقالته الجيدة «جماليات الخط العربى أمام مخاطر الكمبيوتر» – عدد أكتوبر ١٩٩٤ م من الهلال .

والحق أن هذا الذى نراه من الكمبيوتر الآن من تخليط واضطراب إنما سبقه ومهد له ، وأغرى به ، ما قام به بعض الرسامين وخريجى الفنون الجميلة منذ زمن ، من اللعب بقواعد الخط العربى وتجاوزها ، فى هذه الخطوط الصاعدة والهابطة ، والمنتصبة والمضطجعة ، وقد قالوا وقتها: إنه الخط الحُرّ ، على مثال الشعر الحر ، وكلها فتن ومصائب يأخذ بعضها برقاب بعض ، ولا نتنبه لها فى بدايتها ، ونتركها حتى تعظم ويتطاير شررها . على ما قال الحارث بن وعلة الذهلى :

والقول تَحْقِرُه وقد يَنمِي وبالله نَستدفَع البلايا

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الخامس

السيرة الذاتية والكتب العربية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

السيرة الذاتية
والصدق مع النفس

كتب الأستاذ صلاح عيسى فى عدد الهلال «مايو ١٩٩٥م » ، كلمة ، جعل عنوانها : «السيرة الذاتية ، السؤال الذى لم يجب عنه أحد» ، وقد عرض فى هذه الكلمة لقلة كتب السيرة الذاتية فى المكتبة العربية ، وردَّ هذا إلى أننا « نحن العرب نعيش فى ظل منظومة معلنة من القيم الخلقية الاجتماعية تتصف بالتزمت ، ونتظاهر جميعا باحترامها ، مع أنها تتناقض عادة مع منظومة القيم الخلقية الفردية التى يؤمن بها كل منا ، ويمارس حياته على أساسها ، ومع ذلك فهو يحرض على أن يقدم نفسه للآخرين فى الصورة التى تكفل رضاء هم عنه ، بصرف النظر عن حقيقته ، حتى أصبح ذلك قاعدة يقننها المثل الشعبى الذى يقول : كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس . » ، ثم استطرد بعد ذلك إلى صور من النفاق الاجتماعى ، قال عقبها : «وهذا هو الذى جعل الأدباء والسّاسة العرب يعزفون عن كتابة سيرهم بنفس الصراحة والصدق اللذين كتب بهما جان جاك روسو اعترافاته » .

وهذا كلام يردّده الناس كثيراً ، ويعجبون به ، ويَرْضَون عن قائله ، لكنى قبل أن أستطرد إلى مناقشته وبسطه والزيادة فيه أحب أن أوضح

أن المثل الشعبى «كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس» ليس كما فهم الكاتب الفاضل مسوِّغاً «ولا تقل مبرراً» للنفاق الاجتماعى ، وإرضاء الناس ليس غير ، وإنما معناه عندى : أن يحرص الإنسان فى ملبسه على رعاية الذوق العام ، وعدم مصادمة العرف الاجتماعى ، وإن لم يصح هذا الفهم والتفسير يكون الكلام ساقطاً لا محالة ، لأن إنساناً مهما جهد واجتهد لا يستطيع أن يلبس لباساً يرضى كل الناس .

مثل قديم

وقد ذكر هذا المثل أحمد باشا تيمور ، فى كتابه الأمثال العامية ، صفحة ٤٠٤ . وقال فى تفسيره : «لأن ما تأكله تابع لشهوة نفسك ، وأما ما تلبسه فالمراد به التزين للناس ، فليكن على ما يعجبهم» . وأرى أن أحمد تيمور قد قصر أيضاً فى بيان حقيقة معنى هذا المثل ، حين أغفل قضية رعاية الذوق العام ، وعدم مصادمة العُرف الاجتماعى ، وهما المقصد والغاية من هذا المثل .

فائدة : قد يظن بعض الناس أن هذا المثل الشعبى «كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس» مثل معاصر ، أو قريب من المعاصرة ، والحقيقة أنه كلام قديم ، عمره نحو «١٤٠٠» سنة ، فهو من كلام أبى عمرو بن العلاء ، إمام العربية ، وأحد القراء السبعة ، المتوفى «١٥٤ هـ» ، مع اختلاف فى بعض العبارات . فقد روى أنه نظر إلى بعض أصحابه وعليه ثياب مشهرة ، فقال : «يا بنى ، كُلْ ما تشتهى والبس ما

يشتهى الناس » والثياب المشهرة : الفاضحة المفتوحة . وقد نظم هذا المثل بعض الشعراء القدامى ، فقال :

إنّ العيونَ رَمَتْك مِنْ فجاَتها

وعليك من شُهرِ اللباس لباسُ

أمّا الطعامُ فكُلْ لنفسكَ ما اشْتَهتْ

والبَسْ ثيابك ما اشتهاه الناسُ

أنظر : المثل والشعر فى لطائف الظرفاء ، للثعالبى ص ٥٢ ، وبهجة المجالس ، لابن عبد البر ٥٨/٢ ، والكشكول ، لبهاء الدين العاملى ٤٠٤/٢.

★★★

ثم لنعد إلى ما فتحه أمامنا الأستاذ صلاح عيسى ، فأقول : إن حبّ النفس مركوز فى الطباع ، ثابت فى أصل الخلقة ، فطرة فطر الله الناس عليها ، يستوى فيها العربى والعجمى ، ولا بأس على الإنسان أن يستر عيوب نفسه ، ما دام ذلك الستر لا يضر غيره بإبطال حق أو إحقاق باطل ، وما أصدق كلمة الأستاذ إحسان عبدالقدوس رحمه الله «إنى لا أكذب ولكن أتجمل» : فالتجمل مطلوب ، أما الكذب فمرفوض ، ومن أسوأ مظاهر الكذب : الكذب مع النفس ، بأن يطوى الإنسان نفسه على شىء ، ويقابل الناس بشىء آخر ، وهو داء معروف فى كل الأزمان

والعصور ، لكنه زاد فى أيامنا هذه ، لأسباب ودواع كثيرة ، يعرفها الناس ولا يجهلونها .

على أن بعض الناس قد يتظاهر بأنه يجرى فى طريق الإنصاف وهضم النفس ، فيزعم أنه يعرض على الناس شيئا من عيوبه ومساوئه ، ولكنه يترفَّق فى ذلك ترفقاً واضحاً ، بل إنه يخادع ، فيقول : إن من أشد عيوبى الثقة الزائدة بالناس ، أو : إن من مساوئى التفريط فى حقوقى ، وبذل حبى لمن لا يستحقه من الناس ، وهذه كلها ضروب وألوان من خداع النفس ، لأنه كلام صدره ذكر العيوب والمساوىء ، وعجزه ضارب فى مدح الذات بعروقه ، فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كما يقول سادتنا البلاغيون ، ولعل كثيراً من السير الذاتية التى نقرأها فى هذه الأيام من هذا الباب ، فضلا عما فى بعضها من ثلب للآخرين وتجريحهم .

على أننا لا ننتظر ممن يكتبون سيرتهم الذاتية أن يكشفوا لنا عن عيوبهم الفاضحة ، ويطلعونا على عوراتهم ومساوئهم القادحة ، لأن هذا يصادم موروثاتنا الدينية وأعرافنا الأخلاقية ، ثم إنه من النبالة والمروءة أن تسكت أنت عن ذكر سوءاتك ، ويسكت الناس عن ملاحقتك واستنطاقك بما تكره ، وفى هذا وذاك نعود إلى موروث دينى :

فمن الأول : ما أخرجه مسلم فى صحيحه «باب النهى عن هتك الإنسان ستر نفسه من كتاب الزهد والرقائق» من حديث أبى هريرة ، يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كلّ أمتى معافى إلاّ المجاهرين ، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً ، ثم يُصبح قد ستره ربّه ، فيقول : يا فلان ، قد عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، فيبيتُ يستره ربّه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه» . صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢٢٩١.

ومن الثانى : ما أخرجه أحمد فى مسنده ، من حديث أبى برزة الأسلمىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتّبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته» مسند أحمد ٤٢١/٤ ، وأخرجه مرّة أخرى من حديث ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلفظ : « لا تؤذوا عباد الله ولا تعيِّروهم ، ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته» مسند أحمد ٢٧٩/٦.

أما ما يطلبه الأستاذ صلاح عيسى ، من أن يكتب العرب سيرهم الذاتية بنفس الصراحة والصدق اللذين كتب بهما «جان جاك روسو» اعترافاته ، فهذا ليس عدلا ، وليس إنصافا ، مع ما فيه من إغفال للموروث الدينى ؛ فجان جاك روسو ومن إليه من سائر القوم ، يرجع

إلى بيئة مختلفة عن بيئتنا ، وأعراف اجتماعية مباينة لأعرافنا ، وموروث ديني يغاير موروثنا .

وليس يخفى أن مصطلح «الاعترافات» عند القوم له دلالة خاصة ترتكز على أساس دينى ، وتتطلب اجراءات ووسائط يعرفها الناس ، أما فى موروثنا الدينى فالأمر فى غاية اليسر والسهولة ، فما عليك إلا أن تكاشف نفسك فى لحظة صدق ، وحدك منفردا ، تبسط أخطاء ك وخطاياك أمام عينك ، ناويا البراءة منها ، والخلاص من أثقالها ، طالباً من ربك - ليس بينك وبينه حجاب - العون على تجاوزها ، معاهداً له على عدم العودة إليها ، فإذا صح منك العزم واستجبت للبراءة والتوبة فى ظاهر أمرك وباطنه، خرجت من ذنوبك كلها كيوم ولدتك أمك ، وليس للناس بعد ذلك حاجة فى أن يعرفوا ما كان منك وما صرت إليه ، فحسبهم منك الوجه الطيب والعمل الزاكى .

ويبقى فى كلام الأستاذ صلاح عيسى ما ينبغى الوقوف عنده ، والاحتفال به ، وهو «الصدق» فيما يكتبه الناس من سيرهم الذاتية .

والصدق فضيلة الفضائل ، وعنوان الشرف والكمال ، به يسمو الإنسان أمام نفسه ، وعليه يعظم فى أعين الناس ، وإليه يعود صلاح المجتمع . وجاء فى الأثر : «الصادق يُعطَى ثلاث خصال : المُلْحة والمحبَّة والمهابة » . والملحة بضم الميم وسكون اللام : البركة . يقال : كان ربيعنا

مملوحاً فيه : أى مخصباً مباركاً . النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ٣٥٤/٤ ، روي شبيهه عن الزاهد الكبير يوسف بن أسباط ، قال : «للصادق ثلاث خصال : الحلاوة والملاحة والمهابة» . سير أعلام النبلاء ، للذهبى ١٧٠/٩.

وبعض الذين يكتبون سيرهم الذاتية يستطردون مع شهوة الحديث عن النفس إلى ذكر محاسن ومآثر لهم ، فى مواقف ووقائع ، يضخمونها وينفخون فيها ، غير مدركين أن هناك من الناس من شهد هذه المواقف ، وعاش تلك الوقائع ، وغير متنبِّهين إلى أنهم ربما نقضوا كلامهم ذلك فى مكان آخر مما كتبوه فى سيرهم الذاتية أو فى غيرها ، فكان واجباً عليهم أن يتذكروا هذا المثل الحكيم من أمثال العرب «إن كنت كذوبا فكن ذكورا» ، ويروى «كن ذكورا إذا كنت كذوبا» . مجمع الأمثال للميدانى ٧٤/١ ، ١٧٣/٢ ، وقد نظمه شاعر فقال :

تكذب الكذبة جهلاً ثم تنساها قريباً
كن ذكوراً للذى تحكى إذا كنت كذوباً

جمهرة الأمثال ، لأبى هلال العسكرى ٣٩٦/٢.

وأعلى مراتب الصدق : الصدق مع النفس ، ومظاهر الصدق مع النفس كثيرة ، وجماعها ألا يخالف الظاهر الباطن ، وألا يصادم السر العلن .

ويقرأ الناس فى تراثنا ، على اختلاف علومه وفنونه ، كلاماً كثيراً ، منظوماً ومنثوراً ، عن الصدق وفضائله ، فى نصوص عالية موثقة ،

لكنها تظل نصوصا مجـردة ، يصدقها من يصدقها ، ويكذبها من يكذبها ، وتبقى ممارسات الناس وحدها شاهداً ودليلاً على التزامهم أبواب الصدق ، وتحرِّيهم وجوهه ودروبه .

الجزئى دون الكلى !

وهذه الممارسات مطروحة فى كتب التاريخ : تراجم وأحداثاً ، وفى كتب الأدب والأخبار ، بل فى سائر ما كتبه العرب فى علومهم المختلفة . ومن المؤسف أن هذه الممارسات التى تمتلىء بها كتبنا ومعارفنا لا يقف الناس الآن عندها كثيراً بحُسن التأمل والنظر ، بل إنها عند بعض الناس ألوان من النوادر والمسامرات التى تستخرج الضحك ليس غير ، بل إن بعضهم قد يُسرف فى «التفلسف» فيرى أنها ممارسات مصنوعة ، فى أخبار يراد بها إضحاك الخلفاء والملوك ، للحظوة عندهم وأخذ عطاياهم ، وأن هذه الممارسات والأخبار إن صدقت فهى لا تخرج عن اهتمام العقل العربى بالجزئى دون الكلِّى ، وهو كلام قد مللنا من الردِّ عليه ، وهو فى جملته لا يدل إلا على عدم المعرفة بكتبنا وتاريخنا .

ولو أردت أن أكتب لك أيها القارىء الكريم ما وقفت عليه من هذه الممارسات المطروحة فى الأخبار ، لاحتجت إلى مجلَّدات وأسفار ، فحسبى أن اجتزىء هنا ببعضها ، لكن لى عليك أيها القارىء العزيز

شرط واحد : هو أن تعطى هذه الأخبار حظها من التأمل والتدبّر ، وأن تتنبه لذلك الخيط الذى يربط بينها ، وسيُفضى بك هذا الخيط - إن شاء الله - إلى روح هذه الحضارة العربية القائمة على الصراحة والوضوح . وشرط آخر : ألا تظن أنى أريد أن أسلّيك أو أضحكك بهذه النوادر ، وإن كنت أدعو لك أن يُضحك الله سنَّك ، ويبسط أساريرك .

وبعض هذه الأخبار ممًا وعته صدور الرواة من عربية الجاهلية ، وكثير منه من عربية الإسلام .

وإذا كانت مظاهر صدق النفس كثيرة ، وصورها شتّى ، فإن أوْلاها بالعناية وأحقها بالتأمل : ما يتصل منها بالاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب ، والإنصاف فى الحكم ، ولو كان مما يجرّ إلى الانتقاص من النفس ، وهو ما يسميه الناس الآن : الموضوعية ونقد الذات .

ومن أقدم ما عُرف من صور الإنصاف فى تاريخنا الأدبى ، ما يسمى فى تاريخ الشعر بالمنصفات ، ويسميها الجاحظ «الأشعار المنصفة» البيان والتبيين ٤/٢٣ . الأشعار المنصفة : «هى القصائد التى أنصف قائلوها أعداء هم فيها ، وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطلوه من حرِّ اللقاء ، وفيما وصفوه من أحوالهم فى إمحاض الإخاء» . خزانة الأدب للبغدادى « ٨/٢٢٧.

فالشاعر المنتصر لا يَغُرّه انتصاره فينسيه ما رآه من عدوه من بسالة فى الطعن والضرب والرمى ، فهو يزهو بانتصاره ، لكنه يعترف

لعدوِّه بالثبات والجَلَد ، وهذا هو خلق الفرسان . وقد جمع الأستاذ عبد المعين الملوحي ست قصائد من هذه الأشعار المنصفة ، ثم ضم إليها بعض المقطوعات الشعرية في الإنصاف ، وقدَّم لذلك كله بشيء من الدراسة التحليلية لهذا اللون من الشعر العربي ، وقد صدر هذا العمل عن وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي بدمشق ١٩٦٧م . أما الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب ففي تاريخنا منه الكثير مكتوباً في أخبار وممارساً في وقائع . وأكتفي هنا بخبرين من تاريخ الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الأول من رسالته الشهيرة في القضاء التي بعث بها إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وهو على قضاء البصرة ، وفيها يقول : لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم ، فراجعت فيه عقلك وهُديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل» الكامل للمبرد ١/٢٠.

فهذا خبر عن عمر ، في الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب ، ثم تأتي ممارسة عمر نفسه تصديقاً له في ذلك الخبر الذي يرويه المفسرون في سياق تفسير الآية «٢٠» من سورة النساء ، وأصحاب السّنن في أبواب النكاح . فقد رُوي أن عمر خطب يوما فقال : لا تغالوا صداق النساء ، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله ، لكان أولاكم وأحقكم بها محمد صلى الله عليه وسلم ، ما أصدق امرأة من نسائه ولا أُصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية . وإن

الرجـــل ليثقل صدقة امرأته «أى مـهرهـا» حتى يكون لـها عداوة فى نفسه» ، فقامت إليه امرأة ، فقالت : يا عمر ، يعطينا الله وتحرمنا ! أليس الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ﴾ فقال عمر: أصابت امرأة ، وأخطأ عمر . وفى رواية : «فأطرق عمر ، ثم قال : كل الناس أفقه منك يا عمر! » . وفى أخرى : «امرأة أصابت ورجل أخطأ ، وترك الإنكار » تفسير القرطبى ٩٩/٥ ، وسنن ابن ماجه (باب صداق النساء ، من كتاب النكاح) ص ٦٠٧ ، والمصنف لعبدالرزاق بن همام الصنعانى (باب غلاء الصداق ، من كتاب النكاح) ١٧٥/٦.

★★★

وهذا باب آخر من أبواب صدق النفس ، وهو الصبر على تلك الأجوبة المسكتة التى يواجه بها مشاهير الرجال ، من أوساط الناس وضعفائهم ، وفى تلك الأجوبة أحيانا ما يكون مثل لذع النار أو نهش الأفاعى ، يصبر لها كبار النفوس ، لأنها تردهم إلى الحق ، وتعيدهم إلى الصواب ، وبعض من ذلك يسميه الناس الآن : الديمقراطية ، يكتب الناس عنها كثيرا ، ويمارسونها قليلا .

ومن ذلك ما رواه الزمخشرى ، قال : حبس عمرو بن العاص عن جنده العطاء (أى الرواتب) فقام إليه رجل حميرى ، فقال : أصلح الله الأمير ، اتخذ جُنداً من حجارة لا يأكلون ولا يشربون ! قال عمرو :

أُسكت يا كلب ، قال : إن كنتُ كذلك فأنت أمير الكلاب ! فأطرق عمرو ، وأخرج أرزاقهم (أى رواتبهم) . ربيع الأبرار ٦٩٠/١ .

وحدث محمد بن حبيب ، قال : أخبرني ابن الاعرابى ، قال : شهد أعرابى عند معاوية بشهادة ، فقال له : كذبت ! فقال الأعرابى : الكاذب المتزمل فى ثيابك ! فقال معاوية وتبسم : هذا جزاء من عجل . الهفوات النادرة للصابى ص ٣٥٥ ، وربيع الأبرار ٦٦٥/١.

وروي عن الفرزدق أنه قال : ما استقبلنى أحد بمثل ما استقبلنى به نبطى - والنبط : جيل من الناس كانوا ينزلون سواد العراق ، ثم استُعمل فى أخلاط الناس وعوامهم - قال : أنت الفرزدق الذى يمدح الناس ويهجوهم ويأخذ أموالهم ؟ قلت : نعم . قال : أنت فى الكنيف من قدمك إلى أنفك . قلت : لم حاشيت العينين ؟ قال : حتى ترى هوان نفسك . يقول الفرزدق : فبهت . ربيع الأبرار ٧١١/١.

وروي عن الجاحظ ، قال : «ما خجلتنى إلا امرأة ، حملتنى إلى صائغ ، فقالت : مثل هذا . فبقيت مبهوتا ، فسألت الصائغ ، فقال : هى امرأة استعملتنى (أى طلبت منى أن أعمل) صورة شيطان ، فقلت : لا أدرى كيف أصوره ، فأتت بك ، فقالت : «مثله» أى اصنع مثله . ربيع الأبرار ٨٥٢/١ ، ومعلوم أن الجاحظ كان دميماً قبيح الوجه .

صحة العقل

وروي أن المحدث الجليل سفيان بن عيينة بكى يوماً ، فقال له يحيى ابن أكثم : ما يبكيك يا أبا محمد ؟ قال : بعد مجالستى أصحاب رسول

الله صلى الله عليه وسلم بُليت بمجالستكم ! فقال له يحيى – وكان حَدَثاً – : فمصيبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من مصيبتك ! فقال : يا غلام ، أظن السلطان سيحتاج إليك . ربيع الأبرار ٦٦٩/١ . ويريد سفيان أن يصف يحيى بصحة العقل حين أحسن الدفاع عن نفسه وعن أبناء جيله ، ثم رد المذمة عليه ، وأن مثله جدير بأن يتخذه السلطان عوناً وسنداً . وفى رواية أخرى أن يحيى بن أكثم حين سمع هذا الكلام من سفيان بن عيينة قال له : أتنصف يا أبا محمد ؟ قال : إن شاء الله ، قال : والله لشقاء من جالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بك أشدّ من شقائك بنا ، فأطرق وتمثل بشعر أبى نواس :

خل جنبيـــــك لرامٍ   وامضِ عنه بســلام

مت بداء الصمت خير   لك من داء الكـلام

تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٩٣/١٤ .

وقد ألَّف غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال الصابى المتوفى (٤٨٠ هـ) كتابا سماه «الهفوات النادرة» جمع فيه أخباراً عن سقطات الناس وأخطائهم التى أوقعتهم فيها الغفلة وسوء التقدير ، وكان أول خبر يورده من ذلك ما وقع فيه هو نفسه ، يقول : «فأول ما أبدأ به ما خصنى منه ، وهو أننى كنت جالساً وإلى جانبى أبو سعد القادسى ، أحد المتفيهقين المتشدقين ، وجرى ذكر بعض ثقلاء الزمان المتعسفين ،

فقلت مسرعاً متبرعاً : إنه ليشبه ابن القادسى فيما يتعاطاه ، مما يتجاوز فيه الصواب ويتخطاه . ثم استيقظت من رقدة زلتى ، وانتبهت لهفوتى . ثم ذكر بعد ذلك استدراكه على هذا الخطأ بتوجيه القول بعيدا عن ابن القادسى .

ولم أر في أدباء هذا الزمان من يكثر من الاعتراف بخطئه ، والتنويه بمن دله على وجه الصواب ، من شيخنا أبى فهر محمود محمد شاكر ، وهو كثير عنده ، ومنه ما ذكره في المستدرك بآخر كتاب إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع ، للمقريزى المتوفى (٨٤٥ هـ) ، فقد صحح ما ورد فى ص ٢١٦ من الجزء الأول ، من قوله : «لم أجد ذكر أبى عامر الفاسق فى حديث بعد خبره يوم أُحد ، إلا خبر موته عند هرقل ، وذلك عام حجة الوداع» ؛ فقال فى الاستدراك : «وهذا خطأ منى ، فيه نسيان وعَجَلة ، إذ ليس يخفى خبر أبى عامر آلفاسق فى أمر مسجد الضرار» ؛ فلم يكتف بنسبة الخطأ إلى نفسه حتى ضم إليه النسيان مقروناً بالعَجَلة ، وهذا منهج شيخنا فى كتاباته كلها ، وفي تحقيقاته أيضا ، وإنما ذكرت هذا المثال بعينه ، لأن كلام شيخنا هذا كان فى سن الشباب ، وهو زمن الخيلاء والتيه ، فقد صدر الجزء الأول من كتاب المقريزى سنة ١٩٤٠م .

★★★

ونترك باب الأجوبة المُسْكِتَة ، وباب الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب ، ودلالة ذلك كله على صدق النفس ، وننظر ونتأمل فى كلام

الناس عن ذواتهم ، وصدقهم فى الإبانة عن دخائل نفوسهم وما تنطوى عليه قلوبهم ، غير هيابين ولا وجلين ، ولو كان ذلك فى ظاهره مما يصادم العقيدة ، أو يخالف المذهب :

روي أن عبد الله بن الزبير قطع ذِكْر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبة الجمعة جُمعاً كثيرة ، فاستعظم الناس ذلك ، فقال : إنى لا أرغب عن ذكره ، ولكن له أُهَيْل سوءٍ (تصغير أهل) إذا ذكرته أتْلَعُوا أعناقهم (أى مدوها ورفعوها) فأنا أحب أن أكبتهم» شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١٢٧/٢٠ ، وروي أنه قال : والله ما تركت ذلك علانية إلا وأنا أقوله سراً وأكثر منه.

ومن هذا الباب أيضا ما روي أن علوياً قال لأبى العَيْناء : تبغضنى وقد أُمرتَ بالصلاة على ؟ تقول : صلى الله على محمد وآله . قال أبو العيناء : إنى أقول : «الطيبين الأخيار» فتخرج أنت ، ربيع الأبرار ٧١٧/١.

وأبو العيناء هذا : اسمه محمد بن القاسم ، كان أديبا فصيحا ، من ظرفاء الدنيا ، ومن أسرع الناس جوابا ، اشتُهر بنوادره ولطائفه ، وكان ذكيا جدا ، حسن الشعر ، مليح الكتابة والترسل ، خبيث اللسان فى سب الناس والتعريض بهم ، نشأ بالبصرة وتوفي بها سنة (٢٨٣ هـ) كُف بصره بعد بلوغه أربعين سنة ، قال عنه الخليفة العباسى المتوكل : «لولا أنه ضرير لنادمته » ، فبلغه ذلك فقال : إن أعفانى من

رؤية الأهلة وقراءة نقوش الفصوص ، فأنا أصلح للمنادمة . وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/٣٤٥ ، والأعلام للزِّرِكْلى ٧/٢٢٦.

وروي عن الجاحظ أنه قال : كان رجل من أهل السواد - والسواد : ناحية بالعراق افتتحها المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب ، سميت بذلك لكثرة الزروع والنخيل والأشجار بها ، والعرب تسمى الخضرة سواداً - كان هذا الرجل يتشيع ، وكان ظريفاً ، فقال ابن عم له : «بلغنى أنك تبغِّض عليّاً عليه السلام (أى تدعو الناس إلى بغضه وكراهيته) والله لئن فعلت لتَرِدنَّ عليه الحوض ولا يسقيك !

قال : والحوض فى يده يوم القيامة ؟ قال : نعم ، قال : وما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس فى الدنيا بالسيف وفى الآخرة بالعطش ؟ فقيل له : أتقول هذا مع تشيعك ودينك ؟ قال : والله لا تركت النادرة ولو قتلتنى فى الدنيا ، وأدخلتنى النار فى الآخرة» معجم الأدباء لياقوت الحموى ص ٢١٠٨ (طبعة الدكتور إحسان عباس ، وهى طبعة عظيمة فاقت الطبعتين السابقتين : طبعة مارجوليوث ، وطبعة فريد رفاعى) .

ومن باب الصدق مع النفس أيضا قول دِعْبِل بن على الخزاعى ، الشاعر المعروف ، المتوفى (٢٤٦ هـ) : «ما كانت لأحد قط عندى منّة إلا تمنيت موته» . الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ٢٠/١٣٧ ، ولا تستبشع هذا القول من ذلك الشاعر ، فهو رجل صـادق ، يستثقل منن الناس عليه ، ويراها قيوداً على لسانه وعقله ، وكثير من الناس يستصحب هذا الشعور ، دون أن يصرح به . بل إن بعض الناس يأنف من السؤال

ويطوى نفسه على الحرمان مخالفة المنع والخذلان ، تقول الصوفية الكبيرة أمّ علي امرأة أحمد بن خضروية البلخى المتوفى (٢٤٠ هـ) «فَوْتُ الحاجة أيسر من الذل فيها » . كتاب ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات لأبى عبدالرحمن السلمي ، ص ٧٧ ، وقال شاعر :

لا تحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا أشد من ذاك على كل حال

الحيوان للجاحظ ١٣١/٣ ، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر ص ٢٥٦.

ويبقى أن تلاحظ أيها القارىء الكريم - رجوعاً إلى الخبر السابق - أن أبا الفرج الأصبهانى ودعْبلاً الخزاعىّ كلاهما شيعىّ ، ولم تمنع هذه الجامعة بينهما أبا الفرج من ذكر ذلك الخبر الذى قد يسىء إلى صاحبه على نحو ما . وهذا من باب الصدق أيضا .

الصراحة الكاشفة

وهذا أبو العباس المبرّد المتوفى (٢٨٥ هـ) وهو أحد أئمة العربية ، كان معروفا بالبخل ، وكان هو يظهر ذلك للناس ولا يكتمه ، يقول الوزير القفطى : «وكان المبرد ممسكا بخيلا ، يقول : ما وزنت شيئا بالدرهم إلا ورجح الدرهم فى نفسى ، هذا مع السعة التى كان فيها» . إنباه الرواة على أنباء النحاة ٢٤٩/٣.

وقصة المبّرد هذه ، مع ما يشاكلها ، تعطيك دلالة أخرى : لأن الذى يتحدث عن نفسه بهذه الصراحة الكاشفة يَصْدُق فى كل ما يلقيه عليك

بعد ذلك ، لأن الشخصية لا تتجزأ ، كما يقول الناس فى هذه الأيام ، ومن هنا تثق بكل ما كتبه أبو العباس المبّرد : فى كتابه الكامل فى الأدب والأخبار ، وكتابه المقتضب فى النحو ، وكتابه فى التعازى والمراثى .

ومع تظاهر كثير من الناس بالزهد فى المال وعدم الحرص عليه ، نرى الإمام الجليل سفيان بن سعيد الثورى المتوفى (١٦١ هـ) وهو إمام الحفاظ ، وأمير المؤمنين فى الحديث ، يقول : لأن أُخَلّف عشرة آلاف درهم ، يحاسبنى الله عليها أحب إلى من أن أحتاج إلى الناس» . وروي أنه سئل عن مسألة وهو يشترى شيئا ، فقال : «دعنى فإن قلبى عند درهمى» .. وروي عنه أنه قال : «كان المال فيما مضى يكره ، فأما اليوم فهو ترس المؤمن » ، ونظر إليه رجل ، وفى يده دنانير ، فقال : يا أبا عبدالله ، تمسك هذه الدنانير ؟ قال : أسكت ، فلولاها لَتَمنْدلَ بنا الملوك . «كأنه يريد : اتخذونا مناديل يمسحون بها وجوههم وأيديهم» سير أعلام النبلاء ، للذهبى ٢٤١/٧. يقول سفيان الثورى هذا كله ، وهو سيد العلماء العاملين فى زمانه ، وهو القائل أيضا : «ما وضع رجل يده فى قصعة رجل إلا ذل له » .

وهذا الأحنف بن قيس ، العالم الكبير ، المتوفى (٧١ هـ) وهو أحد من يُضرب بحلمه وسؤدده المثل ، يقول : «كذبت مرة واحدة . سألنى عمر بن الخطاب عن ثوب : بكم أخذته ؟ فأسقطت ثلثى الثمن» . سير أعلام النبلاء للذهبى ٨٩/٤.

وكان للأحنف هذا ولد ، يقال له : بحر ، وبه كُني ، وكان مضعوفاً (أى قليل العقل خاملاً) «فقيل له : لم لا تتأدب بأخلاق أبيك ؟ فقال : الكسل » وفيات الأعيان لابن خلكان ٥٠٦/٢. وهذا من باب الصدق مع النفس أيضاً .

وهذا رجل يحب الشهرة وبُعد الصيت ، ولو ركب لهما الصعب . فيروى عن الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البناء ، المقرىء المحدث الحنبلى ، المتوفى (٤٧١ هـ) أنه قال : «هل ذكرنى الخطيب البغدادى فى (تاريخ بغداد) فى الثقات أو مع الكذابين ؟ قيل : ما ذكرك أصلا ، فقال : ليته ذكرنى ولو مع الكذابين» . سير أعلام النبلاء للذهبى ٣٨١/١٨. والإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، لشمس الدين السخاوى ص ٣٢.

على أنه ينبغى التنبيه الدائم للفرق الدقيق بين صراحة هؤلاء الناس ، وصدقهم فى الإبانة عن أنفسهم ، وبين كشف العيوب الفادحة ، ونشر المساوىء الفاضحة ، التى تدخل فى باب العورات ، وهو ما نهينا عن الحديث عنه ، أو تتبعه واستقصائه ، كما ذكرت فى صدر هذه الكلمة ، وضم إليه ذلك الحديث العظيم الذى أخرجه الإمام مالك ، وهو حديث من اعترف على نفسه بالزنا ، وفى آخره يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من أصاب من هذه القانورات شيئاً فليستتر بستر الله ، فإنه من يُبْد لنا صفحته نُقِم عليه الحد» . الموطأ (باب ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا ، من كتاب الحدود) ص ٨٢٥ .

ومن أحلى وأعذب صور الصدق مع النفس وإرسالها على سجيتها : قصة ذلك المحدث الجليل إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن ابن عوف ، أبو اسحاق القرشى الزهرى العوفى المدنى ، المتـوفى (١٨٣ هـ) وكان حافظاً كبيراً ، وإماماً ثقة حجة . يقول الحافظ الذهبى فى ترجمته من سير أعلام النبلاء ٨/٢٧٢ : « وكان ممن يترخص فى الغناء على عادة أهل المدينة ، وكأنه ليم فى ذلك ، فانزعج على المحدثين ، وحلف أنه لا يُحَدّث حتى يغني قبله» أى قبل التحديث .

وروى الخطيب البغدادى هذا الخبر ، برواية أخرى ، قال : «وسئل عن الغناء فأفتى بتحليله ، وأتاه بعض أصحاب الحديث ليسمع منه أحاديث الزهرى ، فسمعه يتغنى ، فقال : لقد كنت حريصاً على أن أسمع منك ، فأما الآن فلا سمعت منك حديثاً أبداً ، فقال : إذاً لا أفقد إلا شخصك ، عليٌ وعليٌ - يقصد الحلف بالطلاق - إن حدثت ببغداد ما أقمت حديثاً حتى أغنى قبله .. وذكر أن هذه القصة بلغت الرشيد ، فاستدعاه ، ودعا له بعود فغناه :

يا أم طلحة إن البين قد أفدا　　　قل الثواء لئن كان الرحيل غدا

تاريخ بغداد ٦/٨٤ » . وهذا البيت لعمر بن أبى ربيعة ، وروايته فى ديوانه ص ٣٩١ : ألم بزينب إن البين قد أفدا ، ومعنى «أفد» دَنَا وقَرُب موعده .

فهذا محدث فنان . ومما يشاكل هذا الباب ما رواه الذهبى أيضا ، عن على بن حرب الطائى المتوفى (٢٦٥ هـ) قال : سمعت أبى يقول :

أحب أن تكون لى جارية فى غُنْج سفيان بن عيينة إذا حدث» . سير أعلام النبلاء ٨/٤٠٤ (والغُنْجُ فى المرأة : حسنها وتدللها وترققها فى الكلام) .

ومثل هذه الأخبار ينبغى أن تُفْهَم على حقيقتها ، وهى أن القوم الذين كانوا يروون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا يروونه بانبساط نفس ، وانشراح صدر . (يعنى فى تعبيراتنا المصرية : يروونه بمزاج) أما الورع الكاذب ، والخشوع المصطنع فلا وجود له فى عقيدتنا ولا فى حضارتنا ، واقرأ إن شئت كتاباً واحداً فى آداب وأعراف التحديث بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كتاب «أدب الإملاء والاستملاء» ، لأبى سعد السمعانى ، المتوفى (٥٦٢ هـ) وتأمل على سبيل المثال ما يذكره عن وجوب نظافة المُحَدِّث وحسن ثيابه وتطييبه بالعطور حين يجلس لإملاء الحديث ، وما نقله عن علماء الحديث من التعوذ من الثقل والثقلاء .

★★★

وهذه صورة من صور الصدق مع النفس ، تسجلها كتب التاريخ والأدب ، مع أن هذه الصور تجرى فى ذرائع الشر ومكروه الأخلاق ، لأن هذه الكتب وثائق تسجل واقع البشر ، فهى لا تنتقى من الأخبار ما يرضى الناس فحسب ، وتحجب عنهم ما يسوؤهم . إن كتبنا فى التاريخ وسائر المعارف شهود صدق وقضاة عدل :

فهذا «نُوَيْدُ بن زيد بن نَهْد» ؛ معمر جاهلى قديم ، وشعره من قديم الشعر العربى ؛ تقول كتب التاريخ والأدب إنه جمع أولاده عند موته ، ثم قال لهم : «أوصيكم بالناس شراً ، لا تقبلوا لهم معذرة ، ولا تقيلوهم عثرة ، أوصيكم بالناس شراً ؛ طعناً وضربًا ، وما احتجتم إليه فصونوه ، وما استغنيتم عنه فأفسدوه على سواكم ، فإن غش الناس يدعو إلى سوء الظن ، وسوء الظن يدعو إلى الاحتراس» . راجع أيها القارىء العزيز كتاب المعمرين لأبى حاتم السجستانى ص ٢٦ ، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٣١ ، وأمالى الشريف المرتضى ٢٣٦/١.

ومن وصايا الشر أيضاً التى سجلتها الكتب : ما وصى به أبو النجم العجلى ، الراجز الشهير المتوفى (١٣٠ هـ) بناته الثلاث ، قال للأولى :

أوصيتُ من بِرّة قلبــاً حرّا بالكلب خيراً والحَماةِ شرّا
لا تسأمى ضَرْباً لها وجرّا حتى ترى حلوَ الحياةِ مَرا
وان كَســتْك ذهبــاً ودرا والحىُّ عُمِّيهم بشرٍ طُــرّا

وقال للثانية :

سُبِّى الحَماةَ وابْهَتى عليها وإن دَنَتْ فأزدلفى إليهــا
وأوجعى بالفهر ركبتيهــا ومِرفقيها واضربى جَنْبَيْها

يقال : بَهَتَه بَهْتاً : أخذه بغتة . ولعلماء اللغة فى قول أبى النجم «ابهتى عليها» كلام كثير أنظره فى الصحاح للجوهرى والتنبيه.

والإيضاح عما وقع فى الصحاح لابن برى ، والتكملة والذيل والصلة للصاغانى ، وكلها معاجم لغوية .

الفِهْر ، بكسر الفاء وسكون الهاء : الحَجَر يملأ الكف .

وقال للثالثة :

أوصـــيك يا بنتى فـإنى ذاهبْ أوصيك أن تحمـدك القرائبْ
والجار والضيف الكريم الساغبْ لا يرجع المسكين وهو خائبْ
ولا تني أظفارك السَّـــلاهبْ منهن فى وجه الحماة كـاتبْ
والـزوج إن الـزوج بئـس الصاحـبْ

والأظافر السلاهب : الطويلة .

وروي أن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى سمع هذا الشعر من أبى النجم ثم قال له : ما هكذا أوصى يعقوب ولده ! قال أبو النجم : ولا أنا كيعقوب ، ولا بنيّ كولده ! راجع الكامل للمبرد ص ٩٩٨ ، والأغانى لأبى الفرج ١٠/١٥٦.

هكذا وصى دويد بن زيد ، وأبو النجم ، وسبحان خالق الطباع ، ومُصَرِّف القلوب . وما أصدق كتبنا ومؤرخينا فى تسجيل الحياة بخيرها وشرها وحسنها وسيئها .

فيا أيها القارىء الكريم ، أنار الله بصرك وبصيرتك ، اقرأ وتدبر ولا تعجل فترمى هذا الكلام بالوضع والانتحال ،

فقد عرفنا فى زماننا هذا من يوصى أولاده بسوء الظن ، والاستيحاش من الناس ، والإمساك دونهم ، والحرص على المال بتزيين البخل ، فلازلنا نسمع هذه الأمثال كل يوم : اللى معاه قرش يساوى قرش - اللى معاه قرش ابنه يزمر - القرش الأبيض ينفع فى النهار الأسود - وأنا ما لى يا عم هو أنا خلفته ونسيته ؟ - ويبقى ابنى على كتفى وأدور عليه ؟ - ويا لله نفسى نفسى - ويا روح ما بعدك روح - واللى يعوزه البيت يحرم على الجامع - وخالتى وخالتك واتفرقت الخالات . بل سمعنا أشد من ذلك كله فى تسويغ البخل والإعراض عن نجدة الناس والبر بهم ، والنظر إلى المصلحة الذاتية فقط ، وهو قولهم : «عيش ندل تموت مستور» فهى هى طبائع البشر فى كل زمان ومكان وإن اختلف التعبير عنها.

أما وصية أبى النجم فى التشديد على الحماة والإغلاظ للزوج ، فما لنا نسمع من هذا وذاك الشىء الكثير ، وأظن أنه لا يغيب عنك : يا مآمنه للرجال يا مآمنه للميه فى الغربال . ولازلت أذكر ما كنت أسمعه من نساء حى الدرب الأحمر - وهو الحى الذى نشأت فيه - فتقول الأم لبنتها قبل انتقالها لبيت الزوجية : خلى بالك من المرة القرشانة اللى إسمها أمه ، إديها على دماغها أول بأول كده ، متسكتلهاش أحسن يكبك» . أو تقول لها عن زوجها : «إوعى منه ، ربنا يستر ، والله أنا خايفة ، دا باين عليه ابن أمه » .

أما التوصية بنتف ريش الزوج حتى لا يطير ، فلم يعد لها مكان الآن ، لأن الزوج أصبح لا ريش له بعد اشـــتراك الزوجة معه فى الوظيفة ، ومساهمتها فى دخل البيت ومزاحمتها له فى اتخاذ القرار ، وربنا المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل !.

★★★

ثم نعود إلى أخبار الصدق مع النفس : فمع حرص خلفاء المسلمين على أن يظهروا للناس وجه العفو والمسامحة ، فإن بعضهم كان صادقا مع نفسه كل الصدق حين أظهر الحزم والمخاشنة وسوء المعاملة ، فقد روي أن عبدالصمد بن على بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب قال للخليفة العباسى المنصور - وكان ابن أخيه - «لقد هَجَمْتَ بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو ! » قال : « لأن بنى مروان - يعنى الأمويين - لم تَبْلُ رممهم ، وآل أبى طالب - يعنى العلويين - لم تغمد سيوفهم ، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سُوقةً - أى من عامة الناس - واليوم خلفاء ، فليس تتمهد هيبتنا فى صدورهم إلا بنسيان العفو ، واستعمال العقوبة» . تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٦٧ ، وهو كلام عالٍ نفيس ، فاقرأه مرة أخرى .

أما حديث الشعر فى الصدق مع النفس فهو كثير جداً ، ومنه قول حارثة بن بدر الغدانى ، التابعى الجليل ، المتوفى (٦٤ هـ) ، وهو ما رواه أبو الفرج الأصبهانى ، والشريف المرتضى ، قالا : «اجتاز حارثة ابن بدر الغدانى بمجلس من مجالس قومه من بنى تميم ، ومعه كعب

مولاه ، فكلما اجتاز بقوم قاموا إليه ، وقالوا : مَرْحَباً بسيدنا ، فلما ولى قال له كعب : ما سمعت كلاما قط أقرَّ لعينى ، ولا ألذ بسمعى من هذا الكلام الذى سمعته اليوم . فقال له حارثة : لكنى لم أسمع كلاما قط أكره لنفسى وأبغض إلى مما سمعته ! قال : ولم ؟ قال : ويحك يا كعب ، إنما سودنى قومى حين ذهب خيارهم وأماثلهم ، فاحفظ عنى هذا البيت :

خَلتِ الديارُ فسُدْتُ غَيَر مُسَوَّدِ ومن البلاءِ تَفَرُّدي بالسُّؤْدَدِ

أرأيت موضوعية وصدقاً ونقداً للذات أبرع من هذا ؟ وما أحرى كثيرا من أصحاب المناصب الآن أن يتمثلوا بهذا البيت لو رُزقوا الصدق مع أنفسهم .

وأنظر الخبر فى الأغانى - ملحق الجزء الثامن ص ٤٢٤ ، من طبعة دار الكتب المصرية ، وأمالى الشريف المرتضى ٣٨٨/١ ، ثم أنظر شرح الحماسة لأبى على المرزوقى ص ٨٠٧ ، ففيه كلام عن التوجيه النحوى للبيت ، إن كنت تحب النحو ، وأود لك أن تحبه . وهذا البيت الحكيم الذى أنشده وتمثل به حارثة بن بدر ، وهو من قطعة أوردها أبو تمام فى حماسته ، ونسبها لرجل من خثعم ، لم يذكر اسمه - راجع الموضع المذكور قريبا من شرح الحماسة للمرزوقى - ونسبه ياقوت الحموى ، ضمن ستة أبيات ، إلى عمرو بن النعمان البياضى . معجم البلدان ٧٠٣/١ ، فى رسم «البقيع» ، ونسبه الجاحظ إلى حارثة بن بدر ،

فجعله منشئه لا منشده ، فى الحيوان ٣/ ٨٠ ، والبيان والتبيين ٢١٩/٣ ، لكنه فى ص ٣٣٦ من ذلك الجزء أنشده من غير نسبة .

وقد كثر تمثل أهل العلم بهذا البيت ، فيذكر ابن عبد ربه فى العقد الفريد ٢/ ٢٩٠ عن الهيثم بن عدى ، قال : لما انفرد سفيان بن عيينة (١٩٨ هـ) ومات نظراؤه من العلماء ، تكاثر الناس عليه ، فأنشأ يقول : خلت الديار ... البيت . وذكر ابن خلكان فى وفيات الأعيان ٤/ ٢٢٠ ، فى ترجمة «أبى بكر محمد بن أحمد الحسين الشاشى ، الفقيه الشافعى (٥٠٧ هـ) أنه يوم جلس على كرسى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد - وكان قد سبقه إلى التدريس فيها فحول العلماء - وضع منديله على عينيه ويكى كثيراً ، وأنشد : خلت الديار ... البيت . قال ابن خلكان : «وهذا إنصاف منه واعتراف لمن تقدمه بالفضل والرجحان عليه» . وروي أن التابعى الجليل إبراهيم بن يزيد النخعى (٩٦ هـ) قال : « لقد تكلمت ، ولو وجدت بداً ما تكلمت ، وإن زماناً تكلمت فيه لزمان سوء » ثم أنشد البيت : خلت الديار... عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٦٨/١ . والخبر رواه أبو نُعيم الأصبهانى هكذا : «وإن زمانا أكون فيه فقيه الكوفة لزمان سوء» . حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٤/ ٢٢٣.

★★★

وللشعراء وأهل الأدب كلام كثير ، فى فضيلة كتم السر وصونه وعدم إذاعته ، لكن بعض الناس يضيق صدره عن كتمان السر ، ويحس أنه يحمل هماً ثقيلاً على صدره ، أو جبلاً ضخماً على ظهره ، فهو يريد

أن يتخلص من عبئه ، فيدور به على الناس ، لا يبالى أين يقع منهم ، وليس بالضرورة أن يكون إفشاؤه السر لغاية من إفساد أو سعاية ، ولكنها الثرثرة ليس غير ، وإراحة النفس من هَمٍّ مغالبة الكتمان ومدافعة الحفظ ، وقد ترجم عن هذا شاعر ، فى لحظة صدق عالية ، فيقول سحيم الفقعسى (لم أعرف تاريخه ، وانظر من اسمه سحيم من الشعراء فى خزانة الأدب للبغدادى ١/٢٦٦) ، يقول سحيم هذا :

ولا أكتم الأسرار لكن أُذيعُها ولا أترك الأسرار تغلى على قلبى

وإنَّ قليلَ العقل من بات ليله تُقلبه الأسرار جنباً إلى جَنْبِ

وأنشد الأصمعى ، قال : أنشدنى أعرابى :

ولا أكتم الأسرار لكن أبثها ولا أدع الأسرار تقتلنى غماً

وإن سخيف الرأى من بات ليله حريباً بكتمان كأن به حمى

وفى بَثِّك الأسرار للقلب راحة وتكشف بالافشاء عن قلبك الهما

وقال ثالث :

وأمنع جارتى من كل خير وأمشي بالنميمة بين صحبى

أنظر هذه الأشعار فى الحيوان للجاحظ ٥/١٨٥ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ١/٤١ ، والكامل للمبرد ص ٨٨٤ ، وبهجة المجالس لابن عبد البر ١/٤٦٠ .

وذكر الجاحظ أن ضيق الصدر بكتمان السر من أخلاق الصبيان والنساء ، ومن أخلاق الخصى أيضا – والخصى ، هو المقطوع الخصية – قال في الحيوان ١/١٣٥ «ويعرض للخصي سرعة الغضب والرضا ، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء ، ويعرض له حب النميمة ، وضيق الصدر بما أودع من السر ، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء».

ومن رقيق شعر عزيز باشا أباظة قوله من قصيدته «همسة حائرة » :

يبيتُ يُودِعُ سَمْعَ الليلِ عاصفةً ضاق النهار بها سِتْراً وكتِمانًا

فأثبت للنهار أيضا ضيقاً بكتمان السر ، كالإنسان سواء بسواء .

وبعد : فهذه صور من الصدق مع النفس : سلوكاً وكلاماً منثوراً ومنظوما ، امتلأت بها كتبنا وآثارنا التى تعرض الحياة كلها بخيرها وشرها ، وبياضها وسوادها ، وتلك طبيعة الحضارات العظيمة .

وتحية إلى الأستاذ صلاح عيسى ، الذى فتح لنا هذا الباب من القول .

رقم الايداع ٥٦٧١ / ٩٩

I. S. B . N

977 - 07 -0653- 1

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفهرس

تقديم : بقلم د . محمود على مكى ٥
الباب الأول : رموز عربية ١٣
- محمود شاكر ومنهجه فى تحقيق التراث ١٤
- الشعراوى واللغة ٣٤
- على الجارم لغويا نحويا ٥١
الباب الثانى : فى الفصاحة والاعجاز ٨١
- من اعجاز القرآن فى اعجمى القرآن ٨٢
- فى كم يتلى القرآن ٩٦
- اقرأء القرآن بمصر ١٠٩
قصيدة نادرة فى المديح النبوى ١٢٤
الباب الثالث : حسن البيان ١٣٩
- البيان والطريق المهجور ١٤٠
- التصحيح اللغوى وضرورة التحرى ١٦٥
- المعاجم اللغوية والهجوم الذى لا ينتهى ١٧٨
- النحو العربى والحمى المستباح ١٩٦
الباب الرابع : كنوز عربية ٢٣٥
- دراسة فى مصادر الادب ٢٣٦
- الكتب الصفراء والحضارة العربية ٢٦٨
- الكتاب الجامعى والطريق الصحيح ٢٧٩
- الكتاب والتواصل العلمى ٢٩٤
- البيان والتبيين للجاحظ ٣٠٤
- تركيا والمخطوطات العربية........................ ٣١٧
الباب الخامس : السيرة الذاتية والكتب العربية ٣٣٩
السيرة الذاتية والصدق مع النفس ٣٤٠

الهــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر
والعالـم العربـى

مايو ١٩٩٩ عدد ممتاز تقـرأ فيـه :

- **المرأة التى رفضت أن تتزوج الزعيم سعد زغلول .**
- **مـدارس بـلا تعليم وتعليم بلا مدارس .**
- **مستقبل المجلة الثقافية .**
- **النباتات الهندسية .**

رئيس مجلس الإدارة
مكـرم محمـد أحمـد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

روايات الهلال تقدم

ويأتى القطار

بقلم

محمد البساطى

تصدر ١٥ مايو ١٩٩٩

كتاب الهلال يقدم

باحثة البادية
عائشة التيمورية

بقلم

الانسة مى

يصدر ٥ يونية ١٩٩٩

نموذج الاشتراك فى كتاب الهلال

يمكنكم الحصول على خصم ١٠ ٪ من قيمة الاشتراك فى كتاب الهلال بارسال هذا الكوبون مرفقا به حوالة بريدية غير حكومية داخل (ج.م.ع) أو بشيك مصرفى (باقى دول العالم) بقيمة الاشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل بخطاب لإدارة الاشتراكات .

الاسم : ....

العنوان : ....

مدة الاشتراك : .... التليفون ....

	داخل ج.م.ع.	البلاد العربية	آسيا - أوربا أفريقيا	أمريكا الهند - كندا	باقى دول العالم
	جنيه	دولار	دولار	دولار	دولار
اشتراك سنوى	٥٤	٢٧	٣٦	٣٦	٤٥
اشتراك ٦ شهور	٢٧	١٤	١٨	١٨	٢٣

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

هذا الكتاب

كان الدكتور محمود الطناحى «رحمه الله» مواظبا على اتحاف مجلة «الهلال» بمقالات تتناول العديد من قضايا - اللغة العربية ، وغير ذلك ، مما يتصل بتراثنا الفكرى، ومستقبل ثقافتنا العربية .

وحرصت الهلال على انتفاع القراء بهذا الذخر الثقافى ، وعلى تكريم الدكتور محمود الطناحى، بإعادة جمع تلك المقالات فى كتاب الهلال .

وهذا الكتاب ، إسهامات متنوعة ومتعددة ، فى مجال الفكر والثقافة وتحقيق التراث؛ حيث كان الدكتور الطناحى يتمتع بقدرة هائلة من سعة المعرفة ، ودقة التأمل والأمانة العلمية ، وبراعة التحليل والاستنتاج ، ولهذا اختاره مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية ، خبيرا به ، كما انتخب عضوا بالهيئة المشتركة لخدمة التراث العربى ، فى معهد إحياء المخطوطات العربية فى منظمة اليونسكو العربية .

وكانت شهرته فى مجال معرفة التراث وتحقيقه مؤدية إلى أن يختاره مجمع اللغة العربية بالقاهرة خبيرا فى لجنة المعجم الكبير ، وكان عمله خلال السنوات الأخيرة فى هذه اللجنة ، ثريا لها ، بما كان يقدمه من تحقيقات ، ومراجعات ، تشهد بعلمه الواسع بالتراث ، ومعرفته العميقة بمظانه ، والتمرس بتحقيق مخطوطاته .

بلغ من تقدير المجمع لجهوده ، أن كثيرا من أعضائه رأوه جديرا بأن يرشح لعضوية المجمع لولا وفاته المفاجئة.

وداعا.. د. محمود الطناحى